

صورة عبدالملك بن مروان  
عند شعراء العصر الأموي



تصميم محمد حاج سمير أبو دياك



بسم الله الرحمن الرحيم

صورة عبدالملك بن مروان عند شعراء العصر  
الأموي



صورة

عبدالملك بن مروان  
عند شعراء العصر الأموي

The Image of Abd Al-Malik Bin Marwan  
At The Ummayad's Poets

تأليف  
تحسين محمد حاج مسعود أبودياك

الطبعة الأولى  
2018م



المملكة الأردنية الهاشمية  
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية  
( 2018/1/6115 )

أبودياك ، تحسين محمد حاج مسعود  
صورة عبدالمملك بن مروان عند شعراء العصر الأموي/ تحسين محمد حاج مسعود  
أبودياك، عمان، من المحيط إلى الخليج للنشر والتوزيع 2018.  
( ) ص  
ر.إ: 2018/1/6115  
الوصافات : /

© Copyright

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.



دار خالد اللحاني للنشر والتوزيع  
المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة  
ص. ب 21402  
الرمز البريدي 21955  
هاتف: 00966555008626  
البريد الإلكتروني: shs1427@gmail.com

دار من المحيط إلى الخليج للنشر والتوزيع  
هاتف:

00962799817307

00966506744232

البريد الإلكتروني

azkhamis01@hotmail.com

azkhamis01@yahoo.com

الإهداء

إلى رفيقة دربي :

أم أحمد

إلى زينة الحياة الدنيا :

آلاء وهناء وأحمد ومحمد ومحمود



تناولت هذه الدراسة صورة عبد الملك بن مروان في الشعر الأموي، وقد جاءت في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول، تحدثت المقدمة عن أهمية الدراسة وهدفها المتمثل برسم صورة مكتملة لعبد الملك بن مروان من خلال الشعر الأموي بشقيها الإيجابي والسلبي، وعرضت الدراسات السابقة التي تناولته، التاريخية منها والأدبية، كما تحدثت عن أهم المصادر والمراجع التي استقت منها جل معلوماتها، واستعرض التمهيد أهم الوقائع السياسية التي جرت منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان إلى أن استتب الأمر لعبد الملك بعد المعارك العنيفة التي خاضتها جيوشه ضد خصومه من الزبيريين والخوارج والشيعة.

وأفرد الفصل الأول للحديث عن صورة عبد الملك عند الشعراء المادحين له المكثرين منهم والمقلين، وقد تحدثت ملامح صورة عبد الملك الإيجابية عند هؤلاء الشعراء من خلال استعراض قصائدهم المدحية التي قالوها فيه.

وخصص الفصل الثاني للتعرف على الصورة السلبية التي رسمها له الشعراء المناوئون لسياسته وهم شعراء كانوا مؤيدين للأحزاب الثلاثة المناوئة لعبد الملك بن مروان، ساهم كل منهم برسم جانب من تلك الصورة السلبية .

وبحث الفصل الثالث موقف عبد الملك بن مروان من الشعراء ونقده لشعرهم، ودعوته لأهل بيته وللناس إلى تعلم الأدب والعناية بحفظه، وموقفه



من رواة الشعر وحفظته ومكافأته لهم، واعتناء أهل بيته بالشعر، وموقفه من بعض الشعراء ونقده لشعرهم، وتشاؤمه من بعض الأشعار التي أنشدت في مجالسه، وتمثله بالشعر المعبر في المواقف المختلفة.

وأجرى الفصل الرابع دراسة فنية لقصائد عدد من الشعراء المادحين التي نظمها أصحابها في مدح الخليفة عبدالمملك، وتم تحليل عدد من هذه القصائد، كما بحث هذا الفصل في بنية القصائد.

وضمنت الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها، وأهم الخصائص التي ميزت شعر المديح في العصر الأموي، وأهم التوصيات التي خلص إليها الباحث.

## **ABSTRACT**

This study aimed to identify the image of Caliph Abd Al-Malik Bin Marwan with its different positive and negative dimensions as was seen by the poets of the Ummayyad age. It also aimed to discover the different stages of his life as well as the most important achievements gained in his period. He was of a supreme position in the field of diplomacy. He opened the gates of his palace widely for the elite of poets who were really as a media for him. They supported him against his opponents of the different parties as Zubayriens, Shiah and Kharijites.

This study included introduction, preface, five chapters and conclusion. In the preface, I dealt with the most important and political facts which occurred from the assassination of Caliph Ottoman Bin Affan and ended with the spread of security by Caliph Abd Al-Malik Bin Marwan after the decisive battles against his opponents.

The First chapter concentrated on the image of Abd AL-Malik from the point view of the poets who used to praise him such as Jareer, Al-Akhtal, Al-Ferazdak and others.

The Second chapter identified his negative image shown by his opponents such as Al-Komait Bin Zaid Al-Asdi and others.

In the Third chapter I discussed the point view of Abd Al-Malik about the poets. I introduced a variety of literary tales taken from literary and critical resources.

The Forth Chapter dealt with a comprehensive study of the praising poets for Abd Al-Malik in addition to analyzing their poems and clarified the approach followed by them.

The conclusion included the results of study which identified the real image of Abd Al-Malik. He was characterized by a supreme personal power, composure and firmness in critical positions and articular matters.

Due to these qualities, he could install the pillars of governance and manage the helm. He also, took great care of poem and poets and awarded them prizes and gifts. He used to receive the poets and hear them in his palace.

Finally speaking, we can say that Abd Al-Malik Bin Marwan had high enthusiasm in respecting poets and more than those of his age.

## المحتويات

مقدمة ..... 13

التمهيد ..... 19

## الفصل الاول

صورة عبدالمملك بن مروان..... 57

عند الشعراء الملاحين..... 57

صورته في شعر جرير..... 68

صورته في شعر الأخطل ..... 75

صورته في شعر الفرزدق ..... 94

صورته في شعر الراعي النميري..... 103

صورته في شعر كثير عزة..... 110

صورته في شعر عبيدالله بن قيس الرقيات ..... 130

صورته في شعر عدي بن الرقاع العاملي ..... 145

صورته في شعر النابغة الشيباني..... 148

صورته في شعر أعشى ربيعة ..... 151

صورته في شعر إبي صخر الهذلي ..... 154

صورته في شعر عبدالله بن الزبير الأسدي ..... 157

صورته في شعر عبدالله بن الحجاج..... 159

صورته في شعر إسماعيل بن يسار النسائي..... 164

صورته في شعر الأحمر بن سالم المري..... 167

صورته في شعر القطامي..... 169

صورته في شعر جواس بن القعطل ..... 170

### الفصل الثاني

صورة عبدالمملك بن مروان عند الشعراء الهجائيين ..... 171

### الفصل الثالث

موقف عبدالمملك بن مروان من الشعراء ونقده لشعرهم..... 191

عبدالمملك وأهل بيته والشعر ..... 213

عبدالمملك ونقده لشعر الشعراء: ..... 220

تشاؤم عبدالمملك ببعض الأشعار ..... 237

تمثله بالشعر..... 242

### الفصل الرابع

دراسة فنية لشعر الشعراء الملاحين..... 249

شعر جرير ..... 257

شعر الأخطل ..... 267

شعر الفرزدق ..... 284

شعر الراعي النميري..... 291

شعر عبيدالله بن قيس الرقيات..... 301

شعر كثير عزة..... 306

الخاتمة..... 311

المصادر والمراجع..... 315

## مقدمة

تمتع عبدالمملك بن مروان بشخصية قوية فذة، وعبقرية عظيمة قلما نجدها عند غيره من الخلفاء، فقد تمكن من إعادة توحيد الدولة الإسلامية ولملمة شتاتها بعد أن كادت الفتى والأطماع تعصف بها وتشردمها وتقسمها إلى دويلات صغيرة ضعيفة متناحرة، يقاتل بعضها بعضا، وما أن توفي والده مروان بن الحكم سنة أربع وستين للهجرة، وتسلم عبدالمملك الخلافة، حتى نجده قد شمر للأمر، واستعمل الحزم والشدة في أحيان كثيرة من أجل إعادة هيمنة الخلافة وسيطرتها على الولايات الإسلامية من شرقها إلى غربها تحت سلطة الخليفة الواحد، وعلى الرغم من انشغاله بالقضاء على الثورات والفتن التي عصفت بالدولة الإسلامية، إلا أنه لم يهمل الجوانب الأخرى المتمثلة بالثقافة والأدب والاقتصاد والفتوحات والعمران وغيرها، فعقد المجالس الأدبية في بلاطه، واستمع إلى الشعراء والأدباء والنقاد والفقهاء والعلماء، وبذل في سبيل إنجاح هذه الجوانب من وقته الشيء الكثير، كما أنفق الأموال الكثيرة على الشعراء وأصحاب الحاجات، وقد روى عبدالمملك الشعر وتذوقه ونقده، وكان ذا رأي صائب في كثير من آرائه النقدية التي عالج فيها كثيرا من استشهاداته الشعرية، وتطور النقد في زمنه تطورا جيدا، واشتعلت الساحة الأدبية في زمنه بأجمل الأشعار والقصائد التي تغنى بها الشعراء المعاصرون له، فهذه ساحة الشعر تغص بأشعار الفرزدق وجريير والأخطل والراعي النميري وكثير عزة وعبيدالله بن قيس الرقيات وغيرهم، ناهيك عن شعراء الفرق الأخرى مثل الشيعة

والخوارج والزبيريين الذين غطت أشعارهم الساحة، وحفظت لنا الأحداث التي جرت في تلك الحقبة المهمة من تاريخ الأمة الإسلامية.

وقد هدفت هذه الدراسة إلى جلاء صورة الخليفة عبد الملك بن مروان بأبعادها المختلفة الإيجابية والسلبية كما رسمها شعراء العصر الأموي، واستكشف مراحل حياته المختلفة وأهم الإنجازات التي تمت في عهده، وصدى هذه الإنجازات ورصدها في الشعر الأموي، فقد احتل عبد الملك منزلة رفيعة في عالم السياسة بعد اعتلائه سدة الحكم وتوليته الخلافة سنة خمس وستين إثر وفاة والده مروان بن الحكم، وفتح أبواب قصره على مصراعيها لاستقبال الشعراء والأدباء والعلماء، وتردد على مجالسه الأدبية فحول شعراء عصره المؤيدين لخلافة بني أمية، وكانوا بمثابة وسائل الإعلام التي تولت الترويج والدعاية والتأييد له ولحكمه في مقابل الأحزاب الأخرى المناوئة له من مثل الزبيرية والشيعة والخوارج.

ولم أعثر من خلال بحثي وتنقيبي في فهارس المكتبات وسؤال أساتذتي من أهل العلم والدراسة والاختصاص على دراسة علمية حديثة تناولت صورة عبد الملك بن مروان في شعر الشعراء المعاصرين له، وكل ما عثرت عليه هو دراسة بعنوان " صورة عبد الملك بن مروان في الرواية الأدبية " للباحثة رابحة مصطفى ياسين أسعد، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الجامعة الأردنية سنة 1996، ودراسة للباحثة أسماء بنت غانم الرفاعي بعنوان " النقد الأدبي في مجالس عبد الملك بن مروان: جمع ودراسة وتحليل " وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في جامعة طيبة سنة 2008، ولم تتطرق الدراستان للحديث عن مدائح شعراء العصر الأموي للخليفة

عبدالمملك أو تعريضهم به، وكتاب بعنوان " الخليفة عبدالمملك بن مروان الناقد الأديب : دراسة وتحقيق " للباحث خليل إبراهيم جفال، لم يتطرق هو الآخر في كتابه للشعر الذي قيل في عبدالمملك، وهناك بعض الدراسات التاريخية والأثرية التي تحدثت عن إنجازاته السياسية والعمرانية مثل كتاب محمد ضياء الدين الرئيس "عبدالمملك بن مروان والدولة الأموية" وكتاب " عبدالمملك بن مروان " تأليف عمر أبو النصر، وهو كتاب تاريخي، ودراسة إبراهيم الحرازة " الإنجازات الفنية في عهد الخليفة عبدالمملك بن مروان " وهي رسالة ماجستير في الآثار مقدمة في الجامعة الأردنية سنة 2002.

وقد نشرت الباحثة فاطمة تجور بحثا بعنوان " صورة الخليفة ومفهوم النموذج " في مجلة جامعة دمشق، تحدثت فيها عن خلفاء بني أمية ابتداء من معاوية بن أبي سفيان وانتهاء بهشام بن عبدالمملك.

من أجل ذلك كله طرحت موضوع رسالتي هذا على أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عفيف عبدالرحمن، فشجعني على المضي فيه، فعبدالمملك بن مروان شخصية كبيرة تستحق استجلاء مختلف جوانب حياتها بسبب الدور الكبير والمهم الذي لعبته هذه الشخصية في تاريخ الأمة العربية.

وقد جاءت دراستي هذه في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة، تحدثت في التمهيد عن أهم الوقائع السياسية التي جرت منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان إلى أن استتب الأمر لعبدالمملك بعد المعارك العنيفة التي خاضتها جيوشه ضد خصومه من الزيريين والخوارج والشيعة.



وأفردت الفصل الأول للحديث عن صورة عبد الملك عند الشعراء المادحين له المكثرين منهم والملقين، وكان منهم جرير والأخطل والفرزدق والراعي النميري، وعبيد الله ابن قيس الرقيات وكثير عزة والنابعة الشيباني وإسماعيل بن يسار وأعشى ربيعة وعبد الله بن الزبير الأسدي وعبد الله بن الحجاج وعدي بن الرقاع العاملي وغيرهم، وقد تحدثت ملامح صورة عبد الملك الإيجابية عند هؤلاء الشعراء من خلال استعراضنا لقصائدهم المدحية التي قالوها فيه.

وخصصت الفصل الثاني للتعرف على الصورة السلبية التي رسمها له الشعراء المناوئون لسياسته وهم شعراء كانوا مؤيدين للأحزاب الثلاثة المناوئة لعبد الملك بن مروان، فالكميت بن زيد الأسدي الشاعر الشيعي الكيساني المتعصب حمل على عبد الملك وعلى بني أمية حملة عنيفة في هاشمياته قبل أن ينقلب إلى شاعر مداح لهم، وعبيد الله بن قيس الرقيات الذي كان زبيري الهوى استخدم الشعر الغزلي السياسي الكيدي من أجل النيل من عبد الملك وآل عبد الملك وذلك بتعرضه لعاتكة زوج الخليفة، ولأم البنين زوج ابنه الوليد، كما أن عبد الله بن الحجاج وعرفجة ابن شريك وعتبان بن وصيلة وأبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط وجواس بن القعطل الكلبي ساهم كل منهم برسم جانب من تلك الصورة السلبية.

وبحثت في الفصل الثالث موقف عبد الملك بن مروان من الشعراء ونقده شعرهم، وأوردت فيه مجموعة من الروايات الأدبية التي نقلتها لنا المصادر الأدبية والنقدية والتاريخية التي تمثل دعوته لأهل بيته وللناس إلى تعلم الأدب والعناية بحفظه، وموقفه من رواة الشعر وحفظه ومكفأته لهم، كما تحدثت عن الروايات

التي بينت اعتناء أهل بيته بالشعر، وعرضت لبعض الروايات التي تناولت موقفه من بعض الشعراء ونقده لشعرهم، وتشاؤمه من بعض الأشعار التي أنشدت في مجالسه، وتمثله بالشعر المعبر في المواقف المختلفة.

وأجريت في الفصل الرابع دراسة فنية لشعر عدد من الشعراء المادحين التي نظمها أصحابها في مدح الخليفة عبد الملك، وقد قمت بتحليل تلك القصائد، فتحدثت عن المنهج الذي اتبعه الشعراء في بنائهم لتلك القصائد، وتبين لي أن معظم الشعراء قد ساروا على نهج أسلافهم سواء في بنائهم الفني لقصائدهم، أو في استخدامهم للألفاظ والمعاني والصور، وقد استخدم هؤلاء الشعراء القيم الجاهلية في المديح إلى جانب القيم الإسلامية المستجدة التي كان عبد الملك يحب أن يمدح بها، أما القصائد التي عرضت لها بالتحليل فهي لكل من جرير والأخطل والفرزدق والراعي النميري وعبيد الله بن قيس الرقيات وكثير عزة.

أما مصادر البحث التي استقت هذه الدراسة جل معالم صورة عبد الملك بن مروان منها فهي في المرتبة الأولى دواوين شعر شعراء العصر الأموي المعاصرين له مثل جرير والأخطل والفرزدق والراعي النميري، وعبيد الله بن قيس الرقيات، وكثير عزة، والكميت بن زيد، والنابعة الشيباني، وعبد الله بن الزبير الأسدي، وإسماعيل بن يسار، وعدي بن الرقاع العاملي، وكتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، بالإضافة إلى مجموعة من كتب المجاميع الشعرية ومنها كتاب جمهرة أشعار العرب للقرشي، وكتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لابن ميمون، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، وأمالي

القالى وذيله، والموشح للمرزبانى، وحماسة البحترى، والكامل فى اللغة والأدب للمبرد، وزهر الآداب للحصرى، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ومعجم الأبناء لياقوت الحموى، ولعل كتاب الأغانى لأبى الفرغ الأصفهانى يأتى فى مقدمة هذه الكتب وذلك لأن الأخبار والروايات الأدبية والتاريخية التى تتحدث عن عبد الملك وعلاقته مع الشعراء تحتشد فيه احتشاداً، أما طبقات ابن سعد وأنساب الأشراف للبلاذرى، وتاريخ دمشق لابن عساکر، والكامل فى التاريخ لابن الأثير، وتهذيب الكمال للمزى، وسير أعلام النبلاء للذهبى، والبدایة والنهاية لابن كثير، وفوات الوفيات للكتبى، وغيرها من كتب التاريخ فهى المصادر الأساسية التى تروى لنا نسب عبد الملك وتتحدث عن أسرته وأهم الأحداث التى مرت بحياته، بالإضافة إلى نقلها الأخبار التاريخية المتعلقة به وبالوقائع التى خاضها مع خصومه، مع استشهاد معظمها بأشعار أفاد البحث منها.

وبعد فهذا عرض سريع لما بسطت فى هذه الدراسة، والله ولى التوفيق.

## التمهيد

ارتبط الأدب العربي بشقيه الشعري والنثري بحياة العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية والدينية، فهذه الظواهر هي التي فرضت على الأدباء والمبدعين العرب في مختلف عصور الأدب العربي أن ينحو كل واحد منهم نحو معالجة هذه القضايا في فنه، وهي التي وجهتهم الوجهة التي نهجوها في مسيرتهم الأدبية، وكان تأثيرهم بها واضحا جليا.

لقد كان الجزء الأخير من عصر صدر الإسلام وبداية العصر الأموي من أكثر عصور المسلمين اضطرابا، حيث شهدت هذه الفترة الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الراشدي عثمان ابن عفان رضي الله عنه، وكان نفوذ بني أمية في الدولة الإسلامية قد بدأ منذ تسلمه مقاليد الخلافة كما تذكر كتب التاريخ القديم وكثير من الدراسات الحديثة التي تناولت هذا العصر، إذ اعتبره الأمويون رأس أسرتهم، وإذا عدنا إلى الوراء قليلا، فسنجد من قراءتنا لما ورد في بعض المصادر التي أرخت للدولة الإسلامية أن بداية الخلاف بين المسلمين قد وقعت منذ وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، حيث اختلف المهاجرون والأنصار على الخلافة<sup>1</sup>، وكان الأمويون بزعامة أبي سفيان بن حرب قد انضموا إلى المهاجرين مطالبين أن تكون الخلافة في قريش، وطالب أبو سفيان أن يتم إسنادها إلى بني هاشم إن صحت

<sup>1</sup> شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، 5/6

الرواية التي تروى عنه ونقلها لنا صاحب شرح نهج البلاغة حيث يقول أبو سفيان:<sup>2</sup>

بني هاشمٍ لا تُطْمَعُوا الناسَ فيكمُمُ      ولا سيما تيم بن مرةٍ أو عدي  
فما الأمرُ إلا فيكمُمُ وإليكمُمُ      وليس لها إلا أبو حسنٍ علي

وقد تم حل الإشكال الذي وقع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مباشرة وبصورة عاجلة دون وقوع أية حادثة تذكر، وبابع المجتمعون يوم السقيفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه، ولم تشهد فترة خلافة كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أي نوع من التنافس والتناحر، والمشكلة التي حدثت والمتمثلة بالردة لا علاقة لها بالخلافة، وقد تم التعامل معها بحزم وتمكن أبو بكر من القضاء عليها في مهدها.

وقد امتازت خلافة أبي بكر وعمر بالاستقرار، وبعد مقتل عمر رضي الله عنه أسندت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وخلال فترة خلافته بدأ نفوذ بني أمية في الدولة الإسلامية يظهر بشكل واضح جلي إن صح هذا التعبير، إذ يقال إن عثمان قد اختار معظم ولاته وعماله على الأقاليم الإسلامية من أبناء الأسرة الأموية، حيث ولى مروان بن الحكم ديوانه وجعله كاتبه في المدينة المنورة<sup>3</sup>، وأقر معاوية على ولاية الشام<sup>4</sup>، وكان معاوية قد ولي الشام في خلافة عمر بن الخطاب، وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح ولاية مصر<sup>5</sup>، وولى عبدالله بن عامر على البصرة

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 17/6

<sup>3</sup> الطبقات الكبرى، ابن سعد، 40/7، تاريخ خليفة بن خياط، 157/1

<sup>4</sup> تاريخ خليفة بن خياط، 157/1

<sup>5</sup> تاريخ خليفة بن خياط، 157/1، الأخبار الطوال، الدينوري، 139

<sup>6</sup>، وولى كلا من سعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط وسعيد ابن العاص الكوفة، وكلهم من بني أمية.<sup>7</sup>

وبسبب ذلك فقد اتهم عثمان بانحيازه إلى أقاربه الأمويين، وإغداق الأموال عليهم، وتقريبهم وإيثار بعضهم بولاية الأعمال، وهكذا لم يرض بعض الناس عن سياسة عثمان لأسباب يرى أحمد الحوفي أن بعضها يتصل بمسائل دينية، وبعضها بمسائل سياسية، وإدارية، واجتماعية، ومالية، وأكثر بعضهم من نصحه، وأغلظ بعضهم في نصحه، لكن عثمان لم يستجب للنصح الرفيق، ولم يستمع للنصح الجاد الحازم، فتفاقم الخطب واتسعت الهوة<sup>8</sup>. وشاعت الفتنة في الأقاليم الإسلامية وكثرت القالة في سياسة عثمان وعماله في كل من الحجاز والعراق والشام ومصر، وقد تجاهلها الخليفة حيناً، وحذر منها باللين أحياناً، وأعوزه الحزم كثيراً<sup>9</sup>.

وقد خرجت جموع من مصر والبصرة والكوفة إلى المدينة المنورة، وحاصروا عثمان أربعين يوماً أو يزيد<sup>10</sup>، ومنعوه من الصلاة في المسجد ومن الماء كذلك<sup>11</sup>، ثم تسور جماعة منهم داره وقتلوه بصورة وحشية سنة خمس وثلاثين للهجرة، وكان مقتله الباب الواسع الذي دخلت منه الفتنة إلى الدولة الإسلامية، وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه، بايع أهل المدينة علي ابن أبي طالب بالخلافة، وانقسم المسلمون بين

<sup>6</sup> تاريخ خليف بن خياط، 156/1، الأخبار الطوال، الدينوري، 139

<sup>7</sup> تاريخ خليفة بن خياط 132/1، الأخبار الطوال، الدينوري، 139 انظر، خلافة بني أمية، نبيه عاقل، 4

<sup>8</sup> أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد الحوفي، 30

<sup>9</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي، 11

<sup>10</sup> تاريخ الطبري، 340/4

<sup>11</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 67/3

مؤيد ومعارض، واضطربت أركان الدولة، فحاول عليّ أن يرد الأمر إلى نصابه، ولكن جرت الأمور على غير ما أراد لها، فثار عليه طلحة والزبير في الكوفة ومعاوية في الشام<sup>12</sup>، ولما انتهى من خصومه في معركة الجمل سارع علي إلى عزل ولاة عثمان ومنهم معاوية بن أبي سفيان، إلا أن معاوية لم يستجب لأمر علي، واتخذ من قتل عثمان والمطالبة بدمه وسيلة للوصول إلى الخلافة، وعلق قميص عثمان على المنبر في دمشق لإثارة أصحابه وأنصاره، مدعياً أن لعلي يدا في قتله، فحمله وزر مقتله، واتهمه بإيواء قتلته، وعقد العزم على رفض الاعتراف بخلافة علي الذي وجه إليه جرير بن عبد الله البجلي لأخذ البيعة منه، ويبدو أن معاوية اتهمه اتهاماً صريحاً بمساعدة قتلة عثمان، وهنا يثور تساؤل في أذهاننا حول صحة ما ذهب معاوية إليه، فهل يعقل أن يتآمر شخص بورع علي على الخليفة، وهل من الممكن أن يكون علي قد حرص على هذا العمل الذي جر الفتنة إلى حاضرة الخلافة الإسلامية، لا سيما أن الصحابة ما زالوا على عهد قريب من الرسول صلى الله عليه وسلم، ويبدو لي أنه لا توجد لعلي أية صلة بقتلة عثمان، وبالتالي استبعد أن يقوم بالتحريض على قتله، أو أن يقصر في الدفاع عنه<sup>13</sup>، وينقل لنا ابن سعد رواية تقول: إن عثمان قد بعث إلى علي يدعوه وهو محصور في الدار فأراد أن يأتيه، فتعلقوا به ومنعوه، فحل عمامة سوداء على رأسه وقال: اللهم لا أرضى قتله ولا أمر به، والله لا أرضى قتله ولا أمر به<sup>14</sup>.

<sup>12</sup> شعر الخوارج، عبدالرزاق حسين، ص14، السياسة والأدب في العصر الأموي، عزيزة فوال بابتي، 311

<sup>13</sup> انظر اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي، 13

<sup>14</sup> الطبقات الكبرى، 65/3

استنفر معاوية أهل الشام في هذه الخصومة، وقد التفوا حوله، والتف أهل العراق (الكوفة) حول علي وبايعوه بالخلافة، وما كان من علي إلا أن اتخذ من الكوفة مقراً له ومركزاً لتجمع أنصاره، وأدى إصراره على عزل معاوية إلى ازدياد حدة الصراع وتطوره، ومعروف عن علي أنه لا يدهن ولا يراي في السياسة، وحشد كل منهما أنصاره للقتال، وكانت معركة صفين<sup>15</sup> الشهيرة سنة 37 هجرية التي كان من نتائجها انتصار معاوية على علي بعد واقعة التحكيم المعروفة، ويقال إن معاوية أقدم على هذه الخطة عندما أيقن أن جيشه سيهزم في هذه المعركة، فما كان من عمرو بن العاص إلا أن أشار عليه بأن يرفع أهل الشام المصاحف على أسنة الرماح، فاستجاب قسم من جنود علي لهذا الطلب وقالوا نحتكم إلى كتاب الله، وتذكر المصادر أن علياً كان يدرك إدراكاً تاماً أن ما فعله معاوية وأنصاره ما هو إلا خدعة لتلافي الهزيمة المحققة التي كانت تنتظرهم<sup>16</sup>، فأرغم علي على الموافقة تحت ضغط أنصاره، وما أن ظهرت نتيجة التحكيم حتى دب الخلاف في صفوف أنصار علي، وظهرت بوادر الخروج عندما دار الأشت على الجند يقرأ عليهم ما اتفق عليه الحكمان<sup>17</sup>. وتعتبر معركة صفين بداية النهاية لخلافة علي، فهي نقطة تحول مهمة، إذ أسفرت عن ظهور ثلاثة أحزاب متصارعة - إن صح التعبير - على الساحة العربية الإسلامية، هي جماعة أو حزب معاوية بن أبي سفيان ومقرها بلاد الشام، وجماعة أو حزب علي بن أبي طالب ومقرها العراق (الكوفة)، وجماعة أو

<sup>15</sup> موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وكانت وقعة صفين بين علي

ومعاوية سنة 37 هـ معجم البلدان، الجزء الثالث 414

<sup>16</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي، ص18

<sup>17</sup> شعر الخوارج، عبدالرزاق حسين، 14



حزب الخوارج وكانت تنتقل في الولايات الإسلامية بعد خروجها على علي وعلى معاوية في الوقت نفسه<sup>18</sup>.

وانقلب ميزان القوى بعد هذه المعركة لمصلحة معاوية، فبانشقاق مجموعة من جند علي وخروجهم عليه وإعلانهم الحرب على علي وعلى معاوية، وتناقل أهل العراق عن نصره علي<sup>19</sup>، أصبحت بوادر رجحان الكفة مع معاوية واضحة جلية لا سيما وأن أهل الشام بقوا على مناصرتهم لمعاوية، وسقطت مصر أيضا بيد عمرو بن العاص وتبعت معاوية<sup>20</sup>، وكانت النتيجة الأهم لهذه المعركة مقتل علي بن أبي طالب على يد عبدالرحمن بن ملجم المرادي الخارجي سنة إحدى وأربعين للهجرة<sup>21</sup>، وقمت مبايعة معاوية في السنة نفسها بالخلافة، واتخذ من مدينة دمشق عاصمة للخلافة، وبعد أن تم الأمر له استطاع معاوية أن يوحد أمصار الدولة تحت لوائه، وبدأ عصر الدولة الأموية<sup>22</sup>.

حاول معاوية بعد أن استقر الأمر له أن يوطد سلطة بني أمية بعقد ولاية العهد لابنه يزيد من بعده، فاستدعى كبار رجال العراق والحجاز وطلب منهم أن يبايعوا لابنه يزيد بولاية العهد<sup>23</sup>، فرفض كل من عبدالله بن الزبير والحسين بن علي تلك

<sup>18</sup> عدي بن الرقاع العاملي حياته وشعره، تحسين الصلاح، 47

<sup>19</sup> تاريخ خليفة بن خياط، 174/1، الأخبار الطوال، 102، تاريخ الطبري، 64/5

<sup>20</sup> تاريخ الطبري، 94/5

<sup>21</sup> تاريخ الطبري، 94/5، تاريخ خليفة بن خياط، 198 ويذكر أن قتل علي تم سنة 40

<sup>22</sup> عدي بن الرقاع العاملي حياته وشعره، تحسين الصلاح، 47

<sup>23</sup> الأخبار الطوال، الدينوري، 302، تاريخ الطبري، 143/5، الخلافة الأموية، نبيه عاقل، 45

البيعة<sup>24</sup>، وبعد وفاة معاوية بدأ الصراع بين الجماعات السياسية المختلفة على السلطة، وشكلت الزبيرية خطراً حقيقياً كبيراً على الخلافة الأموية، لا سيما بعد أن أعلن عبدالله بن الزبير نفسه خليفة في بلاد الحجاز. وكان معاوية قد حذر ابنه يزيد قبل وفاته من عبدالله بن الزبير قائلاً له: ( وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب، فذاك عبدالله بن الزبير، فإن فعل وظفرت به، فقطعه إرباً إرباً، إلا أن يلمس منك صلحاً، فإن فعل فاقبل منه).<sup>25</sup>

وحاول يزيد انتزاع البيعة من الحسين بن علي ومن عبدالله بن الزبير ومن عبدالله بن عمر بعد وفاة والده معاوية، فكتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يقول: ( أما بعد فخذ حسينا وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام )<sup>26</sup> واستحث مروان بن الحكم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بأخذ البيعة منهم بالسرعة القصوى قبل أن يبلغهم موت معاوية، ويبدو أن الوليد قد تأخر في ذلك، فتوجه كل من الحسين بن

<sup>24</sup> تاريخ الطبري، 310/5، مروج الذهب، 27/3، الدولة الأموية، يوسف العش، 153

<sup>25</sup> تاريخ خليفة بن خياط، 222/1، الأخبار الطوال، الدينوري، 227، تاريخ الطبري، 322/5

<sup>26</sup> الأخبار الطوال، 227، تاريخ الطبري، 338/5

علي وعبدالله ابن الزبير إلى مكة قبل أخذ البيعة منهما<sup>27</sup>، وخرج الحسين بن علي بعد ذلك إلى الكوفة، فقتله عبيدالله بن زياد سنة إحدى وستين في موقعة كربلاء<sup>28</sup>.

ويبدو أن أهل المدينة قد نقضوا بيعتهم ليزيد وخلعوه، وحاصروا الموجودين من بني أمية فيها، فطلب بنو أمية النجدة والمساعدة من يزيد الذي هب لمساعدتهم، فأرسل إليهم مسلم بن عقبة المري في جيش من أهل الشام لإنقاذهم، فوجد أن أهل المدينة قد أجلوهم عنها، وتمكن مسلم المري من احتلال المدينة سنة ثلاث وستين للهجرة بعد انتصاره على أهلها في موقعة الحرة<sup>29</sup> وقد عاجلت المنية مسلما المري، فتولى قيادة الجيش الحصين بن نمير السكوني، وقصد مكة المكرمة لمحاربة عبدالله بن الزبير، وفي أثناء حصاره لمكة بلغه خبر وفاة يزيد، وعندما تبين صدق خبر الوفاة رأى عدم جدوى القتال، ودعا إلى الصلح مع ابن الزبير، وقال له: (إن هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر فهل تم نبايعك)<sup>30</sup>، ويبدو أن ابن الزبير لم يكن على ثقة تامة بعرض الحصين بن نمير، وخاف أن يغدر به، وبالتالي يخسر مؤيديه إن قبل بهذا العرض، وقال للحصين (أما دون أن أقتل بكل رجل من أهل الحرة

<sup>27</sup> تاريخ خليفة بن خياط، 232/1، الأخبار الطوال، 228، تاريخ الطبري، 339/5، مروج الذهب، المسعودي، 55/3  
<sup>28</sup> موضع في طرف البرية عند الكوفة، معجم البلدان ج4، ص 445، تاريخ خليفة بن خياط، 132/1، الأخبار الطوال، 259، تاريخ الطبري، 449/5، مروج الذهب، 3 المسعودي، 61/  
<sup>29</sup> هي إحدى حربي المدينة، وهي الحرة الشرقية، أنظر معجم البلدان 249/2، الطبقات الكبرى، ابن سعد، 486/6، تاريخ خليفة بن خياط، 230/1، الأخبار الطوال، الدينوري 265، مروج الذهب، المسعودي، 69/3  
<sup>30</sup> تاريخ الطبري، 502/5

عشرة من أهل الشام فلا<sup>31</sup> وأخذ الحصين يكلمه سرا وهو يكلمه علانية، فغضب الحصين وقال له: لقد كذب من زعم أنك من دهاة العرب، أكلمك سرا وتكلمني جهرا؟<sup>32</sup>

ولما تولى الخلافة معاوية الثاني اجتهد أن يسوس الناس بالعدل، فاستنكر عنف جده وأبيه بالعلويين والزييريين<sup>33</sup>، وحاول أن يلغي قانون وراثة العهد الذي ابتدعه جده، وأن يجعل الخلافة شورى بين المسلمين، يختارون لها أجدرهم بها<sup>34</sup>، ولكن الأجل عاجله، ولم يكتب لاجتهاداته ومحاولاته أن تنمو وتقوى، وتؤتي ثمارها الإصلاحية، ولما أحس بدنو أجله خطب في الناس وقال: اختاروا لأمركم من أحببتم<sup>35</sup>، وانتهى بوفاته عهد الأسرة السفينانية<sup>36</sup>، وأوشكت السلطة الأموية على الانهيار، إذ اضطربت أكثر الأمصار، وثارت على عمالها، وتعددت الطامعون بالخلافة، وجاهر عبدالله بن الزبير بالدعوة لنفسه في الحجاز، وأخرج بني أمية وفيهم مروان بن الحكم من المدينة إلى الشام<sup>37</sup>، وبعث رسله إلى بقية الأمصار، فبايعه أهل العراق والجزيرة واليمن ومصر وخراسان، وبايعه من الشام مركز الخلافة الأموية

<sup>31</sup> تاريخ الطبري، 205/5، الأخبار الطوال الدينوري، 348 وفيه " بكل رجل من أهل الحجاز

<sup>32</sup> تاريخ الطبري 205/5، الأخبار الطوال الدينوري، 268

<sup>33</sup> تاريخ البعقوي، 303/2

<sup>34</sup> مروج الذهب 82/3

<sup>35</sup> مروج الذهب 57/2، التنبيه والإشراف، 265، البداية والنهاية 237/8

<sup>36</sup> شعراء الدولتين الأموية والعباسية، حسين عطوان 25

<sup>37</sup> تاريخ خليفة بن خياط 252/1، مروج الذهب، 83/3، تاريخ الطبري 530/5، التنبيه والإشراف 263، البداية والنهاية

239/8

زفر ابن الحارث بقنسرين<sup>38</sup>، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص<sup>39</sup>، وناتل بن قيس الجذامي بفلسطين<sup>40</sup>، وثار أهل البصرة على عبيدالله بن زياد فأخرجوه منها<sup>41</sup>، ولم يبق مواليا لبني أمية غير أهل الأردن بزعامه حسان بن بحدل الكلبي<sup>42</sup>، وهكذا اضطرب الأمر وتضاربت الأهواء، وصور أزنم الفزاري الأوضاع بقوله<sup>43</sup>:

إِنِّي أَرَى فِتْنًا تَغْلِي مَرَاجِلَهَا      وَالْمَلِكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلَى لِمَنْ غَلَبَا  
وقال عبدالرحمن بن الحكم أخو مروان:<sup>44</sup>  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا بَحْدَلِي عَنِ الْهَوَى      وَإِلَّا زُبَيْرِي عَصَا فَتَزَبَّرَا

<sup>38</sup> زفر بن الحارث من قبيلة هوازن، سكن البصرة، ثم انتقل إلى الشام، شهد صفين، وكان أميراً على قنسرين، وشهد وقعة مرج راهط زبيراً مع الضحاك بن قيس، ثم هرب ولحق بقرقيسيا من أرض الجزيرة وتحصن بها، تاريخ دمشق 34/19، الوافي بالوفيات 199/14.

<sup>39</sup> النعمان بن بشير الأنصاري، كان منقطعاً إلى معاوية، ولاه الكوفة، وولي حمص، بايع لابن الزبير بعد وفاة يزيد ابن معاوية، قتل سنة خمس وستين، طبقات ابن سعد 6/53، الكامل في التاريخ 481/3، تاريخ دمشق 111/62، تهذيب التهذيب، 229/4.

<sup>40</sup> ناتل بن قيس الجذامي، من سادات جذام في الشام، وهومن أهل فلسطين، شهد صفين مع معاوية، وكان من عمال عبيدالله بن الزبير، خرج على عبدالمك بن مروان، فبعث إلي عمرو بن سعيد فقتله سنة ست وستين، تهذيب التهذيب 203/4، تاريخ دمشق 61/372.

<sup>41</sup> تاريخ الطبري 531/5، البداية والنهاية 239/8.

<sup>42</sup> حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، زعيم كلب ومقدمهم، شهد صفين مع معاوية، وكانت له منزلة عند بني أمية، وهو الذي قام بأمر البيعة لمروان بن الحكم، وكان والياً على الأردن، تاريخ الرسل والملوك 531/5، تاريخ دمشق، 448/12، الوافي بالوفيات 359/11، الطبقات الكبرى 489/6، أبو تمام، نقائض جرير والأخطل، 6، تاريخ اليعقوبي، 256/2، سير أعلام النبلاء 162/3، البداية والنهاية 239/8.

<sup>43</sup> الطبقات الكبرى 158/4 و 43/7، تاريخ الطبري، 500/5، حان أولها، مروج الذهب، 66/3، هاجت مراجعها

<sup>44</sup> أنساب الأشراف 264/6

وانقسم الناس إلى فريقين، فريق يتزعمه حسان بن بحدل الكلبي بالأردن، يؤيد بني أمية ويدعو لهم، وفريق يتزعمه الضحاك بن قيس الفهري بدمشق يؤيد ابن الزبير<sup>45</sup>، ويتظاهر بتأييد بني أمية، وهم أن يبايع ابن الزبير وهم مروان بن الحكم أن يكون رسول الضحاك بالبيعة لابن الزبير لولا قيام ابنه عبد الملك وعمرو بن سعيد الأشدق وعبيد الله بن زياد بثنيه عن ذلك<sup>46</sup>، وعندما بلغ هذا الأمر إلى مسامع حسان بن بحدل بالأردن كتب إلى الضحاك يدعوه للدخول في طاعة بني أمية والتخلي عن تأييد ابن الزبير، وأن يعلن ذلك للناس، إلا أن الضحاك على ما يبدو تجاهل هذه الدعوة، فأعلنها شخص من بني كلب، ووقعت بلبلة بين أنصار ابن الزبير وأنصار الأمويين و قد اضطر الضحاك إلى التظاهر بالولاء لبني أمية ( فأرسل يعتذر إليهم ويذكر بلاءه عندهم، وأنه لم يرد شيئاً كرهوه، وقال: اكتبوا إلى حسان فليقدم علينا ولينزل الجابية، ونسير جميعاً حتى نلتقي فنستخلف رجلاً منكم ). وخرج حسان في كلب وأهل الأردن حتى نزل الجابية، والتحق بهم بنو أمية وفيهم مروان بن الحكم وعمرو ابن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد، وأنصارهم من أهل دمشق، وخرج الضحاك وأنصاره إلى الجابية، والتحق بهم أنصار ابن الزبير من القيسية وطلبوا من الضحاك أن يظهر البيعة لابن الزبير، فنزل الضحاك إلى مرج راهط، وأعلن البيعة لابن الزبير وكتب لابن الزبير يبلغه بالبيعة وطلب الضحاك من أمراء الأجناد ممن هم على طاعة ابن الزبير في الشام أن يمدوه بالمقاتلين، فأمدته

<sup>45</sup> الضحاك بن قيس الفهري، يقال كانت له صحبة، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، شهد فتح دمشق، وشهد صفين مع معاوية، سير أعلام النبلاء 241/3، الوافي بالوفيات، 351/16، تاريخ دمشق 280/24  
<sup>46</sup> أنساب الأشراف 6265/6، تاريخ الطبري 534/5، التنبيه والإشراف 266،

أمراء حمص وقنسرين وفلسطين بالمقاتلين. ويبدو كما تذكر المصادر أن المجتمعين من أنصار بني أمية في الجابية لم يكونوا متفقين على خليفة من بينهم، فمنهم من كان يرى أن تكون الخلافة لخالد بن يزيد، ويتزعم هذا الاتجاه الكلبيون بزعامة حسان بن بحدل الكلبى، ومنهم من يرى أن تكون البيعة لمروان بن الحكم، وبعد أخذ وعطاء تمت البيعة لمروان بن الحكم سنة 64 للهجرة<sup>47</sup> وتوجه مروان ببني أمية وأنصارهم من القبائل اليمنية قاصدين الضحاك وجيوشه من أنصار ابن الزبير المحتشدين في مرج راهط<sup>48</sup>، وتذكر المصادر أنه تمكن من جمع ثمانية عشر ألفا وفي بعض الروايات ثلاثة عشر ألفا من المقاتلين<sup>49</sup>، أكثرهم من القبائل اليمنية، والتقى الجمعان هناك، ووقعت بينهم معركة طاحنة أسفرت عن هزيمة أنصار ابن الزبير ومقتل الضحاك نفسه في المعركة، بالإضافة إلى مقتل خلق كثيرين من القيسية.<sup>50</sup>

وبذلك أحبطت ثورة القبائل القيسية، وخلصت الشام كلها لمروان بن الحكم، وتمت له البيعة فيها، وانتقلت السلطة من البيت السفيفاني إلى البيت المرواني.<sup>51</sup>

<sup>47</sup> أنساب الأشراف 268/6، مروج الذهب 67/2

<sup>48</sup> الطبقات الكبرى، 45/7

<sup>49</sup> أنساب الأشراف 268 / 6، تاريخ الطبري 533،538/5، مروج الذهب 67/3، التنبيه والإشراف 267، الكامل في التاريخ 150/4، سير أعلام النبلاء 164/3،

<sup>50</sup> شعراء الدولتين الأموية والعباسية، حسين عطوان 25، عبدالمك بن مروان والدولة الأموية، محمد ضياء الدين الرئيس، 45

<sup>51</sup> الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، النعمان القاضي 48

ويبدو أن معركة مرج راهط قد ساهمت بشكل فاعل بعودة الحالة الطبيعية في الدولة الأموية إلى سابق عهدها، وهي التي بنتيجتها انتقلت الخلافة من الأسرة السفينانية إلى الأسرة المروانية، وقد تمكن المروانيون لاحقاً بقيادة عبد الملك بن مروان من إعادة الاستقرار وتوطيده بصورة قوية، لكن تمخض عن هذه المعركة بشكل بشع وموجع ما يطلق عليه العصبية القبلية، وهي صراعات دامية وقعت بين القبائل اليمنية والقبائل القيسية.

ولكن الموقف عاد شبيهاً بما كان عليه الأمر بعد مقتل عثمان، إذ وقفت الشام وحدها أمام الأمصار الإسلامية مجتمعة، ونجح مروان في أن ينتزع مصر من طاعة ابن الزبير، وأن يولي ابنه عبدالعزيز عليها.

وفي هذه الأثناء أرسل عبدالله بن الزبير أخاه مصعباً على رأس حملة إلى فلسطين في محاولة لإعادة نفوذه إليها، فوجه إليه مروان جيشاً بقيادة عمرو بن سعيد بن العاص أعاده على أعقابها، كما وجه مروان جيشاً إلى العراق بقيادة عبيد الله بن زياد على أن يؤدب في طريقه زفر بن الحارث ومن تبعه من القيسية في قرقيسيا، وكان عمير بن الحباب قد انضم إليه وأخذ يغير غارات كثيرة على كلب في أيام متعاقبة مثل يوم الغوير ويوم الهيل ويوم كابة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان<sup>52</sup>، ووالث قيس غاراتها على تغلب ونكل عمير بن الحباب بها في غير موقعة وبخاصة يوم ماكسين الذي أسر فيه القطامي الشاعر، فلما عرفه زفر أعطاه مائة من الإبل مما

<sup>52</sup> الأغاني، 17/24



جعله ينوه به طويلا في شعره<sup>53</sup>. لم يطل الأمر لمروان بن الحكم كثيرا بعد توليه الخلافة الأموية في مؤتمر الجابية سنة أربع وستين للهجرة، فقد توفي بعد عدة أشهر من تسلمها في رمضان سنة خمس وستين للهجرة، وكان قد أقر ولديه عبدالمملك وعبدالعزیز على ولاية العهد<sup>54</sup>، وتسلم عبدالمملك الخلافة بعد وفاة والده، وتسلم معها جميع المشكلات والمصاعب التي سادت في هذه الفترة، وكان الأمر - كما ذكرنا سابقا - قد استقر في الشام ومصر لصالح الأمويين، أما الحجاز والعراق وفارس وخراسان فقد كانت موالية لعبدالله بن الزبير، وكانت الكوفة خاضعة للمختار بن عبيد الثقفي الذي أظهر التأييد لمحمد بن الحنفية، وكان يجد في طلب الثأر للحسين بن علي، وكان في الوقت نفسه خصما لعبدالمملك بن مروان ولعبدالله بن الزبير، وكان العداء والخصام بين عبدالمملك وابن الزبير قويا.

اتصف عبدالمملك بالحزم وعلو الهمة ورباطة الجأش في تصديه لمنافسيه من الزبيريين والشعبة والخوارج، وقد اعتمد في صراعه مع أعدائه على مجموعة من الرجال الأوفياء لبني أمية الأشداء في المعارك من أبناء القبائل اليمانية، ومن هؤلاء الرجال كان حسان بن بحدل الكلبي، وقيصة بن ذؤيب، وروح بن زنباع، والحجاج بن يوسف الثقفي.

ولا بد لنا من إعطاء لمحة سريعة مختصرة عن شخصية عبدالمملك بن مروان كما وردت في المصادر المختلفة قبل الانتقال إلى الحديث عن إنجازاته العسكرية

<sup>53</sup> الأغاني، 27/24.

<sup>54</sup> تاريخ خليفة بن خياط 328/1، تاريخ الطبري 610/5

والسياسية، فقد نشأ في المدينة المنورة نشأة دينية ثقافية عالية، وكان فصيحاً بليغاً صريحاً، حفظ القرآن الكريم وقرأ العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث على مشيخة الحجازيين في المدينة المنورة<sup>55</sup>، وكان أبوه مروان بن الحكم كاتباً لابن عمه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه،<sup>56</sup> وقد قاتل يوم الدار قتلاً شديداً دفاعاً عن عثمان،<sup>57</sup> وشهد عبدالملك يوم الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين<sup>58</sup>، وقد استعمله معاوية على أهل المدينة وهو ابن ست عشرة سنة<sup>59</sup>، ومن هنا نلاحظ أن عبدالملك ابن مروان قد شهد الفتنة الأولى التي حدثت في زمن عثمان بن عفان، كما شهد حرب علي ومعاوية وكارثة كربلاء، وقد نشأ عبدالملك متعبداً، سمع من عثمان بن عفان، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والصلحاء والعباد، وروى الحديث الشريف عن أبيه، وعن جابر، وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبربرة مولاة عائشة، وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان، وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجريير بن عثمان.<sup>60</sup>

<sup>55</sup> تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، 239

<sup>56</sup> الطبقات الكبرى 39/7

<sup>57</sup> الطبقات الكبرى 40/7

<sup>58</sup> المصدر نفسه 221/7، تاريخ الطبري، 6/419، فوات الوفيات 402/2

<sup>59</sup> المصدر نفسه 221/7، فوات الوفيات 402/2

<sup>60</sup> البداية والنهاية 219/9، فوات الوفيات 402/2

لقد كان عبد الملك بن مروان قبل توليه الخلافة يعد من الزهاد والفقهاء والملازمين للمسجد القارئ للقرآن<sup>61</sup>، قال نافع " لقد رأيت عبد الملك بن مروان وما بالمدينة شاب أشد تشميرا ولا أطلب للعلم منه " <sup>62</sup>

وقال الأعشى بن أبي الزناد: "كان فقهاء المدينة أربعة، سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان " <sup>63</sup> ويذكر ابن سعد أن عبد الملك كان قد جالس الفقهاء والعلماء وحفظ عنهم، وكان قليل الحديث<sup>64</sup>

ويروي صاحب الطبقات أن عبد الملك قد مر بمعاوية وعمرو بن العاص، فقال معاوية ما أدب هذا الفتى وأحسن مروته، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن هذا الفتى أخذ بخصال أربع وترك خصالا ثلاثا، أخذ بحسن الحديث إذا حَدَّث، وحسن الاستماع إذا حُدِّث، وحسن البشر إذا لقي، وخفة المؤونة إذا خولف، وترك من القول ما يُعْتَدَّرُ منه، وترك مخالطة اللئام من الناس، وترك مباححة من لا يوثق بعقله ولا مروته.<sup>65</sup>

قيل لابن عمر: إنكم معشر أشياخ قريش توشكون أن تنقرضوا، فمن نسأل بعدكم ؟ قال: إن لمروان ابنا فقيها فسلوه.<sup>66</sup>

<sup>61</sup> البداية والنهاية 219/9

<sup>62</sup> الطبقات الكبرى 231/7 تاريخ دمشق 119/37

<sup>63</sup> تاريخ دمشق 120 / 37، تاريخ بغداد 389/10، الكامل في تاريخ 250/4

<sup>64</sup> الطبقات الكبرى 223/7

<sup>65</sup> الطبقات الكبرى 222/7، تاريخ دمشق 122/37، تاريخ بغداد 389/10، المصون في الأدب، 140

<sup>66</sup> الطبقات الكبرى 223/7، تاريخ بغداد 389/10

وسأل سعيد بن المسيب ابن ذمل العذري قال: قد بلغني أنك مدحت هذا، وأشار بيده نحو الشام يريد عبد الملك، قال نعم يا أبا محمد قد مدحته، أفتحب أن تسمع القصيدة، قال: نعم اجلس، فأنشده حتى بلغ قوله:

فما عابَتْكَ في خُلُقٍ قُرَيْشُ      بيثربَ حينَ أنتَ بها غلامٌ

فقال سعيد: صدقت ولكنه لما صار إلى الشام بدّل<sup>67</sup>،

وكتب معاوية إلى مروان وهو نائبه على المدينة سنة خمسين أن ابعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خديج، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئا كثيرا<sup>68</sup>.

قال الشعبي " ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ما ذاكرته حديثا إلا زادني منه ولا شعرا إلا زادني فيه "<sup>69</sup> وهذا القول يشير إلى أنه كان من أكثر الناس علما وأبرعهم أدبا وأحسنهم في شببيته دبانة، وكان كما ذكرنا سابقا يسمى حمامة المسجد لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة، وتذكر إحدى الروايات أن سعيد بن المسيب قال لعبد الملك يوما : بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلا، قال إي والله، وقتلت النفس<sup>70</sup>، وينقل عدد من المؤرخين هذا الخبر على لسان أم الدرداء، حيث كان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يجلس إليها في مؤخر

<sup>67</sup> تاريخ دمشق 123/37، تاريخ بغداد 93/10

<sup>68</sup> البداية والنهاية 220/9

<sup>69</sup> التاريخ الكامل 4/ 250، البداية والنهاية 6/9، تاريخ دمشق 124/37

<sup>70</sup> العقد الفريد 57/8

المسجد بدمشق وهو خليفة، فجلس إليها مرة من المرات، فقالت له: يا أمير المؤمنين بلغني أنك شربت الطلاء بعد العبادة والنسك، قال: إي والله يا أم الدرداء، والدماء قد شربتها...<sup>71</sup>، وعلى الرغم من نقل كثير من المصادر لهذه الرواية على لسان سعيد بن المسيب مرة وعلى لسان أم الدرداء مرة أخرى، إلا أنني أشك في مصداقيتها، وأعتقد أنها من وضع أعداء عبد الملك بن مروان الذين حاولوا تشويه صورته بشتى الوسائل، وأما الزج بأسماء فقهاء الأمة مثل سعيد بن المسيب وأم الدرداء في مثل هذه الروايات ونقلها على ألسنتهم، فهو يهدف إلى إعطائها نوعاً من المصداقية، فنحن نتكلم عن خليفة للمسلمين من حفظة القرآن الكريم، ومن فقهاء المدينة المنورة، ومن العباد والزهاد باعتراف معظم من ترجموا له، فكيف يعترف خليفة المسلمين لمن يجالسه بأنه يشرب الخمر ويقتل النفس التي حرم الله، ويشرب الدماء، نعم، لقد اتصف عبد الملك بالشدة والحزم وقوة الشخصية، وحاول جاهداً القضاء على الفتن التي ثارت في زمنه، ولولا هذا الحزم وهذه الشدة والقوة التي استخدمها مع المخالفين لما تمكن من لم شتات الأمة الإسلامية بعد أن كانت أحزاباً متفرقة، ولبقيت الدولة الإسلامية مجموعة من الدويلات والأقاليم المتفرقة، كل إقليم يحارب الإقليم الآخر، ولا يعني استخدامه للقوة والشدة والحزم، أنه اقترف الموبقات كما تصوره كثير من الروايات، وهو ليس من عامة الناس حتى يتحدث بمثل هذا الحديث وهو يعلم حق العلم عواقبه، وقد عرف الرجل برجاحة العقل والقدرة على تصريف الأمور، واستطاع بشخصيته القوية المتزنة أن ينتشل

<sup>71</sup> انظر البداية والنهاية، 225/9، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، حوادث سنة 81-100 ص 142، سير أعلام النبلاء 249/4، تاريخ دمشق 151/37، تاريخ الخلفاء 172

الأمة الإسلامية من الفوضى التي وصلت إليها، وتمكن بسبب حنكته السياسية وقوة إرادته وعزمه على تحقيق أهدافه خلال السنوات السبع الأولى من خلافته وأن يقضي على الفتن والحروب التي كانت تعصف بالمسلمين من كل جانب، واستقامت له الأمور، وهدأت الأحوال وساد السلام بعد أن كان متعذرا، وقضى بقية خلافته بهدوء، وانعكس ذلك الهدوء والسلام على أبنائه الذين تولوا الخلافة من بعده، فعاشت الدولة الإسلامية برغد ورخاء وسلام داخلي بعده في خلافة أولاده الذين تمكنوا من توسيع رقعة الدولة عن طريق الفتوحات بسبب الأمن الداخلي الذي هبأه لهم والدهم عبد الملك بن مروان.

ويذكر الجاحظ في كتاب الحيوان على لسان عبد الملك الرواية التالية، " قال عبد الملك كنت أمشي في الزرع فأتقي الجندب أن أقتله، وإن الحجاج ليكتب إلي في فئام من الناس فما أحفل بذلك، وقيل له وقد أمر بضرب أعناق الأسرى أفسكت الخلافة يا أمير المؤمنين، وقد كنت رؤوفا، قال، كلا، ما أقستني، ولكن أقساني احتمال الضغن على الضغن " <sup>72</sup>.

وذكرت بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان كان من أحسن الناس علما وأبرعهم أدبا، وأحسنهم في شبابه ديناً، ولما سلم عليه بالخلافة، كان في حجره مصحف، فأطبقه وقال " هذا فراق بيني وبينك " <sup>73</sup>.

<sup>72</sup> الحيوان 591/5

<sup>73</sup> الكامل في اللغة والأدب 147/3، تاريخ دمشق 128/37، تاريخ بغداد 390/10، فوات الوفيات 40/2

وهذا كلام فيه شك كبير، ولا نستطيع أن نطمئن إليه بسبب ما أثار عن عبد المملك بن مروان من التدين والتقوى فهل يعقل أن يقوم بمنزلة الخليفة عبدالمملك وعلمه ومكانته وتقاه وتدينه بتنحية القرآن الكريم جانبا والتلفظ بمثل هذه العبارة وهو يعلم أن القرآن هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو الحافظ له، وهو دستور المسلمين المقدس، وأن الإسلام والخلافة لا تقوم إلا بتطبيق أحكام الله التي جاءت في هذا الكتاب العزيز، إن شخصية بحجم شخصية عبدالمملك لا يعقل أن تجرؤ على قول مثل هذا الكلام لأنه يعلم عاقبة مثل هذا التصرف، وإذا كنا نحن مع بعد العهد بيننا وبين الرعيل الأول من المسلمين لا نقبل من أي شخص مهما كانت منزلته سواء رفيعة أو وضيعة، أو كان مسلما أو غير مسلم أن يمس القرآن الكريم بسوء، أو أن يتلفظ أو يتصرف أي تصرف من شأنه أن يسيء لهذا الكتاب العزيز، فكيف بالصحابة والتابعين قريبي العهد من الرسول الكريم الذي نزل هذا الكتاب عليه، أن يقبلوا من شخص سيتولى أمورهم تنحية القرآن الكريم جانبا، وأن يطبقه كما تزعم تلك الرواية، ويقول له هذا آخر العهد بك، ويسكتون على مثل هذا العمل المشين الذي لا يقبله أي مسلم مهما كانت درجة علمه وثقافته وتدينه، وأنا أقول إن عبدالمملك الخليفة المسلم لا يمكن بأي حال من الأحوال، ولأي سبب كان، أن يتصرف مثل هذا التصرف وهو ما هو من التدين والعلم والتقوى والفقه، إنه خليفة المسلمين.

قال مالك بن عمارة اللخمي: "كنت أجالس في ظل الكعبة أيام الموسم عبدالمملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي أشعار العرب وآثار الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحدهم ما أجد عند عبدالمملك بن

مروان من الاتساع في المعرفة، والتصرف في فنون العلم، والفصاحة والبلاغة، وحسن استماعه إذا حَدَّث، وحلاوة لفظه إذا حَدَّث، فخلوت معه ذات ليلة فقلت: والله إنني لمسرور بك لما أشاهده من كثرة تصرفك وحسن حديثك وإقبالك على جليسك، فقال إن تعش قليلا فسترى العيون طامحة إلي والأعناق قاصدة نحوي فلا عليك أن تعمل إلي ركابك. فلما أفضت إليه الخلافة شخصت أريده..... ( ودار حديث بينهما ) فقال عبدالمملك: والله ما هو بميراث ادعيناه، ولا أثر وعيناه، ولكنني أخبرك عن نفسي خلاصا سَمْتُ بها نفسي إلى الموضع الذي ترى، ما لاحت ذاد ولا ذاق قرابة قط، ولا شمت بمصيبة عدو قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي، ولا قصدت كبيرة من محارم الله متلذذا بها وواثبا عليها، وكنت من قريش في بيتها، ومن بيتها في وسطه، فكنت آمل أن يرفع الله مني، وقد فعل...."<sup>74</sup>

إذن هذه هي الصفات التي اتصف بها عبدالمملك بن مروان، وهي صفات حميدة يتحلى بها المسلم الحق، وبشهادة مالك بن عمارة اللخمي الذي كان يجالسه في مواسم الحج في ظلال الكعبة المشرفة، مع الفقيهين المعروفين قبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، ومجلسهم هذا كان مجلس علم ومذاكرة، وقد تحدث مالك عن علم عبدالمملك وخلقه قبل توليه الخلافة، ووصفه بالأوصاف نفسها التي وردت على لسان غير واحد من الرواة، فهو واسع المعرفة والعلم، فصيح بليغ، يحسن الاستماع إلى محدثه، ويمتاز بجميل العبارة إذا حدث، وهذا ما زرع السرور في نفس مالك، فصاحبه يتحلى بهذه الأخلاق الحميدة، ويبدو من حديث عبدالمملك أنه

<sup>74</sup> الإمتاع والمؤانسة 2 / 70-71.



كان يتوقع أن تؤول الخلافة إليه، لذلك طلب من مالك بن عمارة إن أدرك خلافته أن يزوره .

ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة خمس وستين، أنه في هذه السنة بويح لعبدالمملك وعبدالعزیز ابني مروان، وكان السبب أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير حين وجهه أخوه إلى فلسطين، رجع إلى مروان وهو بدمشق وقد غلب على الشام ومصر، فبلغ مروان أن عمراً يقول إن الأمر لي بعد مروان، فدعا مروان حسان بن مالك بن بحدل فأخبره أنه يريد أن يبايع لولديه عبدالمملك وعبدالعزیز، وأخبره بما بلغه عن عمرو، فقال: أنا أكفيك عمراً، فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قام حسان فقال: إنه بلغنا أن رجلاً يتمنون أمانی، قوموا فبايعوا لعبدالمملك وعبدالعزیز من بعده، فبايعوا عن آخرهم<sup>75</sup>.

وعندما تولى عبدالمملك الخلافة بهذا العهد بعد وفاة أبيه، كان عليه أن يواجه مجموعة من المشكلات التي كانت قائمة وكانت تشكل تحدياً كبيراً له، وأولى هذه المشكلات وأكبرها كانت وجود خليفة آخر يسيطر على معظم أقطار الدولة الإسلامية، وهو عبدالله بن الزبير، وكذلك فرق الشيعة التي انتشرت في العراق، وحركة الخوارج التي أقضت مضجع الدولة، أضف إلى ذلك العدو التقليدي المتمثل بالروم.

وأخذ عبدالمملك يهيء نفسه لملاقاة مصعب بن الزبير في العراق، ففوجيء بخروج عمرو بن سعيد عليه بدمشق مطالباً بحقه في الخلافة، تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في

<sup>75</sup> الكامل ابن الأثير 12/4، ورد فيه حسان بن ثابت وهو خطأ

مؤتمر الجابية،<sup>76</sup> ويذكر الدينوري أن بني أمية وأشرف أهل الشام قد تدخلوا في الأمر واستطاعوا أن يصلحوا بينهما، على أن يكونا مشتركين في الحكم، وأن يكون مع كل عامل من عمال عبد الملك عامل يعمل لصالح عمرو بن سعيد، وأن اسم الخلافة يكون لعبد الملك، والخليفة من بعده عمرو بن سعيد، وكتبنا فيما بينهما كتابا بذلك وأشهدا أشرف أهل الشام عليه<sup>77</sup>، ويبدو أن عبد الملك قد بيت النية للتخلص من منافسه عمرو بن سعيد، ويتضح ذلك من إجابته لروح بن زنباع عندما سأله إن كان سيفي بوعده لسعيد، فأجابه عبد الملك بقوله: "ويحك يا ابن زنباع، وهل اجتمع فحلان في هجمة قط إلا قتل أحدهما صاحبه"<sup>78</sup>. وبعد ذلك قتل عبد الملك عمرو بن سعيد، وبذلك تخلص من منافسته له.

وبعد تخلصه من عمرو بن سعيد تفرغ عبد الملك لمحاربة أعدائه ومنافسيه من الزبيريين والشيعية والخوارج، واستمر على ذلك إلى أن استقرت له الأوضاع، وفي سنة خمس وثمانين تذكر الروايات التاريخية أن عبد الملك قد سعى بتأييد من بعض الشخصيات المقربة منه إلى خلع أخيه عبدالعزيز من ولاية العهد لتعيين ابنه الوليد في مكانه<sup>79</sup>، لكن قبضة بن ذؤيب نهاء عن فعل ذلك.

<sup>76</sup> تاريخ الرسل والملوك، 140/6

<sup>77</sup> الأخبار الطوال 286

<sup>78</sup> الأخبار الطوال 280، انظر تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري إبراهيم زعور، علي أحمد، 52

<sup>79</sup> الطبقات الكبير 7/ 230

وقال النابغة الشيباني شعرا يحث فيه عبدالمك على بيعة الوليد وخلع أخيه عبدالعزيز<sup>80</sup> :

لَا بُنْكَ أُولَى مُلْكٍ وَإِلَيْهِ      وَعَمُّهُ إِنَّ عَصَاكَ مُطَّرَحٌ  
دَاوُدُ عَذْلٌ فَاحْكُمْ بِسُنَّتِهِ      وَأَلْ مِرْوَانَ كَانُوا اللَّهَ قَدْ نَصَحُوا  
فَهُمْ خِيَارٌ فَاعْمَلْ بِسُنَّتِهِمْ      وَآخِيَّ بَخِيرٍ وَاكْدَحْ كَمَا كَدَحُوا

وكان الحجاج قد كتب إلى عبدالمك يزين له بيعة الوليد وأوفد وفدا فيهم عمران بن عصام العنزي الشاعر فقال<sup>81</sup> :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ نُهْدِي      عَلَى النَّأْيِ التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا  
أَجْبِنِي فِي بَنِيكَ يَكُنْ جَوَائِي      لَهُمْ أَكْرَمَةٌ وَلَنَا قَوَامَا  
فَلَوْ أَنَّ الْوَلِيدَ أَطَاعَ فِيهِ      جَعَلْتَ لَهُ الْخَلَافَةَ وَالزُّمَامَا  
شَبِيهُكَ حَوْلَ قُبَّتَيْهِ قَرِيشُ      بِهِ يَسْتَمْطِرُ النَّاسُ الْغَمَامَا  
وَمِثْلُكَ فِي التَّقَى لَمْ يَصِبْ يَوْمًا      لَدُنْ خَلَعَ الْقُلَائِدَ وَالْخَدَامَا  
فَإِنْ تُؤَثِّرَ أَخَاكَ بِهَا فَإِنَّا      وَجَدَكَ مَا نَطِيقُ لَهَا أَتَاهَمَا  
وَلَكِنَّا نُحَاذِرُ مَنْ بَنِيهِ      بَنِي الْعَلَاتِ أَنْ تُسْقَى السُّمَامَا  
وَنَخْشَى أَنْ جَعَلْتَ الْمُلْكَ فِيهِمْ      سَحَابَا أَنْ يَكُونَ لَهَا جَهَامَا

<sup>80</sup> ديوان نابغة بني شيبان 108

<sup>81</sup> أنساب الأشراف 254/7، الأغاني 17/ 199 مع اختلاف في الرواية

فقال عبدالمملك: إنه عبدالعزيز يا عمران، فقال احتل له يا أمير المؤمنين.<sup>82</sup> وكان عبدالمملك قد كتب إلى أخيه عبدالعزيز في هذا الأمر، إلا أن عبدالعزيز رفض ذلك، كما رفض أن يكون الوليد بن عبدالمملك وليا لعهد، ورد على رسالة عبدالمملك بقوله "إني أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد"<sup>83</sup> وكان مروان بن الحكم قد عهد بولاية العهد من بعده لابنيه عبدالمملك وعبدالعزیز كما ذكرنا سابقاً<sup>84</sup>، وهذا يوضح لنا كيف سعى كل خليفة إلى جعل الخلافة في أبنائه من بعده، ويرى أحمد الشايب في ولاية العهد أنها مسألة ذات حدين، تفيد في عدم الاضطراب عند موت كل خليفة لاختلاف الآراء فيمن يلي شؤون الدولة، وتضر فيما تبعث من تنافس حول المرشحين وتعدددهم أحيانا، وكيد بعضهم لبعض مما يؤدي الحكومة نفسها.<sup>85</sup>

وقد توفي عبدالعزيز بن مروان قبل أخيه عبدالمملك، وكانت وفاته في مصر سنة خمس وثمانين للهجرة، ويذكر الرواة أن الخبر قد وصل إلى صاحب الخاتم والبريد قبيصة بن ذؤيب قبل وصوله إلى عبدالمملك، فنقل الخبر إلى عبدالمملك وأبلغه بموت أخيه، فحزن عبدالمملك على موته، لكنه في الوقت نفسه رأى أن مسألة ولاية العهد قد حلت تلقائيا، وبعدها طلب من مستشاريه البيعة فأجمعوا على العهد للوليد ومن بعده لسليمان.

<sup>82</sup> أنساب الأشراف 254/7، الكامل، ابن الأثير 4/254

<sup>83</sup> الكامل لابن الأثير 4/235

<sup>84</sup> تاريخ دمشق 37/166

<sup>85</sup> تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب 196

## الخوارج :

ظهرت جماعة الخوارج بعد عملية التحكيم التي تمت بين علي ومعاوية، وهم مجموعة من المقاتلين الذين كانوا يقاتلون في صفوف علي ضد معاوية وأنصاره، وقد رأت هذه الجماعة أن من العدل والإنصاف عدم قصر الخلافة على قبيلة واحدة أو جماعة معينة، فالخلافة من حق المسلمين جميعا، يتساوى فيها العربي والأعجمي، والإمام الحق هو الذي تجتمع عليه الأمة بالانتخاب لأنه أفضلها تقوى وورعا وزهدا وتحملا للمسؤولية، ونتج عن ذلك أنهم كانوا ينادون على كل زعيم من زعمائهم بأمير المؤمنين<sup>86</sup>، ولهذا رأوا أن الخروج على خلفاء بني أمية واجب لأنهم باعقادهم جاثرون مغتصبون للخلافة<sup>87</sup>، لم تنتخبهم الأمة الإسلامية وإنما فرضوا عليها فرضا، ومن واجب الأمة الخروج عليهم ومحاربتهم وانتزاع الخلافة منهم وتسليمها لمن يختاره المسلمون اختيارا.

شكل الخوارج إزعاجا كبيرا للدولة الأموية بشكل عام منذ خروجهم على علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وكانت لهم وقائع كثيرة معهم، وفي عهد عبد الملك بن مروان اشتدت حركتهم وكثر خروجهم، وبعد أن تمكن عبد الملك من القضاء على عبد الله بن الزبير وتوحيد أمصار الدولة الإسلامية تحت لوائه، عين عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراق، وكانت شوكة الخوارج في هذه الأثناء قد قويت وكثر خروجهم خاصة في الولايات الشرقية من العراق وما

<sup>86</sup> شعر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي، عادل جبر صالح محمد 59

<sup>87</sup> الخلافة الأموية، نبيه عاقل 277

عليها، وانتدبه عبد الملك لمحاربتهم والتضييق عليهم تمهيدا للتخلص منهم، وما كان من الحجاج إلا أن طلب من المهلب بن أبي صفرة العمل على استئصال شوكتهم، وقد أمدّه الحجاج بعدد من القواد على رأسهم عبد الأعلى بن عبد الله العامري، وعبد الرحمن بن سبرة، والتقّى المهلب بهم في كرمان، وقتل قائدهم عبد الله بن الماجور، فولّى الخوارج مكانه عليهم قطري بن الفجاءة<sup>88</sup>، وتبعهم المهلب ففروا إلى اصطخر، ولم يترك المهلب لهم فرصة لالتقاط الأنفاس وبقي يطاردتهم في كل مكان يحلون فيه، وبعد أن انتصر الحجاج على الأزارقة تصدى للخوارج الصفرية، الذين كان يتزعمهم شبيب، وقد تمكن شبيب في بداية الأمر من إلحاق الهزائم المتوالية بجيوش الحجاج،<sup>89</sup> ووصل إلى الكوفة، لكنه تراجع عنها لكثرة جند الحجاج، وبعد رحيل الحجاج عن الكوفة إلى البصرة، هاجمها شبيب ودخلها، إلا أن الحجاج عاد إليها مرة أخرى بعد أن دخلها شبيب، ووقعت بين الطرفين عدة معارك من أهمها وقعة سوق حكمة عند الكوفة، ووقعة دجيل، وفيها هزم شبيب وغرق جزء من جيشه ومات هو سنة سبع وسبعين للهجرة، وموته لم تقم للخوارج قائمة في زمن عبد الملك<sup>90</sup>

<sup>88</sup> الأخبار الطوال 275

<sup>89</sup> الطبري 220/6، الكامل في التاريخ 394/4

<sup>90</sup> تاريخ الطبري 273/6، البداية والنهاية 14/9، انظر: التاريخ الإسلامي العام، علي إبراهيم حسن 346، الخلافة الأموية، نبيه عاقل 296

أجمع الشيعة بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجية بعد مقتل الحسين بن علي ومن معه في موقعة كربلاء على الأخذ بالثأر له من قتلته، وأطلقوا على أنفسهم اسم التوايي<sup>91</sup>، وهم الذين ندموا على خذلهم الحسين بن علي وعدم نجده، وساروا إلى موقع يدعى عين الوردة سنة خمس وستين للهجرة، واشتبكوا هناك مع عبيدالله بن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق، ثم أمره عبدالمملك بن مروان، وتمكن عبيدالله بن زياد من هزيمة الشيعة وقتل سليمان ابن صرد.<sup>92</sup> ورحلت فلولهم إلى الكوفة، وبقوا فيها إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة المختار بن عبيد الثقفي، الذي عرف بطموحه للوصول إلى السلطة، ولكن عبيدالله بن زياد تمكن من القبض على المختار الثقفي وحبسه وضربه حتى شطر عينه، وعندها أرسل المختار إلى عبدالله بن عمر ليتشفع له عند يزيد بن معاوية، فأمر يزيد بإطلاق سراحه، ورحل المختار إلى الحجاز، وأصبح من أنصار عبدالله بن الزبير، لكن ابن الزبير كان قليل الثقة به، ثم عاد المختار إلى العراق، واجتمع بالشيعة وأخبرهم أنه رسول محمد بن علي بن أبي طالب، فبايعه أهل الكوفة<sup>93</sup>، وكان يلي الكوفة في ذلك الوقت عبدالله بن مطيع من قبل عبدالله بن الزبير واشتبك معه المختار في سنة ست وستين، وتغلب المختار على العراق، وأرسل عماله إلى

<sup>91</sup> مروج الذهب 102/3، الكامل، 158/4.

<sup>92</sup> تاريخ اليعقوبي 557/2، التاريخ الإسلامي العام، علي إبراهيم حسن 237

<sup>93</sup> الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، محمد جمال الدين سرور

الولايات، وعين على البصرة عبدالرحمن بن سعيد بن قيس<sup>94</sup> الذي التقى مع عبيدالله بن زياد وقتل في هذه المعركة، وقتل معه كثير من أشرف أهل الشام وتتبع المختار قتلة الحسين بن علي<sup>95</sup>، وقد احتدم الصراع بعد ذلك بين الزبيريين وبين الشيعة بقيادة المختار، ووقف عبدالملك يرقب الموقف لعلهما ينهيان بعضهما بعضا، وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على المنتصر منهما، وبدأ ابن الزبير سنة 67 للهجرة يعد العدة لمواجهة المختار وأعوانه في العراق، فعزل الحارث بن أبي ربيعة عن البصرة، وولاه أخاه مصعبا الذي أظهر الشدة<sup>96</sup>، وسار مصعب بن الزبير ومعه المهلب بن أبي صفرة الأزدي نحو الكوفة، والتقى المختار وجيشه في حروراء<sup>97</sup> ودارت بينهم معركة ضارية انهزم فيها جيش المختار، وقتل المختار نفسه فيها، كما قتل من أنصاره ستة آلاف، وقيل سبعة آلاف<sup>98</sup> وتتبع مصعب الشيعة في الكوفة وغيرها.<sup>99</sup>

وبعد مقتل المختار طلب مصعب من إبراهيم بن الأشتر قائد جيش المختار أن يبايع عبدالله بن الزبير أمير المؤمنين، وقد استشار ابن الأشتر أصحابه، فطلب قسم منهم دخوله في طاعة ابن الزبير، وقسم منهم طلب منه الدخول في طاعة عبدالملك

<sup>94</sup> تاريخ يعقوبي 258/2

<sup>95</sup> التاريخ الإسلامي العام، علي إبراهيم حسن 338

<sup>96</sup> الطبقات الكبرى 138/5، الأخبار الطوال 287، تاريخ يعقوبي 263/2، مروج الذهب 106/3، تاريخ الرسل والملوك 93/6، الكامل في التاريخ 266/5، العبر في خبر من غير، 75/1

<sup>97</sup> مروج الذهب 106/3

<sup>98</sup> الأخبار الطوال 305، تاريخ يعقوبي، 263/2، تاريخ الطبري 108 /6 التنبيه والإشراف 313، مروج الذهب 106/3، الكامل في التاريخ 267/4، البداية النهاية 29/8

<sup>99</sup> الطبقات الكبرى 138/5، مروج الذهب 107/3 تاريخ الطبري 573/4



بن مروان، واستقر رأيه على الدخول في طاعة ابن الزبير حيث قال لأصحابه " لو لم أكن أصبت عبيد الله بن زياد ولا رؤساء أهل الشام تبعث عبد الملك، مع أي لا أحب أن أختار على أهل مصري مصر، ولا على عشيرتي عشيرة " فكتب إلى مصعب، فأقبل إليه بالطاعة<sup>100</sup>، وبذلك استولى مصعب على الكوفة، وعاد العراق إلى نفوذ ابن الزبير.

احتدم الصراع بين مصعب بن الزبير وبين عبد الملك بن مروان، وقد سار عبد الملك بن مروان على رأس جيش كبير من أهل الشام قاصدا العراق لمحاربة مصعب بن الزبير بعد أن تخلص عبد الملك من عمرو بن سعيد الأشدق، وبعد أن أمن الروم ودفع لهم الجزية، ولما اقترب الفريقان من بعضهما عمد عبد الملك إلى أسلوب الترغيب مع أمراء جيش مصعب، فقد بعث لهم بالكتب التي يعدهم فيها بتسليمهم الولايات بعد أن يبايعوا له، فأجابوه باستثناء ابن الأشتر الذي حمل الكتاب الذي وصله من عبد الملك وسلمه لمصعب وفيه ( إلى ابن الأشتر إن بايعتني فلك العراق )<sup>101</sup>، وقال ابن الأشتر لمصعب قد كتب عبد الملك إلى أصحابك إما أن تقتلهم أو تسجنهم، فرفض مصعب ذلك، والتقى الجيشان بدير الجاثليق، ودارت المعركة فقتل ابن الأشتر، وانهزم جيش مصعب بعد هذه المكيدة، وقتل مصعب وابنه عيسى في المعركة، ويقال كان بين مصعب وعبد الملك صداقة قوية قبل الخلافة، وعندما قتل مصعب بكى عبد الملك وقال: والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم، ولقد كانت

<sup>100</sup> تاريخ الطبري، 6 / 111

<sup>101</sup> الأخبار الطوال، 302.

المحبة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب، ثم أمر بمواراته وابنه وابن الأشر في قبور مسكن بالقرب من الكوفة.<sup>102</sup> وبعد مقتل مصعب وهزيمة جيشه انحسرت ولاية ابن الزبير عن العراق، وبسط عبدالمملك يده عليه، وأصبح ملكه يشمل الشام ومصر والعراق، حيث كان عبدالله بن الزبير يشكل العقبة الرئيسية أمام عبدالمملك لتوحيد الأمصار الإسلامية في دولة واحدة، ومن أجل ذلك بعث عبدالمملك في سنة اثنتين وسبعين للهجرة الحجاج بن يوسف الثقفي على رأس جيش لمحاربته والقضاء عليه، وتمكن الحجاج بعد محاصرته في مكة من قتله سنة ثلاث وسبعين للهجرة، ومقتل عبدالله بن الزبير يكون عبدالمملك قد تخلص من أشد خصومه بأسا وقوة، واستوى الأمر له، وصفت له الخلافة بعد انتهاء خلافة ابن الزبير التي دامت تسع سنين.

#### إنجازاته السياسية والإدارية

بعد انتصار عبدالمملك على منافسيه وتوحيد دولة الخلافة بجميع أقطارها، ونشر الأمن والهدوء والسلام في ربوعها، وجه جيوش المسلمين للتعامل مع أعدائهم، فاستطاع فتح بلاد المغرب العربي وقام بنشر الدين الإسلامي فيه، كما نشر اللغة العربية بين أبنائه.<sup>103</sup>

<sup>102</sup> تاريخ الطبري 160/6

<sup>103</sup> الكامل في التاريخ أحداث سنة 74 وما بعدها 4 / 135

وفي شمال الدولة باتجاه آسيا الصغرى تمكنت جيوشه من فتح بعض القلاع والحصون والمدن الرومانية، بقيادة أخيه محمد بن مروان بن الحكم، وابنه عبدالله بن عبدالملك، وتم فتح عدد من المدن والحصون الرومانية.<sup>104</sup>

وفي منطقة خراسان وسجستان تمكن المهلب بن أبي صفرة من عبور نهر جيحون وبلاد تركستان، وقام آل المهلب بفتوحات كبيرة في بلاد الترك فيما وراء النهر<sup>105</sup>، وعندما تولى قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة الجيوش تمكن من فتح بلاد كثيرة حتى وصل إلى حدود الصين في عهد الوليد بن عبدالملك.

#### تعريب الدواوين

كانت دواوين الدولة تستخدم اللغات الأجنبية، فكانت لغة الدواوين في العراق هي اللغة الفارسية، وفي الشام كانت اللغة الرومية هي المستخدمة في الدواوين هناك، وفي مصر استخدمت اللغة القبطية واليونانية، واستمر الحال كذلك حتى عهد عبدالملك بن مروان، وقد قرر عبدالملك تحويل لغة الدواوين إلى اللغة العربية لكي تصبح هذه اللغة هي لغة الدولة الرسمية الوحيدة في جميع دواوين الدولة، وقد أطلق على هذه الحركة اسم حركة تعريب الدواوين، وبذلك تم تحويل لغة دواوين

<sup>104</sup> الكامل في التاريخ 4 / 331، 385، أحداث سنة 84

<sup>105</sup> الكامل في التاريخ 4 / 192، 294

الشام من اللغة الرومية إلى العربية، وفي العراق من الفارسية إلى العربية، وفي مصر من القبطية إلى العربية.<sup>106</sup>

### ضرب الدنانير

كانت الدولة الإسلامية منذ نشأتها حتى خلافة عبدالمملك بن مروان تعتمد في تعاملاتها النقدية على النقود الأجنبية، وكانت الدنانير الذهبية ترد إليها من بلاد الروم، أما الدراهم الفضية فكانت ترد من بلاد فارس عن طريق التجارة، وقد طال هذه العملات الغش والتزييف، وإنقاص العملة الذهبية، قال قدامة: " لما أخذ أمر الفرس يضمحل، ودولتهم تضعف، وسياستهم تضطرب، فسدت نقودهم فجاء الإسلام ونقودهم من العين ( الذهب ) والورق ( الفضة ) غير خالصة "<sup>107</sup>

ويؤكد ابن خلدون في المقدمة أنه " تفاحش الغش في الدنانير والدراهم إلى أن جاء عبدالمملك وأمر الحجاج بضرب الدراهم " <sup>108</sup>.

وفي عام 76هـ أنشأ عبدالمملك دارا للضرب في دمشق، وبدأ بإصدار الدينار العربي الذهبي في ذلك العام، وذكر ابن سعد في طبقاته أن عبدالمملك بن مروان ضرب الدنانير والدراهم سنة خمس وسبعين وهو أول من أحدث ضربها ونقش

<sup>106</sup> العقد الفريد، 5/ 139 ( لمزيد من التفاصيل أنظر مقالة بعنوان: حركة التعريب في زمن عبدالمملك بن مروان، عبدالجبار محسن السامرائي، مجلة سر من رأى، المجلد 3، العدد 8، السنة الثالثة 2007 )

<sup>107</sup> الخراج، قدامة بن جعفر 59

<sup>108</sup> مقدمة ابن خلدون 261

عليها.<sup>109</sup> وذكر الذهبي أن أول من ضرب الدنانير عبدالمملك بن مروان، وكتب عليها القرآن<sup>110</sup>، كما أصدر أمره للحجاج بإنشاء دار للضرب في الكوفة، وصدر هناك الدرهم العربي الإسلامي، وتم إصدار الدينار والدرهم على الوزن الشرعي.<sup>111</sup>

وفاته:

تجمع المصادر التي نقلت لنا وفاة عبدالمملك بن مروان أنه توفي في النصف الأول من شهر شوال سنة ست وثمانين للهجرة، وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه ابنه الوليد ودفن بباب الجابية،<sup>112</sup>

وكانت خلافته من مقتل عبدالله بن الزبير إلى أن توفي ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر<sup>113</sup> وقالوا اجتمع الناس عليه سنة ثلاث وسبعين وهي السنة التي قتل فيها ابن الزبير<sup>114</sup> ومنذ توليه الخلافة بعد وفاة والده مروان بن الحكم بلغت خلافته اثنتين وعشرين سنة ونصف السنة، وذكر الطبري أنه حكم إحدى وعشرين سنة وشهرا ونصف الشهر، كان تسع سنين منها يقاتل فيها عبدالله بن الزبير ويسلم عليه

<sup>109</sup> الطبقات الكبير 226/7

<sup>110</sup> الكامل في التاريخ 4/ 167، سير أعلام النبلاء 4/ 248، الأخبار الطوال 306

<sup>111</sup> لمزيد من التفاصيل انظر: التعريب في زمن عبدالمملك مرجع سابق

<sup>112</sup> العقد الفريد 5/ 139، 158، البداية والنهاية 228/9، تاريخ دمشق 37/ 164، تاريخ بغداد 129/12، شذرات

الذهب في أخبار من ذهب 352/1

<sup>113</sup> تاريخ بغداد 129/12

<sup>114</sup> البداية والنهاية 288/9، تاريخ الطبري 418/6

بالخلافة بالشام ثم بالعراق بعد مقتل مصعب، وبقي بعد مقتل عبدالله بن الزبير واجتماع الناس عليه ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر.<sup>115</sup>

ومن الغريب أنني لم أعر في المصادر التي توافرت لدي على رثاء خالص لعبدالمملك سوى هذين البيتين اللذين أوردهما ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، وهما غير منسوبين لشاعر معين، يقول ابن الأثير: " وقد رثى الشعراء عبدالمملك، كثير عزة وغيره، فمما قيل فيه:

سَقَاكَ ابْنُ مَرْوَانَ مَنِ الْعَيْثِ مُسِيلٌ      أَجَشُّ شِمَالِيَّ يَجُودُ وَيَهْطُلُ

فَمَا فِي حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ رَغْبَةٌ      لَحَرٍّ وَإِنْ كُنَّا الْوَلِيدَ نُوَمِّلُ<sup>116</sup>

ونقل لنا صاحب المصون في الأدب أن جريرا قد رثى عبدالمملك فقال:<sup>117</sup>

إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ وَارَتْ شِمَائِلَهُ      غِبْرَاءُ مَلْحُودَةٌ فِي جَوْزِهَا زَوْرُ

أَمْسَى بَنُوهُ وَقَدْ جَلَّتْ مَصِيبُهُمْ      مَثَلُ النُّجُومِ خَلَا مِنْ بَيْنِهَا الْقَمَرُ

والصحيح أن هذين البيتين من الشعر قد وردا في مقطوعة في ديوان جرير وهي في رثاء الوليد ابن عبدالمملك .<sup>118</sup>

<sup>115</sup> تاريخ الطبري 418/6، الطبقات الكبرى 226/7، البداية والنهاية 228/9، الأخبار الطوال 313، تهذيب الكمال 413/18، تاريخ الخلفاء 177، شذرات الذهب في أخبار من ذهب 352/1، مع اختلاف في بعض التفاصيل

<sup>116</sup> الكامل في التاريخ، ابن الأثير 238/4

<sup>117</sup> المصون في الأدب 157

<sup>118</sup> ديوان جرير، 242 /1

ويذكر أبو الفرج أن يحيى بن أبي حفصة قد دخل على الوليد بن عبد الملك لما بويح بالخلافة بعد أبيه فهناه وعزاه وأنشده:

إن المنايا لا تغادرُ واحداً      يمشي بِبِرِّتِه ولا ذا جُنَّة  
لو كان خَلَقُ للمنايا مُفْلِتاً      كان الخليفة مُفْلِتاً مِنْهِنَّ  
بكتِ المنابرُ يومَ ماتَ وإِمْما      بكتِ المنابرُ فَقَدَ فارِسَهُنَّ  
لما علاهُنَّ الوليدُ خليفةً      قُلْنَ ابْنُهُ ونظيرُهُ فَسَكَنَهُ  
لو غيرُهُ قَرَعَ المنابرَ بعدهُ      لَنَكِرْنَهُ فَطَرَحْنَهُ عَنْهُ<sup>119</sup>

ويحق لنا أن تساءل في هذا الموقف عن مصير الشعر الذي رُئي به عبد الملك بن مروان، فهل ضاع ذلك الشعر مع ما ضاع من الشعر العربي الكثير الذي لو وصل إلينا كاملاً لوصل إلينا شعر وعلم كثير كما قيل ؟ أم أن الرواة أهملوا ذلك الرثاء عن قصد ؟ وقول ابن الأثير " وقد رثى الشعراء عبد الملك، كثير عزة وغيره " دليل واضح على أن هناك مراثٍ قيلت في عبد الملك، قالها كثير عزة وغيره من الشعراء الذين تمتعوا بهيات عبد الملك وأعطياته السخية لهم عندما كانوا يفدون إليه مادحين، فهل يعقل أن لا يقول الأخطل - الذي تذكر الروايات أنه كان أثيراً عند عبد الملك - رثاء بالخليفة الذي قدمه على غيره من الشعراء، وأولاه من الرعاية والاهتمام ما لم يوله غيره، وكذلك التساؤل ينطبق على كل من جرير والراعي النميري وابن قيس الرقيات وعبد الله بن الزبير الأسدي الشاعر وغيرهم ممن مدحوا عبد الملك وقربهم منه وكانوا محسوبين على الأمويين، وقد وجدنا مراثٍ

<sup>119</sup> الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، 63/10

كثيرة عند هولاء الشعراء في أناس لا يرقون إلى مرتبة الخليفة، تناقلها الرواة وحفظوها ، كما أننا وجدنا مراث كثيرة في خلفاء بني أمية وأمرائهم وعمالهم وغيرهم باستثناء عبدالمملك في دواوين الشعراء الأمويين، فلماذا لم نعثر على المراثي التي قيلت في عبدالمملك ؟ والتفسير الذي يتبادر إلى ذهني هو أن عبدالمملك استطاع بحنكته السياسية وحزمه وقوته أن يهزم جميع أعدائه، كما استطاع أن يجتث من طريقه جميع المعارضين لخلافته ولبنى أمية، ولذلك عمد الرواة الذين جاءوا بعد العهد الأموي وجمعوا الشعر ودونوه إلى إهمال ما لا يتوافق والسياسة التي ساروا عليها أو رسمت لهم من قبل الساسة الذين ناصبوا عبدالمملك العداء، سواء أكانوا من بني العباس أم من الشيعة أم من غيرهم، فأسقطوا قصائد الرثاء التي قيلت في عبدالمملك بن مروان.

وقد التفتت الباحثة مي خليف إلى قلة الرثاء في الشعر الأموي فقالت: " الرثاء قليل في الشعر الأموي، وهذا وجه الغرابة، فقصائد الرثاء في التراث الأدبي الأموي قليلة، وخاصة عند كبار شعراء العصر، وربما كان السبب في هذا الموقف السلبي أنهم شغلوا بالمدح والهجاء، وهما الموضوعان اللذان استأثرا باهتمام العصر، واستقطبا من حولهما كبار شعرائه، الذين وجهوا إليهما طاقاتهم الفنية الخصبة، وأصبحا هما وحدهما مقياس الفحولة الفنية فيه، حتى ليباعد بين فنان كبير كذي الرمة وبينها لأنه قصر فيهما " <sup>120</sup> إذن مي خليف تعتقد أن انشغال الشعراء بالمدح والهجاء هو الذي جعلهم لا يهتمون بالرثاء، لكنني أقول كيف تفسر مي خليف

<sup>120</sup> التيار الإسلامي، مي خليف، 509



وجود ما يزيد عن عشرين قصيدة ومقطوعة في ديوان جرير على سبيل المثال في الرثاء، وكذلك الحال بالنسبة للفرزدق حيث يتوافر في ديوانه ما يزيد عن أربعين قصيدة ومقطوعة في الرثاء، ويتوافر في ديوان كثير عزة عشرة قصائد ومقطوعات في الرثاء، والحال نفسه يندرج على كثير من شعراء العصر الأموي، لكنني أوافقها الرأي بأن هؤلاء الشعراء قد انشغلوا بالمديح والهجاء أكثر من غيرهما من الأغراض الشعرية، فاحتلا المساحة الكبرى عندهم، إلا أنهم لم يهتموا الرثاء إهمالا مطلقا بدليل وجود قصائد ومقطوعات عندهم في هذا الغرض. والتفت الباحث مفلح الفايز إلى هذه المسألة التفاتة لطيفة أيضا فقال: ويخلو شعر اليمانية من رثاء خلفاء بني أمية وأمرائهم مما يزيد من يقيننا بضياع قدر كبير من شعرهم في الرثاء، إذ لا يعقل أن يخلو ديوان شاعر كبير مثل عدي بن الرقاع من رثاء الخلفاء الذين ماتوا في حياته وبخاصة الوليد بن عبد الملك<sup>121</sup>.

<sup>121</sup> شعر القبائل اليمانية، مفلح الفايز، 162

## الفصل الأول

صورة عبدالملك بن مروان

عند الشعراء الملاحين



## صورة عبد الملك بن مروان عند الشعراء الملاحين

تظهر صورة الممدوح وملامح شخصيته واضحة جلية من خلال قراءة لشعر المديح في العصر الجاهلي، وتبدو لنا هذه الصورة مستقرة ضمن صفات مثالية أسبغها عليها الشعراء الذين عكفوا على رسمها من خلال رصيد هائل من معاني المروءة كالكرم والشجاعة وعراقة النسب والحلم والنجدة والأنفة وغيرها مما فاضت به قرائحهم من معان وصفات تكرر الفضيلة والأخلاق السامية عندهم، ونلاحظ أن الشعراء قد أضفوا هذه الصفات على ممدوحهم من غير تقنين أو حساب، فكأنهم كانوا يحتنون صورهم هذه نحن، الأمر الذي أدى كما يرى بعض الباحثين إلى جمود المضمون ومطيته<sup>122</sup>، فما يقال في هذا الممدوح يقال في غيره، وكأن هذه الصفات وهذه الملامح هي التي تصلح لأن يمدحوا بها، وهذه الصفات الجميلة هي التي كانوا يتطلعون إليها ويأملون أن يتجه إليها الشعراء سواء في الجاهلية أو في الإسلام، وإن كان معظم هذه الصفات قد نبع في الأصل من البيئة الجاهلية، فالحياة الجاهلية كان يسودها الصراع حول موارد العيش من ناحية وحول الشرف ودواعيه من ناحية أخرى، وقد أدى ذلك إلى أن تسود بعض الأخلاق بين عرب الجاهلية وتظهر في مجتمعاتهم، وبعد ظهور الإسلام أخذ الشعراء بسبب استيعابهم تعاليم الدين الجديد وأفكاره يبتدعون صفات وصورا أخرى غير تلك الصفات والصور التي استخدمها أسلافهم في الجاهلية، فاختلفت صورهم بشكل واضح عن الصور التي كان الشعراء الجاهليون يرسمونها لممدوحهم، ويبدو أن الدين الجديد وتعاليمه

<sup>122</sup> ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، درويش الجندي، ص 109

قد أدى إلى خلخلة منظومة القيم السائدة وتغييرها، وأصبحت صورة الممدوح أقرب إلى الحياة اليومية، وتخلص قسم من الشعراء من المبالغة والغلو والإسراف في المدح بسبب تعاليم هذا الدين التي أشاعت عند الشعراء روح الاعتدال وقربتهم من الحق<sup>123</sup>، أما المثل الإسلامية الجديدة التي احتلت مكانها إلى جانب الرصيد الأخلاقي العربي فتمثلت في صفات الورع والتقوى والعدل والتعقل والمساواة بين الناس.<sup>124</sup>

وما أن جاء العصر الأموي حتى أشاع الشعراء فيه هذه المثل القيمة وأضافوا إليها ما يلائم مصالحهم القائمة على التكسب والمسألة، فعادت المغالاة القديمة والقيم القديمة إلى الظهور مرة أخرى وبقوة، لأنهم لا يرسمون لممدوحهم صوراً مختلفة بل يصورونهم صوراً متشابهة، تقوم على مجموعة من الملامح الكبرى المشتركة، وعاد هذا المدح إلى الغلو والإسراف وعدم الاعتدال<sup>125</sup>.

ثم اختلف هذا المديح عن المديح التقليدي على أيدي شعراء الطبقة الأولى من الإسلاميين (الأخطل وجريز والفرزدق والراعي النميري)، وأصبحنا بإزاء موقف سياسي مستمد من أحداث الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديماً، فأصبح للعرب دولة أو خلافة<sup>126</sup>، وانكشفت فكرة القبيلة بوصفها وحدة اجتماعية مستقلة وظهرت الدولة أو الأمة، وظهر معها نظام سياسي جديد محكوم برؤى سياسية

<sup>123</sup> بنية القصيدة العربية، وهب رومية، ص 299

<sup>124</sup> ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده درويش الجندي، ص 107

<sup>125</sup> بنية القصيدة العربية، ص 165

<sup>126</sup> التطور والتجديد، شوقي ضيف، ص 140

تمثلها حكومة مركزية ومواقف دينية يستمدّها العصر من روح الإسلام<sup>127</sup>، وأخذت رؤية دينية مقدسة لنظام الحكم تتحكم بتصوير الشعراء للخليفة، واقتربت الخلافة بهذا المفهوم الديني، وهكذا ظهرت العلاقة المباشرة مع الله من خلال إلحاح الشعراء على قضية التفويض الإلهي فيما يخص الشأن العام، فقد اختار الله تعالى هؤلاء الخلفاء لأداء هذه المسؤولية الجليلة، وفوضهم أمر الرعية، بل جعل ذلك واجبا دينيا عليهم، وخصهم وحدهم دون العالمين به.

وتعود مي خليف لتؤكد أن من أبرز الصفات التي تداولها الشعراء في هذه الدائرة السيرة الطيبة لممدوحهم من خلال نشر العقيدة وإشاعة العدل والمساواة بين الرعية، والنهوض بالعبادات والمحافظة عليها ورفض الظلم ومعاداته، وضرب المثل والقدوة الطيبة للرعية في الرشد والصواب والعفو عند المقدرة والأمانة والتواضع والحلم ومزج القول بالفعل، وإسناد معظم هذه الصفات إلى الله تعالى، فمصدرها بهذا الشكل إسلامي ووظيفتها إسلامية<sup>128</sup>، ويؤكد محمد أمين المؤدّب أن شعراء المديح في المرحلة الأولى من تاريخ دولة بني مروان لا سيما في عهد عبد الملك بن مروان كانوا يحرصون على مدح الخلفاء بالقيم الدينية والحماسية مراعاة للواقع السياسي، بل كانوا يحرصون أحيانا على أن تبنى القصيدة بأكملها على هذه القيم، وهكذا تمزج هذه المعاني لتجعل من الخليفة الأموي صورة نموذجية للحاكم المسلم الذي يرعى مصالح البلاد والعباد<sup>129</sup>، ويرى شوقي ضيف أن الحياة الدينية قد

<sup>127</sup> التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، مي خليف، ص229

<sup>128</sup> التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، ص280

<sup>129</sup> الاتباع والابتداع في الشعر العربي، محمد أمين المؤدّب ص38

طورت الشعر الأموي وأثرت تأثيرا عميقا في نفوس الشعراء، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعرا لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون ولا يهجون أحدا إلا وضعوا الصفات الدينية إيجابا وسلبا في مديحهم وهجائهم<sup>130</sup>، أما الصورة التي راح الشعراء يطرقونها في المدحة الأموية ويكترون من الحوار التفصيلي المتعدد حولها فهي تلك الصورة التي تمتلئ بالفضائل الإسلامية المرتبطة بالشخصية المطلقة للحاكم المسلم (الهادي العادل)، الأمر الذي دفع الشعراء إلى تكرار صور متشابهة، والدوران في دائرة محدودة أساسها تصوير نظام الحكم وورثة الخلافة، وهو نظام مقدس وحكم وراثي تسنده إرادة الله، ويوظف لخدمة دينه وحماية الناس بتوجيه منه<sup>131</sup>.

لقد نظر الشعراء المداحون في العصور المختلفة والبيئات المتنوعة إلى هذه المثل، وهم بصد ما كانوا يخلعون على السادة الممدوحين من المناقب التي ترضي غرورهم وتشبع نهمهم إلى المدح والثناء، وكانت الشجاعة والكرم هما أبرز صفتين تترددان في أغلب المدائح في مختلف العصور، ولما كانت آمال الشاعر إنما تتعلق بكرم الممدوحين فقد كان من الطبيعي أن تكون صفة الكرم أكثر ترددا في شعر المديح، وأن تتفوق على الشجاعة في ذلك، وإن اشتركتا معا في أنهما كانتا أبرز المناقب التي خلعهما الشعراء على الممدوحين جريا على ما كان سائدا مشهورا من أن هاتين الصفتين كانتا القطبين الرئيسيين للمناقب العربية في الجاهلية ومن بعد في الإسلام،

<sup>130</sup> التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف ص 64

<sup>131</sup> التيار الإسلامي في القصيدة الأموية / مي خليف 254

وكانتا الركبتين الأساسيين لما استقر في أذهان العرب من معنى المروءة<sup>132</sup> التي عمل الشعر الجاهلي على إذاعتها، ونسج من حولها هالة من المجد والفخر<sup>133</sup>.

وقد أدى تغير الحياة في العصر الأموي عنها في عصر صدر الإسلام، واتساع ضرورتها، إلى اتجاه عدد من الشعراء للتكسب بشعرهم من أجل تغطية متطلباتهم ومتطلبات أسرهم، وأدرك الخلفاء الأمويون دور الشعر في حياة العرب وحاجة الشعراء للمال، فراحوا يشترون منهم المديح، ويذيعونه في الناس لتأييد سلطانهم<sup>134</sup>.

فالحاجة إذن هي التي أجبرت الشعراء على طرق أبواب الخلفاء، لعلهم ينالون عطاياهم كما يقول سامي الدهان، فإذا بلغوا وطهرهم زادت الحياة إليهم حبا، وفرحوا بالنوال، فأشادوا بالخليفة وجددوا له عهود الحب والوفاء، ويضيف، فإذا رأيت مديحا فاعرف أن وراءه يدا أسداها الخليفة إلى الشاعر، ربما أنقذه من بؤسه أو خلصه من حبسه أو أقطعه إقطاعا، فحبب إليه الدنيا وحرك لسانه بالثناء والشكر، وهكذا يرى أن العصر الأموي كان كالعصر الجاهلي في المديح، أشاد بالكرم عند الخلفاء، وأثنى على الشجاعة، وسعى إلى المال والتكسب لينال الجوائز ويحظى بالعطايا<sup>135</sup>.

<sup>132</sup> فجر الإسلام، أحمد أمين، ص10

<sup>133</sup> ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي، درويش الجندي ص108

<sup>134</sup> نية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي، وهب رومي، ص340

<sup>135</sup> المديح، سامي الدهان ص22



إن إدراك خلفاء بني أمية لخطورة الدور الذي يلعبه الشعر، أدى بهم إلى اتخاذ كافة السبل من أجل السيطرة على العقلية الجماعية للناس بوساطة هؤلاء الشعراء الذين يعدون بمثابة وسائل الإعلام في أيامنا هذه<sup>136</sup>، وكان هم المادحين في أكثر مدائحهم أن يجسموا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية، أو يخترعوها ويلصقوها بالممدوحين ليربحوا في حلبة المديح وليرفعوا لواء الممدوحين بين الناس، فلعلهم في ذلك كالصحافة الحزبية لعصرنا، ترى كل الخير عند زعمائها ورؤسائها، أو لعلهم كالرسامين يستطيعون أن يظهروا أجمل ما في الوجوه وأحسن ما في المشاهد<sup>137</sup>.

وهذا الوعي لحقيقة دور الشعر كسلاح في وجه الخصوم، وكناشر للمآثر يؤثر في الرأي العام، وكسجل خالد لا يفنى، جعل الأمويين حريصين كل الحرص على توظيفه في خدمتهم كحرص أي سلطة على توظيف الإعلام فيها، فقد كان عبدالملك بن مروان كما يذكر عبدالمجيد زراقات قمة في استخدام الشعر، وقد وضع أمامه وصية حرص أن يتبعها بنو أمية وهي " يا بني أمية أحسابكم أعراضكم، لا تعرضوها على الجهال، فإن الذم باق ما بقي الدهر، والله ما سري أني هجيت ببيت الأعشى وأن لي طلاع الأرض ذهباً:

يَبْتَئُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءَ بَطُونِهِمْ      وَجَارَتْهُمْ غَرْثَى يَبْتَئَ حَمَائِصَا

والله ما يبالي من مدح بهذا أن يمدح بغيره:

<sup>136</sup> المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل، ظافر عبدالله الشهري، ص24

<sup>137</sup> المديح، سامي الدهان ص6

هنالك إِنْ يُسْتَحْبَلُوا الْمَالُ يُحْبَلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يُسِيرُوا يُغْلَوْا

على مُكْثَرِهِمْ حَقٌّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعند الْمُقْلَيْنِ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ<sup>138</sup>

فقد أصبح الشعر السياسي أقوى ضروب الشعر صوتا في عهدهم وسياسة يتبعونها لتثبيت ملكهم وإكسابهم مزيدا من التعظيم والتمجيد<sup>139</sup>.

وقد حرص عبدالمك حرسا شديدا على استقطاب الشعراء إلى جانبه شأنه في ذلك شأن غالبية خلفاء بني أمية، وبذل في سبيل ذلك الأموال والجهد والوقت، وغصت مجالسه الأدبية بالشعراء، ويبدو أن حاجته لوقوف هؤلاء الشعراء إلى جانبه في وجه خصومه السياسيين من الأحزاب الأخرى المناوئة لحكمه التي كانت تسعى للإطاحة ببني أمية والاستيلاء على الخلافة، هي التي أملت عليه أن يفسح لهم المجال في الدخول عليه والاستماع إلى أشعارهم، وإغداق الأموال والهبات عليهم، وقضاء حوائجهم، مقابل وقوفهم بأشعارهم إلى جانبه وإلى جانب بني أمية، منافعهم عنهم، مدافعين عن حقهم في الخلافة، ومروجين لنظريتهم فيها، أضف إلى ذلك حب عبدالمك للأدب والشعر، فقد تربي في بيئة كانت تشجع على ذلك، إنها البيئة التي قضى فيها أربعين عاما من عمره، بيئة المدينة المنورة، ومن هنا فقد لاحظنا تردد عشرات الشعراء على دمشق حاضرة الخلافة لمدهح الخليفة ونيل جائزته وعطائه.

<sup>138</sup> زهر الآداب، الحصري القيرواني 1160/4

<sup>139</sup> الشعر الأموي بين الفن والسلطان، عبدالمجيد زراقات ص31، أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد محمد الحوفي، ص257

يقول يوسف خليف : " ومع ظهور القصر الأموي ظهر الشعراء الذين التفوا حوله يمدحون خلفاءه وأمراءه طلبا لعطاياهم وجوائزهم.....، وساعد على ذلك أمران: الأول أن الخلفاء كانوا عربا يحسنون فهم الشعر، والأمر الآخر أن الدولة على الرغم من استقامة الأمر لها ظلت تعاني من الفتن والثورات الداخلية التي أشعلتها الأحزاب المعارضة لها في أرجاء متفرقة، منها الشيعة والخوارج والزيريون، فرأت أنها في حاجة إلى دعاية ضخمة تحيط بها حكمها وتؤيد بها سياستها وتشهرها في وجه خصومها السياسيين الذين كانت لهم أيضا وسائلهم الإعلامية التي تروج لنظرياتهم السياسية المختلفة، ولم يكن أمامهم من وسيلة للدعاية مثل الشعر الذي كان منذ العصر الجاهلي وسيلة الإعلام الأساسية عند العرب<sup>140</sup>."

وفي المقابل لم يجد شعراء المعارضة السياسية كما أطلق عليها داود سلوم<sup>141</sup> الترحيب نفسه والعفو من أصحاب السلطة في الشام، فبعد انهيار حكم الزيبيين بدأ شعراؤهم البحث عن العفو مع السلطة في دمشق، وقصد ابن قيس الرقيات عبدالمملك، وأنشده مديحه فيه ومنه قوله:

يَعْتَدِلُ التَّاجُ قَوْقَى مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فقال له عبدالمملك: يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

<sup>140</sup> تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، يوسف خليف ص161

<sup>141</sup> الشاعر الإسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، داود سلوم، ص73

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ      تَجَلَّيْتُ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ      جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءُ

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا<sup>142</sup> والأمر نفسه حدث فيما يبدو مع الشاعر عبدالله بن الحجاج الذي خرج مع عمرو بن سعيد بن العاص ومع ابن الزبير، وقد حرمه عبدالمملك العطاء وحرمه من الإقامة في الشام فقال له: " لقد طاولتك في أن يقوم بعض هؤلاء فيقتلك فأبى الله ذلك فلا تجاورني في بلد وانصرف آمنا حيث شئت"<sup>143</sup> ويتوصل داود سلوم إلى نتيجة مفادها أن عبدالمملك كان يضجر من مدح الشعراء غيره ويحرمهم تبعا لذلك<sup>144</sup>،

فقد مدح الفضل اللهبي علي بن عبدالله بن عباس، فلما أعطى قريشا مر به اسمه فحرمه وقال يعطيه علي<sup>145</sup>.

وقد كانت أغلبية شعراء مضر معارضين للأمويين منحايزين للزيريين، وقد عرف الأمويون ذلك، حتى إن عبدالمملك بن مروان حرم كل شعراء مضر من المشول بين يديه لميولهم الزيرية<sup>146</sup>.

<sup>142</sup> الأغاني 5/ 69، 17/197

<sup>143</sup> الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني 13/163

<sup>144</sup> الشاعر الإسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، داود سلوم ص74

<sup>145</sup> الأغاني 16/127

<sup>146</sup> طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي 357، شعر البصرة في العهد الأموي، عون الشريف قاسم ص152

بدأت صلة جرير بعبد الملك بن مروان حين أوفده الحجاج مع ابنه محمد بن الحجاج إلى دمشق، ووصاه به وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته عليه، ولكن عبد الملك لم يأذن له، وكان لا يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم، لأنهم كانوا يوالون ابن الزبير، إلا أن ابن الحجاج ألح على عبد الملك أن يسمع من جرير وأخبره أن أباه يسأله في أمره، فأذن له عبد الملك فدخل عليه، فاستأذنه في الإنشاد فقال له عبد الملك: وما عساک أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج:

مَنْ سَدَّ مَطْلَعَ النَّفَاقِ عَلَيْكُمْ      أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ  
إن الله لم ينصرني بالحجاج، وإنما نصر دينه وخليفته<sup>148</sup>.

ومنعه من الإنشاد كما يذكر أبو الفرج، لكنه عاد وأذن له بعد إصرار جرير على عدم مغادرة دمشق حتى يأذن له الخليفة في الإنشاد، فأنشده قصيدته الحاثية التي مطلعها :

اتَّصَحُوا بَلْ فَوَادَكَ غَيْرُ صَاحٍ      عَشِيَّةَ هَمٍّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ  
حتى بلغ الشكوى لأم حذرة وبنيتها، ولما بلغ قوله:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا      وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ

<sup>147</sup> انظر ترجمته في: ديوانه، الأغاني 8 / 5، طبقات فحول الشعراء 2 / 374، الشعر والشعراء 464، خزانة الأدب 75/1

<sup>148</sup> ديوانه 84 / 1، الأغاني 49/8، التاج، الجاحظ، 130

هزت هذه المدحة عبدالمملك وطرب لها، يقول جرير: فضحك عبدالمملك وجعل يقول: كذلك نحن وما زلنا كذلك، قال: فردّها علي ! قال: فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِ<sup>149</sup>.

من هنا بدأت الصلة بين عبدالمملك وبين جرير، وقد خص جرير عبدالمملك بأربع قصائد مدحية، وسنأتي على الصورة التي رسمها للخليفة، فقد ركز في رسمه لتلك الصورة على التفويض الإلهي والاصطفاء الخاص الذي خصه الله به وحده، وذلك انطلاقاً من مبدأ الجبرية الذي تنبأه جرير، ومفاد هذا المبدأ عند أصحابه أن كل شيء بقضاء وقدر، ولا مفر مما قضى الله وقدر، وفي هذه الدعوة تأييد واضح صريح لبني أمية، لأنها توحى بأن حكمهم مقدور، فليس يصح للمسلمين أن يقاوموهم أو يعصوهم<sup>150</sup>.

وحاول جرير بذلك إقناع الناس بأن الأسرة الأموية هي التي اختارها الله لقيادة الأمة الإسلامية، وأن الخليفة هو الشخصية التي وقع عليها الاختيار من الله تعالى، فهو الذي يستحق الملك، وهو أهل لهذا الملك، وهو الذي يعمل على حماية الدين، يقول:

والله ليسَ لما قضى تَبْدِيلُ	الله طَوْقَكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى
فِيكُمْ فَلَيْسَ مُلْكُهَا تَحْوِيلُ	إِنَّ الْخِلَافَةَ بِالَّذِي أَبْلَيْتُمْ
فَالْمُلْكُ أَفْيَحُ وَالْعِطَاءُ جَزِيلُ <sup>151</sup>	وَلَى الْخِلَافَةَ وَالْكَرَامَةَ أَهْلُهَا

<sup>149</sup> انظر ديوان جرير 85/1

<sup>150</sup> أدب السياسة في العصر الأموي، محمد الحوفي ص263

<sup>151</sup> ديوانه 95/1

ويظهر لنا من قول جرير (الله طوقك الخلافة ) أنه قد قرر ألا فكاك لعبدالمملك من القيام بهذه المهمة التي انتدبه الله لها، والطوق كما نعلم هو عبارة عن إحاطة دائرية بالعنق لا انفكاك منها، وهذا الطوق أحاط بعبدالمملك بأمر من الله الذي لا راد لأمره، ونلاحظ كذلك تركيز جرير على الخلافة واهتمامه بإبرازها لأنها تمثل محور حديثه في هذه المدحة، وذلك بتكرارها في الأبيات الثلاثة.

وهكذا نلاحظ أن جريرا، قد أذاع بين الناس أن عبدالمملك بن مروان لم ينل الولاية والخلافة إلا بقضاء الله وقدره، كما أن بني أمية لم يتسمنوا ذراها إلا بما قدموه من عمل وما بذلوه من جهد في سبيلها، وبسبب هذه التوضيحات وهذه الجهود، فإنها باقية فيهم ولن تتحول أو تؤول لغيرهم، فهم أحق بها من غيرهم.<sup>152</sup>

ويمضي جرير في رسم صورة مشرقة لعبدالمملك في قصيدته العينية، فيقول:

لولا الخليفةَ والقرآنُ يقرُّهُ      ما قامَ للنَّاسِ أحكامٌ ولا جَمْعُ  
أَنْتَ الأَمِينُ أَمِينُ اللهِ لا سِرْفُ      فيما وليتَ ولا هَيَّابَةٌ وَرَعُ  
مِثْلُ المَهْتَدِ لم تُبْهَرْ ضَرِيئُهُ      لم يَغْشَ عَرَبِيَّهِ تَفْلِيلٌ ولا طَبْعُ  
واری الزَّنَادِ مِنَ الأَعْيَاصِ في مَهَلٍ      فالعالمونَ لما يقضي به تَبْعُ  
ما عَدَّ قومٌ بإحسانٍ صَنِيعَهُمْ      إلَّا صَنِيعُكُمْ فوقَ الذي صَنَعُوا  
أَنْتَ المُبَارَكُ يهدي الله شِيعَتَهُ      إذا تَفَرَّقَتِ الأَهْواءُ والشَّيْعُ<sup>153</sup>

<sup>152</sup> شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري، إبراهيم شحاته ص 128

<sup>153</sup> ديوانه 295/1

فالخليفة ركن من أركان الدين، وهو الحريص على إقامة الشرع وأحكامه بين الناس، وهو الذي اجتمع المسلمون وراءه في صلواتهم في المساجد في أيام الجمع، ويصفه بأنه أمين الله وخليفته على الأرض، والمبارك الذي يهدي الله به عباده<sup>154</sup>.

فَكُلُّ أَمْرٍ عَلَى مِثْلِ أَمْرَتِ بِهِ      فِينَا مُطَاعٌ وَمَهُمَا قُلْتَ مُسْتَمَعٌ  
إِنَّ الْبَرِيَّةَ تَرْضَى مَا رَضِيَتْ لَهَا      إِنَّ سِرَّتَ سَارُوا وَإِنْ قُلْتَ ارْبَعُوا رَبَعُوا  
يَا آلَ مَرْوَانَ إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ      فَضْلاً عَظِيماً عَلَى مَنْ دِئْنُهُ الْبِدْعُ<sup>155</sup>

وجدير يقرر أن أوامر الخليفة مهما كانت فهي ميمونة مطاعة من قبل الرعية، ومهما قال للناس فإنهم يستمعون له ولا يعارضونه، وهم يرضون بما يقرره لهم، يرضون ما يرضاه لهم، ويمتنعون عما ينهاهم عنه، وهم يطيعونه في كل خطاه مهما كانت، لماذا كل هذا الانسحاق والطاعة التي قررها جرير؟ لأن الله فضل بني أمية في رأيه على من سواهم من أهل البدع والافتراءات والضلالات الذين يسعون إلى خلافة المسلمين، وهو يقصد بالطبع الأحزاب والشيع المعارضة والمعادية لبني أمية، وهو بذلك يضيف على عبدالمملك الصفات الرفيعة العالية التي يتمنى أن يوصف بها أي ممدوح<sup>156</sup>.

ويستمر جرير في رسم الصورة فيقول:

<sup>154</sup> شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري، ص 126

<sup>155</sup> ديوانه 296/1

<sup>156</sup> رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعة، ص 100، أدب السياسة في العصر الأموي، محمد الحوفي



تَلْقَى الرَّجَالَ إِذَا مَا خِيفَ صَوْلَتُهُ      يَمْشُونَ هَوْنًا وَفِي أَعْنَاقِهِمْ خَصْعُ

فَإِنْ عَفَوَتْ فَصَلَّتِ النَّاسَ عَافِيَةً      وَإِنْ وَقَعَتْ فَمَا وَقَعَ كَمَا تَقَعُ

وهذه صورة فنية جميلة، فقد صور جرير الرجال مطأطي الرؤوس خضوعاً وخوفاً من عبد الملك، يمشون هونا وكأن أعناقهم قد شدت بالسلاسل أو القيود، ثم يصور عبد الملك بأنه أفضل الناس في العفو وأشدّهم وقعا بالأعداء، وقد قابل هنا بين بطشه وعفوه، وهي صورة تعبر عن الهيبة والرعب الذي يدخل نفوسهم منه<sup>157</sup>، كما أنها تعبر عن بعض الملامح البطولية لشخصية عبد الملك<sup>158</sup>.

هذه الصورة التي عرضها جرير وغيره من الشعراء المادحين للخليفة من خلال نجاحه في حماية الدين من أعدائه في الداخل، ويقتضيه المستمرة، وإعداده العدة اللازمة لمواجهة المتربصين الخارجين عن الطاعة، وكان على الشاعر الذي يتعرض لهذه الأحداث أن يكون على معرفة تامة برجال الأحزاب المعارضة، ورصد حركاتهم ودعواتهم، وكان عليه أيضاً تذكير هؤلاء الرجال بما لاقوه وما سيقاونه من بطش الخليفة الجبار الذي يقود إليهم الجيوش الجرارة، لأنه يصعب على السلطة في ظل الأفكار السياسية المطروحة المغلفة جميعها بغلاف ديني مواجهة فكرة العدالة والحق وعدم التحيز، فكان أن لفقت لأعدائها من المعارضة التهم الدينية والأخلاقية من غير حجج دامغة، مما أدى إلى اضطهاد رموز الأحزاب المعارضة والمفكرين الخارجين على نسقها العام.

<sup>157</sup> الاتباع والابتداع في الشعر الأموي، محمد أمين المؤدب، ص 257

<sup>158</sup> المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل، رسالة ماجستير، ص 192

وتكثر في مدائح عبدالملك الإشارة إلى المناوئين الخارجين على السلطة، وخاصة الحركة الزيرية التي تم القضاء عليها بقتل زعيمها عبدالله بن الزبير في عهد عبدالملك سنة 73 هجرية، فقد اغتنم الشعراء فرصة الإشادة بهذا النصر العظيم وهجاء الحزب الزيري عامة من وجهة نظر دينية سياسية أيضاً، فعندما تصدى جرير لعرض قوة الخليفة وشجاعته وكرمه عرضها في سياق ديني رفيع، فيبين أن عبدالملك يقاتل أعداء الدين الملحدون المنافقين الكفرة، وذكر ما كان عليه جيش عبدالملك من العدد والعدة، ورأى أن الغاية من ذلك اللقاء الدموي هو تبصير الناس بالحقيقة وإثبات أن بني أمية هم المنصورون بعون الله كما ورد في قصيدته الخالدة<sup>159</sup>.

وَأَنذَى الْعَالَمِينَ بِطُؤَنَ رَاحٍ	أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
بَدَّهْمِ فِي مُلَمَلَمَةٍ رَدَاحٍ <sup>160</sup>	وَقَوْعٍ قَدْ سَمَوْتَ لَهُمْ فِدَانُوا
وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ إِمْسْتَبَاحٍ	أَبَحْتَ حِمَى تَهَامَةٍ بَعْدَ نَجْدٍ
جِمَاحاً هَلْ شُفِيَتْ مِنَ الْجِمَاحِ <sup>161</sup>	دَعَوْتُ الْمُلْحِدِينَ أَبَا خُبَيْبٍ
أَلَفَّ الْعَيْصَ لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي <sup>162</sup>	فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هِرْزِيّاً
وَبَيَّئَتِ الْمِرَاضُ مِنَ الصَّحَاحِ <sup>163</sup>	رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا

<sup>159</sup> صورة الخليفة ومفهوم النموذج، (مقالة) فاطمة تجور، 168-169

<sup>160</sup> الدهم: الجيش، ململمة رداح: كثرة مجتمعة

<sup>161</sup> الملحد: المخالف، أبو خبيب: عبدالله بن الزبير، الجماح: العناد والخلاف

<sup>162</sup> الهبرزي: الخالص، الألف: الملتف، العيص: الشجر، العشات: الدقيقات، ضواحي: عيدان لا ورق عليها

<sup>163</sup> ديوانه 90/1



يعد الأخطل أحد أهم شعراء بني أمية المنافحين عنهم، فقد مدح خلفاءهم، واستدر جودهم وعطفهم، ونال عطاياهم<sup>165</sup>، وقد بدأ اتصاله بالأمويين في خلافة معاوية بن أبي سفيان، إلا أننا لا نجد له شيئاً يذكر في مديحه باستثناء بعض الأبيات المتفرقة التي جاءت في أثناء مديحه لأبنائه، وبعد أن تناول الأخطل في هجاء الأنصار، ومطالبة النعمان بن بشير بلسانه، وتهديد معاوية له بقطع لسانه، وحماية يزيد بن معاوية وإجارته له، اكتفى الأخطل بمجالسة يزيد، ومدحه بأربع قصائد، ونال جوائزه وعطاياه، ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، وانبرى لمحاربة منافسيه من الخوارج والشيعة والزييريين، تقدم الأخطل إلى الخليفة يجدد عهوده لبني أمية، فمدح عبد الملك بثلاث قصائد، كان صوت السياسة ظاهراً واضحاً فيها<sup>166</sup>، وكان مفراطاً في الدعوة للمروانيين، وعرف القوم أن لشعره في عبد الملك بن مروان فعل السحر والخمر، فرهب جانبه وخيف شعره<sup>167</sup>، يقول السيد مصطفى غازي " وكان ينتظر من الأخطل أن ينشئ في مدح عبد الملك من القصائد ما يتفق ووفرة هذا الإنتاج وكثرة نشاطه ذاك، وكان يرجى منه وقد دامت صلته به نحو خمسة عشر عاماً، أن يكون عدد قصائده فيه أكثر من عدد قصائده في غيره من الأمويين<sup>168</sup>،

<sup>164</sup> انظر ترجمته في: ديوانه، الأغاني 201/8، طبقات فحول الشعراء 401/2 الشعر والشعراء 483، خزانة الأدب 458/1

<sup>165</sup> المديح، سامي الدهان ص 20

<sup>166</sup> المديح والفخر بين جرير والأخطل والفرزدق، ظافر عبد الله الشهري ص 57

<sup>167</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي، ص 114

<sup>168</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي 115

ويرجح السيد مصطفى غازي أن الأخطل قد مدح عبدالمملك بأكثر مما وصلنا فيه من أشعار، وأن جزءا كبيرا منها أتى عليه الضياع، فلم يبق غير القصائد الثلاث التي وصلت إلينا.<sup>169</sup>

وأولى قصائده الثلاث قصيدته الرائية التي مطلعها:<sup>170</sup>

أَلَا يَا اسَلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ      وَإِنْ كَانَ حَيَانَا عِدَىَّ آخِرَ الدَّهْرِ

وهذه القصيدة في رأيي لا تعتبر من القصائد المدحية المباشرة، لأنها لا ترسم أي معلم من معالم صورة الخليفة عبدالمملك بن مروان كما لاحظنا في القصائد المدحية الأخرى التي تتعامل مع الممدوح بشكل مباشر، فقد تعرض الأخطل فيها إلى العداء القائم بين قبائل قيس وبين بني تغلب قبيلة الأخطل، وهجا القيسية وتتبع قبائلها قبيلة في هجائه، وافتخر بما كان لتغلب من بلاء في حربهم، يقول<sup>171</sup>:

لَقَدْ حَمَلْتُ قَيْسَ بْنَ عَيْلَانَ حَرْبُنَا      عَلَى يَابِسِ السُّيُوسِ مُخَدَّوْدِبِ الظَّهْرِ<sup>172</sup>  
وَقَدْ سَرَّيْنِي مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ أَنْتَنِي      رَأَيْتُ بَنِي الْعَجْلَانِ سَادُوا بَنِي بَدْرِ

<sup>169</sup> شعر الحرب، زكي المحاسني، ص 52

<sup>170</sup> شعر الأخطل، صنعة السكري 179/1

<sup>171</sup> شعر الأخطل 180/1

<sup>172</sup> أي حملناهم على مركب صعب، والسيوساء لا يكون إلا للحمار

وطاروا شقاقاً لا تَنْتَهِينَ، فَعَامِرٌ  
وَأَمَّا سُلَيْمٌ فَاسْتَعَاذَتْ حِذَارُنَا  
تَنْقُ بِلا شَيْءٍ شُيُوخُ مُحَارِبٍ  
وَنَحْنُ رَفَعْنَا عَنْ سَلُولٍ رِمَاحَنَا  
وَلَوْ بَنِي ذُبْيَانَ بَلَّثَ رِمَاحُنَا  
شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ  
وَلَا جُسْـمٍ سَرَّ الْقَبَائِلَ، إِنَّهَا  
وَمَا تَرَكَتْ أَسْيَافُنَا حِينَ جُرِدَتْ  
وَقَدْ عَرَكَتْ بِأَبْنَيْ دُخَانَ فَأَصْبَحَا  
وَأَذْرَكَ عِلْمِي فِي سُوءَاءٍ أَنَّهُمَا  
وَكُنْتُمْ بَنِي الْعَجْلَانِ الْأَمَّ عِنْدَنَا  
وَشَارَكْتَ الْعَجْلَانَ كَغَبَاءً وَلَمْ تَكُنْ  
لَعَمْرِي لَقَدْ لَاقَتْ سُلَيْمٌ وَعَامِرٌ

تَبِيحُ بَنِيهَا بِالْخِصَافِ وَبِالتَّمْرِ<sup>173</sup>  
يَحَرَّتْهَا السُّودَاءُ وَالْجَبَلِ الْوَعْرِ  
وَمَا خَلَّتْهَا كَانَتْ نَرِيشُ، وَلَا تَبْرِي  
وَعَمْدًا رَغَبْنَا عَنْ دِمَاءِ بَنِي نَصْرِ  
لَقَرَّتْ بِهِم عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَثْرِي  
وَلَمْ تَشْفُهَا قَتْلَى غَنِيٍّ وَلَا جَسْرِ  
كَبَيْضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حُمْرٍ  
لِأَعْدَانِنَا قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مَنْ وَثِرِ  
إِذَا مَا اخْرَجْنَا مِثْلَ بَاقِيَةِ الْبَطْرِ<sup>174</sup>  
تُقِيمُ عَلَى الْأَوْتَارِ وَالْمَشْرِبِ الْكَدْرِ  
وَأَحْقَرَ مَنْ أَنْ تَشْهَدُوا عَالِي الْأَمْرِ  
تُشَارِكُ كَغَبَاءً فِي وفاءٍ وَلَا غَدْرِ  
عَلَى جَانِبِ الثَّرْنَارِ رَاغِيَةَ الْبَكْرِ<sup>175</sup>

<sup>173</sup> طاروا شقاقاً: تفرقوا منشقين.

<sup>174</sup> ابنا دخان: قبيلة غني وقبيلة باهلة، عركت بهم: دارت عليهم، احزأل: ارتفع.

<sup>175</sup> الرغاء: صوت البعير، البكر: ولد الناقة ( يريد سقب ناقة صالح )

وتعرض بعد ذلك إلى الصلح بين قبيلتي قيس وتغلب، هذا الصلح الذي أمر به عبد الملك ورعاه، ويذكر مبايعة قبائل قيس لعبد الملك، ويحرض عبد الملك عليهم ويذكره بما يكونون له من بغض وعداوة، ووقوفهم مع ابن الزبير، ويدعوه إلى نقض ما بينه وبينهم من صلح، بعد أن أقر له بنو تغلب الأمر بالجزيرة، وبعد أن قضى على دعاة ابن الزبير بالعراق.<sup>176</sup>

يقول الأخطل<sup>177</sup>:

أَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِلٍ	وَحُسْنِ عَطَاءٍ لَيْسَ بِالرَّيْثِ النَّزْرِ <sup>178</sup>
وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا بِنَا	إِلَى صُلْحِ قَيْسٍ يَا ابْنَ مِرْوَانَ مِنْ قَقْرِ
فَإِنْ تَكُ قَيْسٌ يَا ابْنَ مِرْوَانَ بَايَعْتَ	فَقَدْ وَهَلْتَ قَيْسٌ إِلَيْكَ مِنَ الدُّعْرِ <sup>179</sup>
عَلَى غَيْرِ إِسْلَامٍ وَلَا عَنْ بَصِيرَةٍ	وَلَكِنَّهُمْ سَيَقُفُوا إِلَيْكَ عَلَى صُغْرِ <sup>180</sup>
وَمَا تَبَيَّنَّا ضَلَالَةَ مُضْعَبٍ	فَتَخْنَا لِأَهْلِ الشَّامِ بَاباً مِنَ النَّصْرِ
فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنَّا هَوَازِنْ كُلُّهَا	كَوَاهِي السُّلَامِيِّ زَيْدٌ وَقَرّاً عَلَى وَقْرِ <sup>181</sup>

<sup>176</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي ص 116

<sup>177</sup> شعر الأخطل 189/1

<sup>178</sup> الريث: البطيء، النز: القليل

<sup>179</sup> وهلت: فزعت

<sup>180</sup> الصغر: الذلة والانتكسار

<sup>181</sup> الواهي: المنكسر، السلامي: عظام خف البعير

سَمَوْنَا بِعَرْنَيْنٍ أَشَمَّ وَعَارِضٍ      لَتَمْنَعَ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْبِشْرِ<sup>182</sup>  
فَأُصْبَحَ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمَنْبِجٍ      لَتَغْلِبَ تَزْدِي بِالزُّدْنِيَّةِ السُّمْرِ  
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَسِيرُهَا      تَحُبُّ الْمَطَايَا بِالْعَرَانِينَ مِنْ، بَكْرِ

فهذه الأبيات كما نلاحظ تتضمن تعريضا واضحا بقبائل قيس ولا تتضمن مديحا مباشرا صريحا لعبدالمملك، فقد جاء المدح بصورة غير مباشر، وهو يكمن في خضوع القبائل القيسية لعبدالمملك أذلاء خانعين كما وصفهم الأخطل، ولذلك تعد هذه القصيدة من الشعر التحريضي، والأخطل يحرض عبدالمملك تحريضا مباشرا ضد القبائل القيسية، مذكرا إياها بما يكونون له من عداوة وبغض، ويدعوه دعوة صريحة إلى نقض ما بينه وبينهم من صلح، بعد ما أظهره التغلبيون من بطولات في دفاعهم عن الدولة الأموية وقتالهم للقيسية، كما أن الأخطل يفتخر بنفسه وبقومه افتخارا شديدا، ويشيد بهم إشادة كبيرة، ولاحظنا انشغاله بالهجاء والفخر وتصوير الصراع القبلي العنيف عن المديح الذي يفترض أن يكون واضحا جليا في هذه القصيدة، ويبدو الأخطل شاعرا قبليا متعصبا، ينشغل عن مدح الخليفة بتصوير الصراع القبلي العنيف، كما يدافع عن قبيلته ويتغنى ببلائها في المعارك، أكثر من انشغاله بالتغني بفضل الأمويين والدفاع عن دولتهم<sup>183</sup>.

وحتى عندما تعرض لذكر الخليفة عبدالمملك بن مروان، في البيت الخامس والثلاثين من القصيدة، يبدو الأخطل شاعرا متكسبا، فقال له: " أعني أمير المؤمنين

<sup>182</sup> العرنين: سيد القوم، العارض: الجيش

<sup>183</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي 117



بنائل وحسن عطاء " فطلب منه الإعانة والعطاء الجزيل، وهو لا يريد منه عطاء قليلا بطيئا، وإنما يريد منه عطاء سريعا مجزيا، لكن صورة عبد الملك تبدو لنا واضحة مشرقة المعام في بائيته التي مطلعها<sup>184</sup> :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَسْرَيْتُ لَا لَيْلَ عَاجِزٍ      بِسَاهِمَةِ الْعَيْنَيْنِ طَاوِيَةَ الْقُرْبِ

يقول الأخطل بعد مقدمة القصيدة التي بلغت أربعة عشر بيتا<sup>185</sup> :

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَحَلْتُهَا      عَلَى الطَائِرِ الْمُيَّمُونِ وَالْمَنْزِلِ الرُّحْبِ  
إِلَى مُؤْمِنٍ تَجَلَّوْا صَفِيحُهُ وَجْهِهِ      بِلَايِلَ تَغْشَى مِنْ هُمُومٍ وَمِنْ كَرْبِ<sup>186</sup>  
مُنَاخِ ذَوِي الْحَاجَاتِ يَسْتَمْطِرُونَهُ      عَطَاءَ غَرِيمٍ مِنْ أَسَارَى وَمِنْ نَهَبِ<sup>187</sup>  
تَرَى الْحَلَقَ الْمَآذِيَّ تَجْرِي فُضُولُهُ      عَلَى مُسْتَخِفِّ النَّوَائِبِ وَالْحَرْبِ<sup>188</sup>  
أَخُوهَا، إِذَا شَالَتْ عَضُوضَا سَمَا لَهَا      عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ دَلُولٍ وَمِنْ صَعْبِ<sup>189</sup>  
إِمَامٍ سَمَا بِالْخَيْلِ حَتَّى تَقْلَقَلَتْ      قَلَائِدُ فِي أَعْنَاقٍ مُعْلَمَةِ حُذْبِ<sup>190</sup>

<sup>184</sup> شعر الأخطل 39/1

<sup>185</sup> شعر الأخطل 43/1

<sup>186</sup> بلايل: شدائد مفردها بليلة

<sup>187</sup> المناخ: المكان تقيم فيه، النهب: الغنيمة

<sup>188</sup> الحلق: حلق الدرع، المآذي: ما خلص من حديد الدروع

<sup>189</sup> العضوض: الشديدة، سما: ارتفع

<sup>190</sup> تقلقلت: تحركت واضطربت، حذب: تقوس واحدياب

فالأخطل هنا يخاطب الخليفة في بداية أبياته المدحية ليبين له أنه بعد هذه الرحلة الشاقة المضنية، والمخاطر الكثيرة التي تعرض لها، ساق مطاياه إلى فناء الخليفة الواسع، فهذا البيت فيه الخير كل الخير، وقد وصف عبدالمملك بحسن الإيمان، والكرم الشديد وذلك لأنه يعطي بسخاء قل نظيره من الغنائم لذوي الحاجات الذين ينتجعون داره، وكأن هذا العطاء مطر لأنه يأتي من خليفة كريم ويصفه بالشجاعة وأنه مستقل بالحرب وقادر عليها، إذا دارت رحاها أدارها بكل حنكة واقتدار، مشبها هيجان الحرب بشولان الناقة حين تنهياً للضراب، فهو يخوض غمار الحرب مهما كانت هذه الحرب بكل شجاعة وإقدام، وهذا منتهى الشجاعة، ويصفه كذلك بالإمامة، وأنه من كثرة حروبه ومداومته عليها قد أتعب خيله فأصابها الهزال حتى تقلقلت القلائد في أعناقها، ويستمر في تصوير هذه الخيل ليصل من خلال هذا التصوير إلى امتداح عبدالمملك بالكر والفر، يقول <sup>191</sup>:

شَوَاخِصَ بِالْأَبْصَارِ مِنْ كُلِّ مُقَرَّبٍ      أَعِدَّ لِهُجَا أَوْ مُوَاقِفَةِ الرُّكْبِ <sup>192</sup>  
سَوَاهِمٍ قَدْ عَاوَدَنَ كُلَّ عَظِيمَةٍ      مُجَلَّلَةَ الشَّطِيِّ طَيِّبَةَ الْكَسْبِ <sup>193</sup>  
يُعَانِدَنَ عَنْ صُلْبِ الطَّرِيقِ مِنَ الْوَجَى      وَهَنَّ عَلَى الْعِلَاتِ يَرْدِينَ كَالنُّكْبِ <sup>194</sup>  
إِذَا كَلَّفُو هُنَّ التَّنَائِي، لَمْ يَزَلْ      عُرَابٌ عَلَى عَوَاجٍ مِنْهُنَّ أَوْ سَقَبٍ <sup>195</sup>

<sup>191</sup> شعر الأخطل 44/1

<sup>192</sup> شواخص: جمع شاحصة وهي الثابتة النظر، موافقة الركب: تقف مقابلة

<sup>193</sup> سواهم: ضوامر، الشطي: ثياب مصرية

<sup>194</sup> يعاندن: يتركن متن الطريق، الوجى: الشديد

<sup>195</sup> التناي: البعد، العوجاء: التي اعوجت من التعب، السقب: ولد الناقة

فهذا الإنهاك والهزال الذي أصاب الخيل وظهر عليها بشكل واضح جلي إنما كان نتيجة لطول بقائها في ميادين الحرب، وهي التي قد دأبت على القتال وتمرسّت به، وهو بهذا يعظم صورة الخليفة من خلال تعظيمه لصورة خيله، ويمتدح عبدالمملك بكثرة غزواته المتكررة للروم، ويركز على وصف الخيل كذلك، لأن الخيل هي الأداة التي من خلالها يتحقق النصر، فيقول <sup>196</sup>:

وَفِي كُلِّ عَامٍ مِنْكَ لِلرُّومِ غَزْوَةٌ      بَعِيدَةٌ أَثَارِ السَّنَايِكِ وَالسَّرْبِ <sup>197</sup>  
يُطَرِّحُنَ بِالدَّرْبِ السُّخَالَ كَأَنَّمَا      يُشَقِّقْنَ بِالْأَسْلَاءِ أَرْدِيَّةَ الْعَصْبِ <sup>198</sup>  
بَنَاتُ غُرَابٍ لَمْ تَكْمُلْ شُهُورُهَا      تَقَلَّقُلْنَ مِنْ طَوْلِ الْمَفَاوِزِ وَالْجَذْبِ <sup>199</sup>  
وإنَّ لَهَا يَوْمَيْنِ: يَوْمَ إِقَامَةٍ      وَيَوْمًا تَشْكِي الْقَصَّ مِنْ حَذَرِ الدَّرْبِ <sup>200</sup>  
عَمُوسِ الدُّجَى تَنْشَقُّ عَنْ مُتَضَرِّمٍ      طَلُوبِ الْأَعَادِي لَا سَوْوَمٍ وَلَا وَجِبِ <sup>201</sup>

فالخليفة مجاهد يسعى بخيله في كل عام إلى الروم يغزوهم ويحاربهم، وهذه الخيل هي التي تقتحم السبل النائية في كل سنة، ونتيجة لهذه الغزوات المستمرة، أصبحت تضع أولادها قبل الأوان من شدة الإعياء والتعب نتيجة المعارك التي تخوضها ضد الأعداء، وهو يريد أن يصل من خلال هذه الصورة إلى شجاعة الخليفة عبدالمملك

<sup>196</sup> شعر الأخطل 45/1

<sup>197</sup> السنايك: جمع سنك وهو مقدم الحافر، السرب: المذهب

<sup>198</sup> يطرحن السخال: يلقين أولادهن لغير تمام، الأسلاء: اللقافات، العصب: بُرد

<sup>199</sup> غراب، فرس لقبيلة غني، تقلقل: هزل وضم، المفاوز: الصحراء البعيدة

<sup>200</sup> القرض: الحصى

<sup>201</sup> الغموس: الذي يغامس الحرب، المتضرم: المغتاط غضبا، الوجب: الجبان

وإقدامه، وترى مي خليف<sup>202</sup> (أن الأخطل يريد أن يتخذ من موقف الخليفة من أعداء الإسلام على هذا النحو ما يؤهله لاستحقاق الخلافة طالما نهض بأهم أعبائها، فيعقب على الموقف السابق بقوله:

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لِأَبْيَصَ لَا عَارِي الْخَوَانِ وَلَا جَدْبٍ

وكأنه يرى من نفسه تقصيرا حول عرض السياسة الخارجية للممدوح مع الروم فقط فيضرب مثلا آخر من مواقفه الداخلية التي يتصدى فيها للفتن فيخلص منها الدولة الإسلامية، يقول<sup>203</sup>:

وَقَدْ كَانَ يَوْمًا رَاهِطٍ مِنْ ضَلَالِكُمْ فَنَاءَ لَأَقْوَامٍ، وَخَطْبًا مَنِ الْخَطْبِ  
تُسَامُونَ أَهْلَ الْحَقِّ بِأَبْنِي مُحَارِبٍ وَرَكِبَ بَنِي الْعَجَلَانِ، حَسْبُكَ مِنْ رَكِبٍ  
ثم ينتقل إلى المدح المباشر فيقول<sup>204</sup>:

عَلَى ابْنِ أَبِي الْعَاصِي قُرَيْشٌ تَعَطَّفْتُ لَهُ صُلْبُهَا، لَيْسَ الْوَشَائِظُ كَالصُّلْبِ

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لِأَبْيَصَ، لَا عَارِي الْخَوَانِ وَلَا جَدْبٍ

فعبداً للملك ذو أصل عريق أحاط به نسب قريش الكريم من كل جانب، فهو كريم ابن كريم، ويركز الأخطل على التفويض الذي منحه الله له لقيادة الأمة، حيث جعل الله الخلافة فيهم، فغدت سلطتهم مستمدة منه عز وجل لأنه رآهم موضع

<sup>202</sup> التبار الإسلامي في القصيدة الأموية، مي خليف 260

<sup>203</sup> شعر الأخطل 49/1

<sup>204</sup> شعر الأخطل 47/1

ثقة، وقد أثار شعراء الخلافة فكرة أن الخلافة قدر مقدور فرضه الله على المسلمين، وقضاء محتوم قضاه عليهم، فلا مرد له، وعلى الأمة أن ترضى بحكمهم وأن تطيعهم، كل ذلك حتى ينصرف الناس عن التفكير في معارضتهم والخروج عليهم<sup>205</sup>.

ويعود الأخطل لتصوير نشاط عبد الملك وعمله الدؤوب لاستتباب الأمن ورفع الظلم والقضاء على الفوضى، يقول<sup>206</sup>:

قُرومَ أبو العاصي غداةَ تَحَمَّطَتْ	دَمَشْقُ بِأَشْبَاهِ الْمُهَنَّاةِ الْجُرْبِ <sup>207</sup>
يقودون مَوْجاً مِنْ أُمِّيَّةٍ لَمْ يَرِثْ	دِيَارَ سُلَيْمٍ بِالْحِجَازِ وَلَا الْهَضْبِ <sup>208</sup>
مُلُوكُ وَأَحْكَامُ وَأَصْحَابُ نَجْدَةٍ	إِذَا سُوِغُوا كَانُوا عَلَيْهَا أُولَى شَعْبِ <sup>209</sup>
أَهْلُوا مِنَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَصْبَحُوا	مَوَالِي مُلْكٍ لَا طَرِيفٍ وَلَا عَصْبِ
تَذُودُ الْقَنَا وَالْخَيْلُ تُثْنِي عَلَيْهِمْ	وَهَنَّ بِأَيْدِي الْمُسْتَمِيتِينَ كَالشُّهْبِ

فقد قادوا أمواجا كبيرة من الجند في الشام حينما أحاطت بدمشق جحافل الأعداء بخيولهم التي تشبه الإبل المطلية بالقطران، وهنا يريد أن يعود لإثارة عبد الملك على قيس متخذا من هذا المنعطف السياسي وسيلة لازدياد كراهية بني أمية للقيسيين.

<sup>205</sup> تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، يوسف خليف، 172.

<sup>206</sup> شعر الأخطل 49/1

<sup>207</sup> قروم: جمع قرم وهو الفحل ( السيد العزيز )، المهناة: المطلية بالقطران

<sup>208</sup> الهضب: موقع

<sup>209</sup> أحكام: جمع حاكم، نجدة: شجاعة وشدة

وعلى الرغم من تغني الأخطل بحروب الخليفة مع مناوئيه، وعرضه لهذه الحروب التي خاضها للقضاء على أعدائه السياسيين من الأحزاب الأخرى المتمثلة بالزبيرية والشيعة والخوارج وأعدائهم من القيسية وغيرهم، وما نتج عن تلك الحروب من قتل لأعدائه وتشيتيتهم والقضاء عليهم، إلى أنه يرسم صورة مغايرة لكل ذلك عندما يقرر أن الملك أقي عبدالمملك دون طعن أو قتال، يقول<sup>210</sup>:

وَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ مُلْكٍ رَأَيْتُهُ أَتَاكَ بِلَا طَعْنِ الرِّمَاحِ وَلَا الضَّرْبِ

فالملك انتقل إلى عبدالمملك دون قتال ولا حروب ولا معارك، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن الشاعر قد أخذ بعين الاعتبار في هذه الصورة نظرية حق الوراثية في الحكم في دعايته للخليفة من منظور ديني، وهذا المنطق تلقته الأسرة الأموية الحاكمة من تأثيرات حضارية أجنبية<sup>211</sup>، هكذا صوره في هذا البيت، فالحكم جاءه وراثية ولم يأت نتيجة حروب، والحروب خاضها وهو خليفة لتثبيت أركان حكمه.

ولكنه يقرر أن خلافة عبدالمملك مرتبطة بالتفويض الإلهي الذي يحفظ له النصر والغلبة دائماً على أعدائه، يقول<sup>212</sup>:

وَلَكِنْ رَأَى اللَّهَ مَوْضِعَ حَقِّهِ عَلَى رَعْمِ أَعْدَاءٍ وَصَدَادَةٍ كُذِّبِ

فأله ساق الخلافة والحكم إلى عبدالمملك، لأنه أحق من غيره للقيام بهذا الأمر الذي انتدبه إليه وصورة عبدالمملك كما يصورها الأخطل تنافس صورة الإمام

<sup>210</sup> شعر الأخطل 50/1

<sup>211</sup> ( التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، مي خليف، 234)

<sup>212</sup> شعر الأخطل 51/1

الهاشمي وتزاحمها كما تذكر فاطمة تجور، فهو أيضا - أي عبد الملك - الإمام العادل الهادي المهدي التقي المرضي الورع الخاشع القائم الصائم إلى آخر هذه الصفات التي وظفت توظيفاً سياسياً والتي أسبغها الشيعة على أمتهم، فالأخطل رأى عبد الملك الإمام الذي يغفر الذنوب<sup>213</sup>، يقول في قصيدة يمدح بها الحجاج بن يوسف الثقفي<sup>214</sup>:

أحيا الإله لنا الإمامَ فإنه      خَيْرُ البريةِ للذنوبِ غفورٌ  
نورُ أضاءَ لنا البلادَ وقد دَجَتْ      ظُلمَ تكادُ بها الهداةُ تجورُ  
الفاخرونَ بكلِّ يومٍ صالحٍ      وأخو المكارمِ بالفعالِ فخورُ

فعبد الملك في نظر الأخطل هو خير الناس على الإطلاق، وهو الذي يغفر الذنوب، وهو النور الذي أضاء الدنيا بعد أن كان الظلام سائداً، وبعد أن كادت قلوب الهداة تزيغ عن الحق ، هذا هو عبد الملك كما صورته الأخطل في هذه الأبيات، وهي صورة مبالغ فيها، فهذه الصفات العليا التي أطلقها الأخطل عليه، والتي جعلته إماماً اختاره الله لحكم الدولة فولاه الخلافة، وهو الهادي الذي يقتبس منه الآخرون نورهم، هي التي جعلت عبد الملك يحتفي احتفاء كبيراً بالأخطل، وكان لحرص الأخطل على إرضاء عبد الملك أيضاً أثر في ارتفاع منزلته عنده.

<sup>213</sup> صورة الخليفة ومفهوم النموذج ( مقالة)، فاطمة تجور 164

<sup>214</sup> ديوان الأخطل، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين 117

وتتألق صورة عبد الملك بن مروان تألقاً، وتشرق إشراقاً في قصيدة الأخطل المعروفة بقصيدة خف القطين التي مطلعها<sup>215</sup>:

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ

وهي القصيدة التي اهتز لها عبد الملك طرباً، ومن أجلها أطلق على الأخطل لقب شاعر بني أمية، كما نعتته بأشعر العرب<sup>216</sup>، وقد عدها مصطفى الشكعة من أشهر القصائد التي مدح بها الأخطل بني أمية<sup>217</sup>.

أما الصورة التي رسمها الأخطل لعبد الملك فهي مليئة بالشمائل العربية الحميدة التي يتمناها كل ممدوح، وهي صورة تغمرها الحيوية والرجولة، إنها صورة الرجل كما يجب أن يكون عندما يتولى أمر الناس، وهو يقوم على حكمهم بمسؤولية عالية وإحساس رفيع بالواجب، يعينه على ذلك ذكاؤه الحاد، وعقله المتفتح، وفكره الثاقب، وحزمه الشديد، وعزمه الذي لا يصيبه الوهن، وبذلك يستقيم له أمر الناس بأمر من الله<sup>218</sup>:

إِلَى أَمْرِي لَا تُعْرِينَا نَوَافِلُهُ أَظْفَرَهُ اللَّهُ فَلْيَهْنِئْ لَهُ الظَّقَرُ

الْخَائِضِ الْعَمَرِ وَالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ خَلِيقَةَ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ

وَالْهَمُّ بَعْدَ نَجْيِ النَّفْسِ يَبْعَثُهُ بِالْحَزْمِ وَالْأُضْمَعَانِ: الْقَلْبُ وَالْحَذَرُ

<sup>215</sup> شعر الأخطل 1 / 192

<sup>216</sup> الأغاني 206/8

<sup>217</sup> رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعة 102

<sup>218</sup> شعر الأخطل 1 / 196



والمُسْتَمِرُّ بِهِ أَمْرُ الْجَمِيعِ فَمَا يَغْتَرُّهُ بَعْدَ تَوْكِيدِ لَهُ غَرُّ

بدأ الأخطل مديحه في هذه القصيدة بالحديث عن عطايا عبد الملك التي خص الشاعر بها، ثم تحدث عن حقه في الخلافة، فهو الخليفة المؤيد من الله في الظفر بها، إنه خليفة الله في أرضه، وحامي كلمته ومنفذ إرادته، يقوم بأمر الرعية حازماً عازماً<sup>219</sup>، وهو خواض للغمرات العظام، شجاع، وهو الذي يتبع اليُمن ظله، به يترك الناس وإليه يفزعون في تدبير أمورهم وتصريف شؤونهم<sup>220</sup>، بسبب تقواه الشديدة، ولذلك يطلب الناس السقيا به من الله لأن الله يستجيب له لتقواه<sup>221</sup>.

وينتقل بعد ذلك ليرسم صورة جميلة من الكرم والعطاء اتصف بها عبد الملك، متخذاً من نهر الفرات وفيضانه صورة يقابل بينها وبين كرم عبد الملك، يقول الأخطل<sup>222</sup>:

وما الْفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ حَوَالِيَهُ      فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعُشْرُ  
وَدَعْدَعَتُهُ رِيَّاحَ الصَّيْفِ وَاضْطَرَبَتْ      فَوْقَ الْجَاجِي مَنْ أَدِيهِ عُذْرُ  
مُسَحْنَفِرًا مِنْ جِبَالِ الرُّومِ تَسْتُرُهُ      مِنْهَا أَكْفَيْفُ، فِيهَا دُونَهُ زَوْرُ  
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ      وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَهَرُ

<sup>219</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي 118

<sup>220</sup> شعر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي، عادل جابر صالح محمد 192

<sup>221</sup> المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل، ظافر الشهري، 63

<sup>222</sup> شعر الأخطل 197/1

فهذه صورة تشبيهية تمثيلية ممتدة جميلة تحمل وجهي شبه هما الكرم والعطاء والجسامة والعظمة، وكل هذه المشاهد المحسوسة التي رسمها للفرات ليست بأجود سيبا من عبدالمملك ولا بأحسن جسامة وعظمة منه، فالأخطل أخذ من النابغة صورته التي صور بها جود النعمان، إذ شبهه بالفرات حين يعلو فيضانه ويشتد، فيجرف ما يلقاه في طريقه من نبات وأشجار، وقد حاول الأخطل أن يحدث في هذه الصورة طرافة جديدة كما يقول شوقي ضيف، وهي طرافة يستمدها أولا من التفصيل في صورة فيضان الفرات، وتتعبه وهو يسقط من جبال الروم في انحدار شديد، تتدافع معه السيول والأمواج تدافعا، ويستمدها ثانيا من المقارنة نفسها، فالنابغة يكتفي في المقارنة بين النعمان والفرات بالجود، أما الأخطل فيمد المقارنة إلى الجهارة والروعة، فعبدالمملك لا يشبه الفرات فقط في جوده وكرمه، بل يفوقه كرما وجودا، ويشبهه أيضا في جسامته وروعته وفخامته<sup>223</sup>.

ويمتدح نصحه له وجهه لقومه، فإذا هو مبق على الشاعر مقدر لبني تغلب غير مهتم لمن يشي به عنده<sup>224</sup>:

وَلَمْ يَزَلْ بِكَ وَاشِبِهِمْ، وَمَكْرَهُمْ      حَتَّى أَشَاطُوا، بَعِيبٍ، لَحَمَ مِنْ يَسَرُوا  
فَمَنْ يَكُنْ طَاوِيًا عَنَّا نَصِيبَتْهُ      وَفِي يَدَيْهِ بَدُنِيَا عَزْرَنَا حَصَرُ

فالأخطل في هذين البيتين ينبه عبدالمملك في لباقة إلى أن يضع سعي الوشاة جانبا ولا يسمع لهم، وذلك لكي يأمن على نفسه ويحتفظ بمكانته عنده.

<sup>223</sup> التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف 139

<sup>224</sup> شعر الأخطل 198 / 1

وينتقل بعد ذلك إلى تصوير عبد الملك وهو يجاهد أعداءه من أجل تثبيت أركان ملكه، فإذا هو قوي شديد البطش بأعدائه، يَغشى القناطر يَبْنِيها ويهدمها حسب ما تقتضيه مصلحة الدولة، وهو فارس شجاع مقدم، يتقدم جيوشه ويقودها ليقع بأعدائه الهزيمة، وهو قوي الشكيمة والبأس، لقد رد المارقين المتمردين إلى جادة الصواب، وهدى الضالين إلى الحق، وقد استقام له أمر العراق، وخضع أهله لسلطان عبد الملك، يقول<sup>225</sup>:

فهُوَ فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا      أَبْدَى التَّوَّاجِدَ يَوْمَ بَاسٍ دَكَرُ<sup>226</sup>  
مُفْتَرَشٌ كَافْتَرَشِ اللَّيْثِ كُلَّكَهْ      لَوْقَعَةٍ كَانَتْ فِيهَا لَهُ جَزَرُ<sup>227</sup>  
مُقَدَّمٌ مَائَتِي أَلْفٍ لِمَنْزِلَةٍ      مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِنَّ وَلَا بَسْرُ  
يَغْشَى الْقَنَاطِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا      مُسَوِّمٌ قَوْقَهُ الرِّيَاضُ وَالْقَتَرُ<sup>228</sup>  
حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ      وَبِالتَّوَيَّةِ لَمْ يُنْبِضْ بِهَا وَتَرُ  
وَتَسْتَبِينُ لِأَقْوَامٍ ضَلَالَتُهُمْ      وَيَسْتَقِيمَ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعَرُ<sup>229</sup>  
وَالْمُسْتَقِيلُ بِأَثْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ      كَانَتْ لَهُ نِعْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدْخَرُ<sup>230</sup>

<sup>225</sup> شعر الأخطل 199/1

<sup>226</sup> التَّوَّاجِدُ: الأضراس التي تلي الناب، الباسل: الكربة الشديد، الذكر: الصلب

<sup>227</sup> المَفْتَرَشُ: البارك على صدره، الكلكل: مقدم الصدر، الجزر: القتلى

<sup>228</sup> القَتَرُ: الغبار

<sup>229</sup> صعر، الميل من الكبر

<sup>230</sup> المدخَر: الصنائع المدخرة

وهو يشير إلى مقتل مصعب بن الزبير ( بالطّف )، وإلى ( الثوية ) وبها قبر زياد بن أبيه، وذكره لهذه المواقع إنما جاء ليؤكد أن النصر في الأحداث التي جرت في هذه المواقع يعود الفضل فيه للخليفة عبد الملك الذي ينصره الله في معاركه مع خصومه جميعا، ولهذا السبب استقامت الأمور له في دولته <sup>231</sup>، لقد حشد الأخطل لعبد الملك كما رأينا كثيرا من صور البطولة ومعاني القوة والعظمة.

وبعد فراغه من رسم هذه الصورة الجميلة لعبد الملك بكل ما فيها من أبعاد، عاد ليرسم صورة غاية في الجمال والروعة للأمويين مشيدا بهم وهم يحيطون بعبد الملك خليفتهم وزعيمهم، مصورا إياهم رجالا أفاذا يحتلون من قریش الذروة والقمة، إنهم رجال أطهار عيافو الخنا أنف، غيرون على الحق شديدون في صبرهم على الشدائد ومحاربة الأعداء والخصوم، وذكر تأييد الله لهم في ملكهم، ومدح شكرهم للنعمة وعدم بطرهم بالخير، ووصف ما أثر عنهم من بطش في الغضب، وما عرف عنهم من حلم في القدرة، وأشاد بما أثر عنهم في الحروب، وتغنى بما تحلوا به من صفات الكرم والجود، واعترف بما لهم عليه من أفضال <sup>232</sup>، هؤلاء القوم هم أعز الناس وأفضلهم وأكرمهم وأقدرهم، وأحلمهم وأصبرهم، هم أعلى الناس نسبا، نبتهم يعلو كل نبت، إنهم أفضل قریش، وقریش أفضل الناس، إنهم خيرة الخيرة في نظر الأخطل، يقول مشيدا ببني أمية <sup>233</sup>:

<sup>231</sup> المديح والفخر بن جرير والفرزدق والأخطل، ظافر الشهري، 65

<sup>232</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي 119

<sup>233</sup> شعر الأخطل 1 / 200

فِي تَبَعَةٍ مِنْ قَرِيْشٍ يَّعْصِبُوْنَ بِهَا      مَا إِنْ يُوَازِيْ بِأَعْلَى نَبْتِهَا شَجَرٌ<sup>234</sup>  
 تَعْلُوْا الْهَضَابَ، وَحَلُّوْا فِيْ أَرْوَمَتِهَا      أَهْلُ الرِّبَاِ وَأَهْلُ الْفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا<sup>235</sup>  
 حُشِدْ عَلَى الْحَقِّ عَيَافُو الْخَنَا أَنْفٌ      إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوْهَةً صَبَرُوا<sup>236</sup>  
 وَإِنْ تَدَجَّتْ عَلَى الْآفَاقِ مُظْلِمَةٌ      كَانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرٌ<sup>237</sup>  
 أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرَوْنَ بِهِ      لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقِرٌ  
 لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ      وَلَوْ يَكُوْنُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرُوا<sup>238</sup>  
 شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ      وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا<sup>239</sup>  
 لَا يَسْتَقِلُّ ذُوو الْأَصْغَانِ حَرْبَهُمْ      وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيْدَانِهِمْ حَوْرٌ<sup>240</sup>  
 هُمُ الَّذِينَ يُبَارَوْنَ الرِّيَاحَ إِذَا      قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِيْنَ أَوْ قَتَرُوا<sup>241</sup>  
 بَنِي أُمِيَّةٍ نُعْمَائُكُمْ مُجَلَّلَةٌ      هَمَّتْ فَلَا مَنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرٌ<sup>242</sup>

لقد رسم الأخطل في هذه الأبيات صورة من الصور التي تمتاز بالروعة والجمال  
 للبيت المرواني، تجلت فيها عبقريته وجمال تصويره وإبداعه ودقته المتناهية في فنه

<sup>234</sup> النبتة: ضرب من الشجر الجيد، يعصبون بها: يجتمعون حولها

<sup>235</sup> حلوا: نزلوا، الأرومة: الأصل، أهل الرباء: أهل العدد والكثرة

<sup>236</sup> حشد - محتشدون، العياف: شديد الكره، الخنا: الفحش

<sup>237</sup> تدجت: أظلمت، معتصر: ملجأ

<sup>238</sup> أشر: بطر

<sup>239</sup> شمس: جمع شمس وهو الصعب العسر

<sup>240</sup> يستقل: يطيق، الأصغان: الأحقاد، لا يبين، لا يظهر، الخور: الضعف

<sup>241</sup> العافون: جمع عاف وهو طالب العطاء، قترأ: أصابهم إقلال من المال

<sup>242</sup> مجلة: العامة الشاملة

هذا، هذه الصورة البديعة التي احتل فيها عبد الملك مركز الصدارة بين أفراد قومه وهم يحفون به في جلال ووقار ومهابة يوقع في النفس الهيبة ويملأ القلب بالإعجاب<sup>243</sup>، لقد تجلى إبداع الأخطل في هذه القصيدة وظهرت عاطفته الجياشة فعبّر عن مشاعره وإحساسه مجسدا معانيه بالصور الحسية والمعنوية<sup>244</sup>.

---

<sup>243</sup> الأخطل شاعر بني أمية، 120

<sup>244</sup> المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل، ظافر الشهري 66

صورته في شعر الفرزدق<sup>245</sup>

يذكر شاعر الفحam في كتابه (الفرزدق) "أن الفرزدق ظل بعيدا عن خلفاء بني أمية، ولما استتب الأمر لعبدالمملك بن مروان، عرض لمديحه والإشادة به في مدائح الحجاج بن يوسف، والحكم بن أيوب، وهجاء ابن الأشعث، بل إن في ديوانه مقطوعة يمدحه بها، وهي في الحق إشادة ببني مروان، وغلبتهم عبد الله بن الزبير، ولكنه لم يقد على عبدالمملك، بل ظل بعيدا عن دمشق، يؤثر العراق، ويقنع بمدح ولاته وأشرافه"<sup>246</sup>، ثم يعود الفحam مرة أخرى ويقول: "إن عدة قصائد كانت تصلح للتدليل على وفادته وظفره - أي الفرزدق - بالعطايا والهبات (من الوليد بن عبدالمملك)، لولا أن الفرزدق يعلن في صراحة لا تحتل اللبس في مدحه له، أنه لم يأت دمشق ولم يزر خليفة قبل سليمان، يقول الفرزدق:<sup>247</sup>

تَرَكْتُ بَنِي حَرْبٍ وَكَانُوا أَهْمَةً      وَمَرَوَانَ لَا آتِيهِ، وَالْمُتَخَيَّرَا  
أَبَاكَ وَقَدْ كَانَ الْوَلِيدُ أَرَادَنِي      لِيَفْعَلَ خَيْرًا أَوْ لِيُؤْمِنَ أَوْ جَرَا  
فَمَا كُنْتُ عَنْ نَفْسِي لِأَرْحَلَ طَائِعًا      إِلَى الشَّامِ حَتَّى كُنْتُ أَنْتَ الْمُؤَمَّرَا

ويضيف الفحam، واختلف الرواة، فأثبت بعضهم وفادته على الوليد، وجزم آخرون بأنه لم يقرب مروان في خلافته ولا عبدالمملك ولا الوليد، وأنه لم يأت خليفة

<sup>245</sup> انظر ترجمته في: ديوانه، الأغاني 193/255.21/9، طبقات فحول الشعراء 299 الشعر والشعراء، 471، خزانة

الأدب 218/1

<sup>246</sup> الفرزدق، شاعر الفحam 169

<sup>247</sup> ديوان الفرزدق 334/1

قبل سليمان<sup>248</sup>، يبقى أن نشير إلى أن بعض المصادر قد ذكرت أن الفرزدق كان لسان حال قبيلته تميم المضرية، دافع عن مواقفها وندد بالمخالفين لها، وهجا أصحاب الجفرة الذين تنكروا لمصعب بن الزبير، وعَجِبَ لأقوام من تميم ينضمون إلى الأزد وربيعة، وينسون قومهم وولاءهم لأمرهم، وراح يؤكد بيعته وبيعة قومه لابن الزبير<sup>249</sup>.

ولكن حين نستعرض أشعاره في مدح بني أمية وتعرضه لآل الزبير لا نستطيع أن نثق بهذه المقولة لأن ما بين أيدينا من شعره ينفي أن يكون من مؤيدي الزبيريين، بل على العكس من ذلك، لم يترك فرصة يستطيع فيها أن ينال من الزبيريين إلا استغلها وعرض بهم، ويبدو أن هناك أسبابا تتعلق بحياته الأسرية وزوجته النوار تقف وراء ذلك التعريض<sup>250</sup>.

كما أنه لم يكن من أشياع الهاشمين، حيث يعتقد كثيرون أنه كان شيعي الهوى، ويستدلون على شيعيته بقصيدته الميمية التي مدح بها علي بن الحسين زين العابدين، ويكاد ديوانه يخلو من أي قصائد في مدح آل البيت باستثناء تلك القصيدة، كما أنه لم يعرض لهم في مدائحه أو هجائياته.

<sup>248</sup> ديوانه الفرزدق، المقدمة ص 12، الفرزدق، شاعر الفحam، ص 171

<sup>249</sup> الفرزدق، شاعر الفحam، 159، انظر ديوانه 60، تاريخ الطبري 5، 3-4، نسب قريش، المصعب الزبيري 189، أنساب الأشراف، البلاذري 163-155-2/4، معجم البلدان، ياقوت الحموي مادة الجفرة، والجفرة موضع بالبصرة كانت فيه الوقعة بين خالد بن عبد الله ابن أسيد قائد جيش عبد الملك بن مروان وبين أهل البصرة من أصحاب مصعب بن الزبير.

<sup>250</sup> الفرزدق، شاعر الفحam، 145.



وعلى الرغم من ذلك فإن الذي يتصفح ديوانه يلاحظ أنه قد مدح خلفاء بني أمية، وولاتهم بعدد كبير من القصائد، يضاف إليها عدة مقطوعات، وجهها جميعا مدح خلفاء بني أمية وأمرائهم، إلا أنني لم أعر في ديوانه إلا على قصيدة واحدة تتكون من ثلاثة وأربعين بيتا ومقطوعة واحدة من ستة أبيات في مدح عبدالمملك بن مروان، وهناك بضعة أبيات تشيد بالخليفة عبدالمملك وردت في بعض قصائده المدحية في بني مروان<sup>251</sup>.

وفي مديحه لعبدالمملك نجده يحدد دوره في قتال أعداء السلطة ومناجزتهم، وتفانيه في حماية الدين والذود عنه، يقول<sup>252</sup>.

إِذَا لَاقَى بَنُو مَرْوَانَ سَلُّوا	لِدِينِ اللَّهِ، أَسْيَافاً غَضَابَا
صَوَارِمَ تَمْنَعُ الْإِسْلَامَ مِنْهُمْ	يُؤَكِّلُ وَقَعُهُنَّ مِنْ أَرَابَا
بِهِنَّ لَقَوْا مِمَّكَ مُلْجِدِيهَا	وَمَسْكِنَ يُخْسِنُونَ بِهَا الضُّرَابَا
فَلَمْ يَتْرُكَنَّ مِنْ أَحَدٍ يُصَلِّي	وَرَاءَ مُكَذِّبٍ إِلَّا أَنْابَا <sup>253</sup>
إِلَى الْإِسْلَامِ أَوْ لَاقَى دَمِيماً	بِهَا رُكْنَ الْمَنِيَّةِ أَوْ حِسَابَا <sup>254</sup>

<sup>251</sup> انظر ديوانه 102/1، 138، 390، 400.

<sup>252</sup> ديوانه 42/1

<sup>253</sup> أناب: رجع إلى الإسلام

<sup>254</sup> ذمياً: الموت المذموم الذي يرسل صاحبه إلى جهنم

وَعَرَدَ عَنْ بَنِيهِ الْكَسْبِ مِنْهُمْ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي غَلَقٍ شَغَابًا<sup>255</sup>

ونلاحظ في هذه المقطوعة أن الفرزدق قد انطلق في تصويره لعبدالمملك بن مروان من منظور ديني بحت، فهو كخليفة للمسلمين ينبغي عليه القيام بالمهام المفروضة عليه والمتمثلة بقتال الأعداء والمتربصين، وفي هذه الحالة لا بد أن يبدي غضبه واستنفاره من أجل الدفاع عن دين الله، وفي سبيل إبراز هذه المهمة وقيام عبدالمملك بها خير قيام، نلاحظ أن الفرزدق قد خاض في تفاصيل هذه المعركة من خلال إشارته إلى إرسال عبدالمملك واليه الحجاج إلى مكة لمحاربة عبدالله بن الزبير، وملاقاة الخليفة نفسه لمصعب بن الزبير وقتله في مسكن<sup>256</sup> على نهر دجيل، وهو بذلك يذكر نتائج المعركة مع الزبيريين التي أعادت الحق إلى نصابه، كما عاد الذين ضل بهم إلى جادة الصواب<sup>257</sup>.

وفي قصيدته البائية التي مدح بها عبدالمملك والتي مطلعها<sup>258</sup>:

تَضَاخَكْتُ أَنْ رَأْتُ شَيْبًا تَفَرَّعَنِي      كَأَنَّهَا أَبْصَرْتُ بَعْضَ الْأَعَاجِبِ

يصور الفرزدق عبدالمملك مجاهدا للأعداء، وهو يحتسب جهاده هذا عند الله، فالأرض هي لله سبحانه، وهو الذي ولاها عبدالمملك ومدته بالعون والتوفيق، يقول الفرزدق:

<sup>255</sup> عرد: فرّ وهرب، ذوي غلق: فقراء، شغابا: مشاغبة

<sup>256</sup> مسكن، موضع عند دير الجاثليق، قتل به مصعب بن الزبير في الواقعة التي كانت بينه وبين عبدالمملك سنة 72هـ

<sup>257</sup> صورة الخليفة ومفهوم النموذج، فاطمة تجور، 170

<sup>258</sup> ديوانه 43/1

يَا أَيُّهَا الزَّاكِبُ الْمَرْجِي مَطِيَّتُهُ      يُرِيدُ مَجْمَعَ حَاجَاتِ الْأَرَاكِيبِ  
 إِذَا أَتَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْ      بِالنُّصْحِ وَالْعِلْمِ قَوْلًا غَيْرَ مَكْذُوبٍ  
 أَمَا الْعِرَاقُ فَقَدْ أَعْطَنَكَ طَاعَتَهَا      وَعَادَ يَعْمُرُ مِنْهَا كُلُّ تَخْرِيْبٍ  
 أَرْضٌ رَمِيَتْ لَهَا وَهِيَ فَاسِدَةٌ      بِصَارِمٍ مِنْ سِيوفِ اللَّهِ مَشْبُوبٍ<sup>259</sup>  
 لَا يَعْمِدُ السَّيْفُ إِلَّا مَا يُجَرِّدُهُ      عَلَى قَفَا مُحْرِمٍ بِالسُّوقِ مَصْلُوبٍ

يتحدث الشاعر عن سياسة عبد الملك في العراق، حيث أعاد الخليفة إعمار هذا البلد بعد أن كان الخراب هو السمة الظاهرة فيه، كما فرض الطاعة على أهله بعد أن كانوا يتبعون الفاسدين والمشاغبيين من الخارجين على السلطة، الأمر الذي اضطر الخليفة إلى الاستنفار واليقظة الدائمة لحفظ النظام ومتابعة أمور الناس وعدم إهمالها، فأعداء الخليفة هم أعداء الله الذين يجب مقاتلتهم ومحاسبتهم دفاعاً عن دين الله.<sup>260</sup>

إِذَا الْحُرُوبُ بَدَتْ أَنْيَابُهَا خَرَجَتْ      سَاقَا شِهَابٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَضْبُوبٍ  
 فَلِأَرْضِ اللَّهِ وَلِأَهْلِهَا خَلِيفَتُهُ      وَصَاحِبُ اللَّهِ فِيهَا غَيْرُ مَغْلُوبٍ  
 بَعْدَ الْفَسَادِ الَّذِي قَدْ كَانَ قَامَ بِهِ      كَذَابٌ مَكَّةَ مِنْ مَكْرٍ وَتَخْرِيْبٍ<sup>261</sup>

<sup>259</sup> يعني الحجاج بن يوسف الثقفي

<sup>260</sup> ديوانه 45/1

<sup>261</sup> كذاب مكة: يعني عبد الله بن الزبير

رَامُوا الْخِلَافَةَ فِي غَدِرٍ فَأَخْطَأَهُمْ      مِنْهَا صُدُورٌ وَفَازُوا بِالْعَرَاقِيبِ<sup>262</sup>  
 كَانُوا كَسَالِيَّةٍ حَمَقَاءَ إِذْ حَقَنْتُ      سِلَاحَهَا فِي أَدِيمٍ غَيْرِ مَرْبُوبِ<sup>263</sup>  
 وَالنَّاسُ فِي فِتْنَةٍ عَمِيَاءَ قَدْ تَرَكْتُ      أَشْرَافَهُمْ بَيْنَ مَقْتُولٍ وَمَحْرُوبِ  
 دَعَاوُا لِيَسْتَخْلِفَ الرَّحْمَنُ خَيْرَهُمْ      وَاللَّهِ يَسْمَعُ دَعْوَةَ كُلِّ مَكْرُوبِ  
 فَانْقَضَ مِثْلَ عَتِيقِ الطَّيْرِ تَتَبَعُهُ      مَسَاعِرُ الْحَرْبِ مِنْ مُرْدٍ وَمِنْ شَيْبِ<sup>264</sup>  
 لَا يَعْزِلُ الْخَيْلَ مَشْدُوداً رَحَائِلُهَا      فِي مَنَزِلٍ بِبَهَارٍ غَيْرِ تَأْوِيبِ

ونلاحظ في هذه الأبيات كيف أن الفرزدق قد احتج لبني أمية ولعبدالمكك بالتحديد بأنه خليفة الله في أرضه، فهو يتغنى بفكرة التفويض الإلهي، ويشير إلى أن الله قد فوض الخليفة في أرضه وفي عبادته وخوله في مسألة الدفاع عن الدين، فهو المنصور على الأعداء غير المغلوب لأنه صاحب الله، وأعداؤه أعداء الدين هم المغلوبون والمهزومون بإذن الله لأنهم أرادوا الخلافة وكذبوا على الناس وضللوهم، لكن عبدالمكك سرعان ما تدخل لإعادة الحق إلى نصابه بعد أن تلقى الأمر من الله، فانقض على هؤلاء الطامعين بجيشه وتمكن منهم. وقد شبهه بالطائر القوي الذي انقض على فريسته بقوة وسرعة، ويستمر في وصف عبدالمكك فيقول<sup>265</sup>:

فَأَصْبَحَ اللَّهُ وَلِيَّ الْأَمْرِ خَيْرُهُمْ      بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَصَدْعٍ غَيْرِ مَشْعُوبِ

<sup>262</sup> العراقيب : مفردهما عرقوب وهو عصب فوق العقب

<sup>263</sup> السائلة: التي تصفي السمن وتستخرجه، أديم: جلد، مربوب، مطلي بالرُّب

<sup>264</sup> عتيق الطير: الطيور المفترسة، مساعر الحرب: الذي يشعل الحرب

<sup>265</sup> ديوانه، 47/1

تُراثَ عُثْمَانُ كانوا الأُولِيَاءَ لَهُ      سِرْبَالٌ مُلْكٍ عَلَيْهِمْ غَيْرَ مَسْلُوبٍ  
يَحْمَى إِذَا لَبَسُوا الْمَازِيَّ مُلْكُهُمْ      مِثْلُ الْقُرُومِ تَسَامَى لِلْمَصَاعِبِ<sup>266</sup>  
قَوْمٌ أَبَوْهُمْ أَبُو الْعَاصِي أَجَادَ بِهِمْ      قَرْنٌ نَجِيبٌ لِحُرَّابٍ مَنَاجِبِ  
قَوْمٌ أَثْبَيُوا عَلَى الْإِحْسَانِ إِذْ مَلَكُوا      وَمِنْ يَدِ اللَّهِ يُرْجَى كُلُّ تَنْوِيبِ

يقول مصطفى الشكعة: لقد أضفى الشعر على القوم مؤهلات الرئاسة وأسباب الزعامة، وإذا كان الشعر في خدمة الحزبية الشيعية قد أضفى على آل البيت الهاشمي صفات الإمامة والهدى، وإذا كان شعراء الشيعة ينادون بأحقيتهم في إمارة المؤمنين، فإن الشعر في ركاب بني أمية لم يقصر في ذلك المعنى بل غلا فيه وزاد عليه، فالفرزدق يمدح عبد الملك بن مروان عندما انتصر على الزبيريين، وهي المناسبة التي لم يتخلف عن القول فيها شاعر من شعرائهم فيجعل الخلافة لبني أمية حقا سماويا، فالفرزدق في أبياته هذه جعل عبد الملك خليفة الله الشرعي على الأرض، وهم ورثة عثمان، وهاجم ابن الزبير ووصفه بكذاب مكة، ووصفه بالفساد والمكر والتخريب والكذب والغدر<sup>267</sup>، ثم إذا كان الهاشميون يذهبون إلى أن الخلافة مشروعة لهم بعد علي، فإن الفرزدق يجعل الأمويين أحق سبقا بالخلافة عن عثمان<sup>268</sup>، فهو يتبنى في مديحه للأمويين بعامة النظرية الأموية للخلافة التي تقول إن عثمان قد قتل مظلوما وأن الأمويين محقون في المطالبة بدمه، وأن الخلافة حق لهم يتوارثونها منه.

<sup>266</sup> المأذي: الدروع، القروم: السادة العظام، المصاعيب، الأمور العسيرة

<sup>267</sup> أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد الحوفي، 149

<sup>268</sup> رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعة، 98

ويبدو أن الفرزدق حين فر من العراق خوفاً من زياد بن أبيه قد التجأ إلى مروان بن الحكم وابنه عبد الملك في المدينة المنورة، فمنعاه حين التجأ إليهما، يقول في إحدى مدائحه لهشام بن عبد الملك<sup>269</sup>:

إِذَا ذُكِّرْتُ نَفْسِي ابْنَ مَرْوَانَ صَاحِبِي وَمَرْوَانَ فَاصْتُ مَاءَ عَيْنِي غُرُوبُهَا

هُمَا مَتَّعَانِي إِذْ فَرَزْتُ إِلَيْهِمَا كَمَا مَتَّعْتُ أَرَايَ الْهَضَابِ لُحُوبُهَا

فهو حين يتذكر مروان وابنه عبد الملك الذي وصفه بصاحبه فإنه ييكي من المحبة والإيثار، وكأنه أقام منهما في الهضاب العالية التي تحمي ساكنيها من أن يصيبها مكروه.

وفي قصيدة أخرى يهجو فيها عبد الرحمن بن محمد بن معد يركب الكندي يقول الفرزدق في عبد الملك<sup>270</sup>:

عَلَى عُصْبَةٍ عَثْمَانُ مِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ إِمَامٌ جَلَا عَنَّا الظَّلَامَ فَأَسْفَرَا

خَلِيفَةُ مَرْوَانَ الَّذِي اخْتَارَهُ لَنَا يَعْلَمُ عَلَيْنَا مِنْ أَمَاتٍ وَأَنْشَرَا

بِهِ عَمَرَ اللَّهَ الْمَسَاجِدَ وَأَنْتَهَى عَنِ النَّاسِ شَيْطَانُ التَّفَاقِ فَأَقْصَرَا

<sup>269</sup> ديوانه 104/1

<sup>270</sup> ديوانه 400/1

وهو في هذه القصيدة يعقد مقارنة بين المهجو وجماعته وبين بني أمية الذين يمثلهم  
عثمان وعبدالمملك بن مروان الذي استخلفه والده مروان بن الحكم بعلم من الله، وهو —  
أي عبدالمملك — الذي عمر المساجد وبدد النفاق وقهر الشيطان.

صورته في شعر الراعي النميري<sup>271</sup>

ارتبط الراعي النميري بعلاقات جيدة مع خلفاء بني أمية وولاتهم، وكان يزورهم بين الحين والحين ويمدحهم بقصائده، فمدح في شعره بشر بن مروان وعبدالمملك بن مروان وابنه هشام بن عبدالمملك، كما امتدح عددا من وولاتهم<sup>272</sup>، إلا أننا لا نعثر في ديوانه إلا على قصيدتين قالهما في عبدالمملك بن مروان، هما الدالية التي مطلعها<sup>273</sup>:

بَانَ الْأَجْبُ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَهَدُوا      فَلَا تَمَالُكَ عَنْ أَرْضٍ لَهَا عَمَدُوا

وقصيدته اللامية التي مطلعها<sup>274</sup>

مَا بَالُ دَفْكَ بِالْفَرَّاشِ مَذِيلًا      أَقْذَى بِعَيْنِكَ أَمْ أَرَدْتَ رَحِيلًا

وهاتان القصيدتان قالهما الراعي في الشكوى من عمال الخليفة وسعاته الذين ضيقوا على الناس وعلى قبيلة الشاعر في جباية الصدقات منهم.

<sup>271</sup> انظر ترجمته في: ديوانه، الأغاني، 112/24، طبقات فحول الشعراء 502، الشعر والشعراء 415، خزنة الأدب

150/3

<sup>272</sup> مقدمة ديوانه، م

<sup>273</sup> ديوانه، 54

<sup>274</sup> ديوانه، 213



وعندما نطالع قصيدته الدالية، نلاحظ أن الراعي النميري قد صور عبدالمملك في إطار مقدس تحيطه المهابة والجلالة، فالله سبحانه حباه الخلافة وخصه بها واصطفاه لها دون غيره، يقول الراعي بعد مقدمة طويلة بلغت تسعة وأربعين بيتاً<sup>275</sup>:

إِنَّ الْخِلَافَةَ مَنْ رَبِّي حَبَاكَ بِهَا	لَمْ يُصِفْهَا لَكَ إِلَّا الْوَاحِدَ الصَّمَدُ
الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْهَادِي لِطَاعَتِهِ	فِي فِتْنَةِ النَّاسِ إِذَا أَهْوَاؤُهُمْ قَدَدُ
أَمْرًا رَضِيَتْ لَهُ ثُمَّ اعْتَمَدَتْ لَهُ	وَأَعْلَمَ بَأَنَّ أَمِينَ اللَّهَ مُعْتَمَدُ
وَاللَّهُ أَخْرَجَ مِنْ عَمِيَاءَ مُظْلِمَةٍ	يَحْزَمُ أَمْرِكَ وَالْأَفَاقُ تَجْتَلِدُ
فَأَضْبَحَ الْيَوْمَ فِي دَارِ مُبَارَكَةٍ	عِنْدَ الْمَلِكِ شِهَابًا ضَوْؤُهُ يَقْدُ
وَنَحْنُ كَالنَّجْمِ يَهْوِي مِنْ مَطَالِعِهِ	وَعُوطُهُ الشَّامُ مِنْ أَغْنَاقِنَا صَدَدُ
نَرْجُو سَجَالًا مِنَ الْمَعْرُوفِ تَنْفَحُهَا	لِسَائِلِكَ فَلَا مَنْ وَلَا حَسَدُ
ضَافِي الْعَطِيَّةِ رَاجِيهِ وَسَائِلُهُ	سَيِّانٍ أَفْلَحَ مَنْ يُعْطِي وَمَنْ يَعِدُ
أَنْتَ الْحَيَا وَغِيَاثُ نَسْتَعِيْثُ بِهِ	لَوْ نَسْتَطِيعُ فِدَاكَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ

وبعد أن رسم الراعي هذه الصورة لعبدالمملك التي تبين أن الله سبحانه وتعالى اعتمده أميناً له في إدارة شؤون هذه الرعية، فقد استطاع بمعونة الله وبالحزم الذي اتصف به تخليص البلاد من الظلمة التي كانت تعيشها، فاستبدلت الظلمة بالنور، ولا شك في أن عبدالمملك كما يصوره الراعي النميري هو الحياة وهو الغوث الذي يغيث الناس، ورعيته مستعدة لدفائه بأعز ما تملك من مال ومن ولد.

<sup>275</sup> ديوانه، 63

وينتقل بعد ذلك إلى إيصال صوت المظلومين من الرعية إلى الخليفة، يشكو له بعض عماله الذين تعسفوا في معاملة الرعية، وهو يقرر أن الخطأ لم يكن من الخليفة بل من عماله الذين خالفوا أوامره وتجاوزوها، فقد أمرهم الخليفة بالعدل والرفق بالرعية وعدم التعسف في التعامل مع الناس، يقول<sup>276</sup>:

أَزْرَى بِأَمْوَالِنَا قَوْمٌ أَمَرْتَهُمْ بِالْعَدْلِ فِينَا فَمَا أَبْقَوْا وَمَا قَصَدُوا  
نُعْطِي الزَّكَاةَ فَمَا يَرْضَى خَطِيئُهُمْ حَتَّى تُضَاعِفَ أَضْعَافاً لَهَا غُدُّدُ  
أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلَوْبَتُهُ وَفَقَّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُثْرِكْ لَهُ سَبْدُ  
وَاخْتَلَّ ذُو الْمَالِ وَالْمُتْرُونَ قَدْ بَقِيَتْ عَلَى التَّلَاتِلِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَقْدُ

فالشكوى تبدو في هذه الأبيات مريرة من هؤلاء العمال الذين رسم لهم الشاعر صورة بشعة تظهرهم وقد انقلبوا على أوامر الخليفة، فاعتسفوا في جباية الزكاة، وتركوا الناس لا مال لديهم، وأصبح الفقير المعدم والمثري صاحب المال سواء في الحاجة والعوز من ظلم هؤلاء العمال وتعسفهم.

أما قصيدته اللامية التي صنفها القرشي ضمن القصائد المُلحِجات فهي تدل على أن الراعي النميري كان يتألم لممارسة عمال الخليفة القائمين على تحصيل الصدقات من الرعية ومن ضمنها قبيلة الشاعر، فهؤلاء العمال أجحفوا بحق الناس وظلموهم أيما ظلم، وهو ينقل هذه الصورة إلى الخليفة عساه يردع الظالمين ويقف مع المظلومين، وهو يركز في شكواه على المعاني الإسلامية بشكل ملفت لعله يحظى بعطف الخليفة، ويرجو منه الوقوف في وجه هؤلاء الذين تعسفوا في استخدام

<sup>276</sup> ديوانه، 64

السلطة، وهو يستخدم الصورة الدينية التي يتمتع بها الخليفة ويستثيره برفق وليونة لعله ينصف المظلومين ويردع الظالمين، يقول الراعي<sup>277</sup>:

أَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً      شَكْوَى إِلَيْكَ مُطَلَّةً وَعَوِيلاً

مِنْ نَازِحٍ كَثُرَتْ إِلَيْكَ هُمُومُهُ      لَوْ يَسْتَطِيعُ إِلَى اللِّقَاءِ سَبِيلاً

يقول مخيمر صالح<sup>278</sup> في دراسته لهذه القصيدة: " أول ما يواجه الدارس المتعمق لملمحة الراعي النميري مدى صحة تصنيف القدماء والمحدثين للقصيدة على أنها في مدح عبد الملك بن مروان، والشكوى من السعاة والعاملين. أما أنها في الشكوى من السعاة والعاملين فهذا صحيح، وتفصح عنه القصيدة بوضوح وبصراحة في كثير من أبياتها، وأما أن تكون القصيدة في مدح عبد الملك بن مروان فهذا ما لا يخرج به المتعمق فيها، فالقصيدة لا يوجد فيها بيت واحد في مدحه"<sup>279</sup>، ذلك المدح الذي ألف الخلفاء سماعه من الشعراء، وأبيات المدح القليلة التي وجدت في القصيدة هي في مدح مروان بن الحكم - والد عبد الملك -، ولعل هذا هو الذي أدى بالعلماء كي يصنفوها هذا التصنيف. وحتى في هذا المدح القليل لم يكن الشاعر يمدح مروان أو عبد الملك ابنه، وإنما كان يهدف من ورائه شيئاً واحداً هو حث عبد الملك كي يكون حازماً قوياً مثلما كان أبوه حازماً في أيام الفتنة، إن الشاعر يريد أن يشير إلى

<sup>277</sup> ديوانه، 213، جبهة أشعار العرب، القرشي، 729، منتهى الطلب 10/6

<sup>278</sup> ملمحة الراعي النميري: قصيدة الرفض والاحتجاج، (مقالة)، مخيمر صالح، مجلة الدارة السعودية،

مجلد 13، عدد 1 ص 119

<sup>279</sup> في النص الإسلامي والأموي: دراسة تحليلية، محمد علي الهرقي، وآخرون، 2

أن عهد عبدالمملك يشهد فتنة لا تقل عن الفتنة التي شهدها عهد مروان، وكيف أنه استطاع بقوته وحرمة أن يخمدها.

يقول الراعي<sup>280</sup>:

وَأَبُوكَ صَارَ بِالْمَدِينَةِ وَحْدَهُ      قَوْمًا هُمُوا جَعَلُوا الْجَمِيعَ سُكُولًا  
قَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرِمًا      وَدَعَا فَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ مَحْذُولًا  
فَتَصَدَّعَتْ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ عَصَاهُمْ      شِقَاقًا وَأَصْبَحَ سَيْفُهُمْ مَسْلُولا  
حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَّتْ عَجَاجَةُ فِتْنَةٍ      عَمِيَاءَ كَانَ كِتَابُهَا مَفْعُولًا  
وَزَنَتْ أُمِّيَّةٌ أَمْرَهَا فَدَعَتْ لَهُ      مَنْ لَمْ يَكُنْ غُمرًا وَلَا مَجْهُولًا  
مَرْوَانَ أَخْزَمَهَا إِذَا نَزَلَتْ بِهِ      حُدُبُ الْأُمُورِ وَخَيْرُهَا مَسْئُولًا  
أَزْمَانَ رَفَّعَ بِالْمَدِينَةِ ذَيْلَهُ      وَلَقَدْ رَأَى زُرْعًا بِهَا وَنَخِيلًا

ويبدو أن الراعي النميري كان واعيا وعيا تاما لما يرتكبه عمال الخليفة من أخطاء، ومن أجل ذلك لجأ إلى هذا الأسلوب الذي يوحي بأنه مديح في ظاهره، ليضمنه هذه الصورة المؤلمة لأحوال الناس في ظل الخليفة، أملا أن يتدارك الخليفة الأمر لإصلاح ما أفسد العمال على الناس، وكما تقول فاطمة تجور<sup>281</sup>: ينقد الراعي السلطة نقدا رفيقا، ويمس مشاعر الخليفة مسانعة، حيث كان الراعي على وعي تام بوظيفة هذه القصيدة الملحمة، فمادة الشكوى من مادة المديح ذاتها، أي

<sup>280</sup> ديوانه، 232

<sup>281</sup> صورة الخليفة ومفهوم النموذج، فاطمة تجور 174

المنطق الديني نفسه، إذ يركز الراعي على المعاني الإسلامية، فقومه يؤدون ما عليهم من فروض دينية، فلماذا يقع عليهم ما يقع من العمال والسعاة ؟ كما أن الراعي يدغدغ الخليفة ويستثيره برفق شديد معتمدا على صورته الدينية فيخاطبه مكررا الإشارة إلى موقعه الديني بقوله أولي أمر الله، ويقول له أنت الخليفة الحليم الحكيم يقول<sup>282</sup> :

أُولِيَّ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ عَشِيرَتِي      أَمْسَى سَوَامُهُمْ عَزِيزٌ فَلَوْلَا  
أُولِيَّ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّا مَعْشَرٌ      حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا  
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ فِي أَمْوَالِنَا      حَقَّ الزَّكَاةِ مُنْزِلًا تَنْزِيلًا  
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا      مَا عَاوَنَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا  
فَادْفَعْ مَطَالِمَ عَيْلَتِ ابْنَاءِنَا      عَنَّا وَأَنْقِذْ شِلُونَا الْمَأْكُولَا  
أَنْتَ الْخَلِيفَةُ جِلْمُهُ وَفَعَالُهُ      وَإِذَا أَرَدْتَ لِي ظُلْمًا تَنْكِيْلَا  
إِنَّ السُّعَاةَ عَصَوْكَ حِينَ بَعَثْتَهُمْ      وَأَتَوْا دَوَاعِي لَوْ عَلِمْتَ وَغُولَا  
إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا      لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فَتِيلَا

وقد اعتبر شوقي ضيف هذه القصيدة بمثابة وثيقة مهمة قدمها الراعي إلى عبدالمك بن مروان<sup>283</sup>، وهو يستغيثه ويستنجد به من هولاء العمال الذين صبا على قومه سوط عذاب، ثم ينتقل الراعي إلى شرح موقفه وموقف قبيلته من بني أمية، في محاولة لدفع التهمة التي اتهمت بها قبيلته من مساندة عبدالله بن الزبير

<sup>282</sup> ديوانه، 229

<sup>283</sup> التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، 127

ومبايعته بالخلافة، ومساندة الخوارج في حروبهم التي خاضوها ضد بني أمية، ومعروف أن الأمويين كانوا ينبذون القبيلة التي كان شعراؤها أو زعمائها يقفون مع خصومهم أو يتعاطفون معهم، يقول<sup>284</sup>:

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَى يَمِينِ بَرَّةٍ      لَا أَكْذِبُ الْيَوْمَ الْخَلِيفَةَ قِيلاً  
مَا زُرْتُ آلَ أَبِي حُبَيْبٍ وَافِداً      يَوْمًا أَرِيدُ لِيُبْعَتِي تَبْدِيلاً  
وَلَا أَتَيْتُ نُجَيْدَةَ بْنَ عَوْمِرٍ      أَبْغِي الْهُدَى فَيَزِيدَنِي تَضْلِيلاً  
فَأَبُوكَ سَيِّدُهَا وَأَنْتَ أَمِيرُهَا      وَأَشَدُّهَا عِنْدَ الْعَزَائِمِ جُولا  
إِنَّ السُّعَاةَ عَصَوْكَ حِينَ بَعَثْتَهُمْ      وَأَتَوْ دَوَاعِيَ لَوْ عَلِمْتَ وَغُولا

ففي معركة مرج راهط وقفت قبيلة الراعي النميري إلى جانب قبيلة قيس عيلان في مواجهة الأمويين، ولذلك صُنِّفَ الراعي النميري زبيري الهوى، ولذلك عرض الراعي هذه القضية وحلف يمينه تلك ليثبت للخليفة أنه لم يكن في يوم من الأيام تابعا أو مؤيدا لهذه الأحزاب المناهضة لبني أمية.

وقد درس علي ناصف هذه القصيدة على اعتبار أنها من القصص التي وردت في الشعر العربي القديم، مستدلا على ذلك بالأبيات التي تتحدث عن أخذ السعاة لقيم قبيلة الراعي وكيفية تعاملهم معه، وما رافق ذلك من تصرفات قام بها هؤلاء العمال<sup>285</sup>.

<sup>284</sup> ديوانه 233

<sup>285</sup> انظر القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري، علي النجدي ناصف، 211

صورته في شعر كثير عزة<sup>286</sup>

كان كثير عزة شاعر الكيسانية، وهي فرقة من الفرق الشيعية، تعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة للإمام علي ولولديه الحسن والحسين، ثم لأخيهما محمد ابن الحنفية، وأهم عقائدها الرجعة والبداء والمهدي<sup>287</sup>، وكان من زعمائها المختار بن أبي عبيد الثقفي<sup>288</sup>.

وعبر كثير عزة في شعره عن بعض آرائها في الإمامة والخلافة ووقف إلى جانب إمامها داعيا إلى مناصرته ومهاجيا لخصومه الذين ينافسونه على اغتصاب حقه الشرعي في الخلافة، وكان ذا مكانة أثرية عنده<sup>289</sup>.

ولكن كثيرا انقلب مرة واحدة من شاعر شيعي يعتقد بأن الإمامة والخلافة حق شرعي لعلي وأبنائه، ومن شاعر كيساني إلى شاعر خليفة بني مروان عبد الملك،

---

<sup>286</sup> انظر ترجمته في: ديوانه، الأغاني 5/9، طبقات فحول الشعراء 540، الشعر والشعراء 503، خزنة الأدب 221/5  
<sup>287</sup> "الرجعة: وتعني أن الله تعالى يعيد الأموات على صورهم التي كانوا عليها وذلك عند قيام المهدي، فيعز فريقا ويدل فريقا، ويبدل المحقين من المبطلين ثم يصيرون بعد ذلك إلى الموت، ومن بعده إلى النشور في يوم القيامة"  
"البداء: هو أن الله تعالى قد يشرع حكما أو يقضي أمرا ثم يبدو له فيرفع ذلك الحكم أو الأمر ويجعل مكانه حكما أو أمرا آخر، لانتفاء الأسباب الموجبة لاستمرار هذا الحكم أو الأمر"  
"المهدي: كانت الكيسانية تعتقد أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر، وأنه حي لم يمِت بل متغيب في جبل رضوى، وسوف يخرج عندما تمتليء الأرض بالجور والفساد ليملاها بالعدل والصلاح"، انظر كثير عزة حياته وشعره 106

<sup>288</sup> لمزيد من التفصيل، انظر الملل والنحل، الشهرستاني 122/1، مختصر الفرق بين الفرق، 35

<sup>289</sup> كثير عزة حياته وشعره، أحمد الربيعي 112

ويرى أن استقرار الخلافة في بني أمية وبني مروان ما هي إلا كعودة الحق إلى نصابه، ويجعل استقلالهم بها وانتصارهم على جميع خصومهم تأييدا وتسديدا من الله<sup>290</sup>.

ويتساءل أحمد الحوفي في معرض حديثه عن كثير الذي اشتهر بالغزل، وكان يمدح بني أمية وهو على مذهبه الشيعي الكيساني يناصر محمد بن الحنفية ويدين بالرجعة، فكيف جمع ولاءه للخصمين ؟

ويجب الحوفي على تساؤله بقوله: أما إخلاصه لمذهبه الشيعي فلا جدال فيه، لأن الشيعة كانوا يثقون بولائه لهم، ويظهر أن محمد بن الحنفية أراد أن يستوثق من إخلاصه فقال له: تزعم أنك من شيعتنا وقدح آل مروان، فقال إنما أسخر منهم فأجعلهم حيات وعقارب وأخذ أموالهم. ويرى أن مدحه لبني أمية وبني مروان كان نفاقا وخدعة ورغبة في عطائهم، ولم يكونوا يجهلون ذلك وإنما كانوا يحتملونه منه لأنه كان بارعا في مدحهم، جليلا في أعينهم، لطيف المداخل إلى نفوسهم، ثم إنه كان يشيد بقريش وببني هاشم وبني أمية ويتجافى عن الزبيرين ويهجوهم ويعرض بهم، فيرضي الشيعة ويرضي بني أمية، وهو بتشيعه لا يغضب الأمويين لأنه يمدحهم وينال عطاءهم ولا يشهر بهم كما يفعل غيره من شعراء الشيعة، وهو بمدحه للأمويين لا يغضب الشيعة لأنهم واثقون من حبه لهم ومطمئنون إلى أنه على مذهبهم وإنما يمدح بني أمية تقية وجريا وراء الكسب، وزعماء الشيعة أنفسهم كانوا يصانعون بني أمية إذا وجدوا أن المصانعة أولى وأجدى<sup>291</sup>.

<sup>290</sup> كثير عزة حياته وشعره، أحمد الربيعي 113

<sup>291</sup> أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد الحوفي، 215



ويندرج هذا المسلك الذي سلكه كثير عزة في إطار نظرية التقية التي تعطي الشيعي الحق في إخفاء عقيدته وكتمانها حتى لا يعرض نفسه للخطر، إذ لا مانع يمنعه من مصانعة خصومهم ومدحهم على الرغم من إسراره العداوة والبغضاء لهم، وهو لا يعد مع ذلك منافقا أو ضعيف الاعتقاد، وهكذا كانت التقية نظرية استخدمها الشيعة بصفة بارزة وطبعت روحهم بطابع خاص، وارتبطت هذه النظرية ارتباطا وثيقا بالضرورة الحتمية التي تنجم عما يبذله الشيعة من جهود سرية وقد جعلوها مبدأ من مبادئهم الأساسية، وعدوها واجبا ضروريا على كل شيعي أن يراعه من أجل الصالح المشترك لهم جميعا<sup>292</sup>.

وما يهمنا هنا الصورة التي رسمها كثير لعبدالمملك بن مروان من خلال مدائحه فيه، ففي قصيدته الهائية التي مطلعها<sup>293</sup>:

خَلِيلِيْ إِنْ أُمُّ الْحَكِيمِ تَحَمَّلَتْ وَأَخْلَتْ لِيَحْيِيَّاتِ الْعُدْبِ ظِلَالُهَا

يذكر كثير بعد المقدمة التي بلغت ثلاثة وعشرين بيتا في الشكوى من حب عزة، وذكر ناقته التي أجدها التعب من هذه الرحلة المضنية حتى وصلت إلى بردى وسفوح مرج راهط وتلال تُبنى حيث يحل عبدالمملك بن مروان<sup>294</sup>:

<sup>292</sup> الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، النعمان القاضي 377

<sup>293</sup> ديوانه 75، منتهى الطلب، ابن ميمون 4 / 88

<sup>294</sup> ديوانه 78، بردى أعظم أنهر دمشق، تبنى بلدة بحوران من أعمال دمشق

وَأَتَىٰ بَنِي دَوْرَانَ تَلْقَىٰ بِكَ النَّوَىٰ عَلَىٰ بَرْدَىٰ تَطْعَانَهَا فَاحْتِمَاهَا

أَصَارِمَ حَلَّتْ مِنْهُمْ سَفْحَ رَاهِطٍ فَأَكْنَفَ تُبْنَىٰ مَرْجَهَا فَتِلَاهَا<sup>295</sup>

وبعد أن فرغ من وصف قصور بني أمية وما فيها من نعيم، انتقل إلى الخليفة عبد الملك ابن مروان وتحدث عن دوره في إعادة الأمور إلى نصابها، وبين أن بني أمية يحيونه ويحفظون له جميل صنعه لأنه بمعونة الله استطاع أن يرد لعبد شمس عزها وسيادتها، فهو الذي اصطفاه الله لهذه المهمة، ويسترسل في رسم معالم صورة عبد الملك فيقول<sup>296</sup>

يُحْيُونَ بُهْلَوْلًا بِهِ رَدَّ رَبُّهُ إِلَىٰ عَبْدٍ شَمْسٍ عَزَّهَا وَجَمَّالَهَا<sup>297</sup>

مَسَائِحُ فُودِي رَأْسِهِ مَسْبُغَةٌ جَرَىٰ مِسْكُ دَارِينَ الْأَحْمُ خَلَّالَهَا<sup>298</sup>

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخَلَاقَةِ بَعْدَ مَا أَرَادَ رِجَالُ آخَرُونَ اغْتِيَالَهَا

فَمَا تَرَكوها عَنُوَّةً عَنِ مَوَدَّةٍ وَلَكِنْ بَحَدَّ الْمَشْرِفِي اسْتَقَالَهَا

هُوَ الْمَرْءُ يَجْزِي بِالْمَوَدَّةِ أَهْلَهَا وَيَحْذُو بِنَعْلِ الْمُسْتَتِيبِ قِبَالَهَا<sup>299</sup>

<sup>295</sup> أصاريم: الجماعة أو الفرقة من الناس

<sup>296</sup> ديوانه 80

<sup>297</sup> بهلولا: سيدي

<sup>298</sup> مسائح: الشعر، الفودان: جانبا الرأس، مسبغلة: مسترسلة، الأحم: الأسود

<sup>299</sup> يحذوا بنعل المستتيب قبالتها: يتمم عطاءه ولا ينقصه

بَلَوُهُ فَأَعْطُوهُ الْمَقَادَةَ بَعْدَمَا      أَدَبَ الْبِلَادَ سَهْلَهَا وَجِبَالَهَا<sup>300</sup>

لقد تمكن عبد الملك من الفوز على أعدائه الذين حاولوا انتزاع الخلافة منه، واستطاع بمعونة الله الانتصار عليهم والفوز بالخلافة التي انتزعها منهم بحد السيف بعد أن كادت أيديهم تتخطفها، وبذلك نلاحظ أن أهم ما في مديحه الإشارة إلى حق بني مروان الإلهي في الخلافة ( به رد ربه إلى عبد شمس عزها وجمالها)<sup>301</sup>، وعبد الملك يكافئ من يستحق المودة بمثلها، فهو وفي كريم معطاء يتمم عطاءه ولا ينقص منه شيئاً، لقد نشر الأمن والعدل في البلاد ومن أجل ذلك استحق أن يقود هذه الأمة. ويؤكد على الصفات التي كان عبد الملك يتصف بها والمتمثلة بالحزم والقوة، وقد استطاع بسبب تحليه بهذه الصفات أن يدرك من المعالي والمجد ما لم يبلغه أحد غيره من الخلفاء، يقول<sup>302</sup>:

وَكُنْتُ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا مُلِمَّةٌ      تَبَلَّتْ لَهَا أبا الْوَلِيدِ نِبَالَهَا  
سَمَوْتُ وَأَدْرَكْتُ الْعِلَاءَ وَإِنَّمَا      يُلْقَى عُيَاةِ الْعُلَامِ مِنْ سَمَا لَهَا  
وَصُلْتُ فَنَالَتْ كَفْلَكَ الْمَجْدَ كُلَّهُ      وَلَمْ تَبْلُغِ الْإِيْدِي السَّوَامِي مَصَالَهَا<sup>303</sup>

كما كان من أسباب فوزه بالخلافة وانتصاره على المناوئين له الشجاعة الكبيرة التي يتحلى بها، كما أن قيادته للجيش بنفسه وإشرافه على المعارك التي يخوضها جيشه، وتعبئة للكثائب التي كان يبعثها لمحاربة أعدائه، كل هذه الأعمال

<sup>300</sup> بلوه: اختبروه، أدب البلاد: ملأها عدلا

<sup>301</sup> كثير عزة حياته وشعره، أحمد الربيعي، 164

<sup>302</sup> (ديوانه 84)

<sup>303</sup> السوامي: المرتفعة الممتدة للوصول، المصال: مصدر صال يصل، وتعني السطوة

هي التي أدت إلى هزيمة أعدائه واستسلامهم له، إنه رجل حروب محنك الرأي تسربل بدرع  
سابعة قد حبك المسدي ونسج حلقاتها حبكا فكانت لجودة حبكها ومضاعفة نسجها ينوء  
غيره بلبسها<sup>304</sup>، يقول في وصف صورة البطل الظافر عبد الملك الرائعة وهو متسربل بالحديد<sup>305</sup>:

عَلَى ابْنِ أَبِي الْعَاصِي دِلَاصٌ حَصِينَةٌ      أَجَادَ الْمُسَدِّي سَرَدَهَا وَأَذَالَهَا  
يَوْوُدُ صَعِيفَ الْقَوْمِ حَمْلٌ قَتَرِهَا      وَيَسْتَضِلُّ الطَّرْفُ الْأَشْمُ احْتِمَالَهَا  
ويستطرد في عرض صورة الحروب التي كان عبد الملك يخوضها وهو على رأس جيوشه،  
ليدل على الشجاعة الكبيرة والقيادة الحكيمة التي كان هذا الخليفة يتمتع بها، يقول<sup>306</sup>:

إِذَا قِيلَ خَيْلَ اللَّهِ يَوْمًا أَلَا ارْكَبِي      رَضِيتُ بِكَفِّ الْأُرْدُنِيِّ أَنْسَحَالَهَا<sup>307</sup>  
إِذَا عَرَضْتُ شُهَبَاءَ خَطَارَةِ الْقَنَا      تُرِيكَ السِّيَوفَ هَزَّهَا وَاسْتَلَالَهَا<sup>308</sup>  
رَمِيتُ بِأَبْنَاءِ الْعَقِيمِيَّةِ الْوَعَى      يَوْمُونَ مَشْيَ الْمُسْبَلَاتِ ظِلَالَهَا<sup>309</sup>

<sup>304</sup> كثير عزة حياته وشعره، 165

<sup>305</sup> ديوانه 85

<sup>306</sup> ديوان 83

<sup>307</sup> الأردني: حسان بن مالك بن بحدل والد ميسون أم يزيد، كان واليا على الأردن

<sup>308</sup> الشهباء: من صفات الكتيبة، القنا: الرماح

<sup>309</sup> العقيمة: تصغير للتعظيم، والعقمي: الرجل الكريم الشريف، المسبلات: اللبؤات العاطفات على أولادهن،  
ظلالها: ظلال الوعى

كأنهم آسادٌ حليّةٌ أَصْبَحَتْ      خَوادِرَ تَحْمِي الخَيْلِ مِمَّنْ دَنَا لَهَا<sup>310</sup>  
 إِذَا أَخَذُوا أَذْرَاعَهُمْ فَتَسَرَّبَلُوا      مَقْلَصَ مَسْرُودَاتِهَا وَمُذَالَهَا<sup>311</sup>  
 رَأَيْتَ الْمَنَابِيَا شَارِعَاتٍ فَلَا تَكُنْ      لَهَا سَنَنًا نَضْبًا وَخَلَّ مَجَالِهَا<sup>312</sup>  
 وَحَرْبٍ إِذَا الْأَعْدَاءُ أَنْشَتْ حِيَاضَهَا      وَقَلَّبَ أُمْرَاسُ السَّوَانِي مَحَالَهَا<sup>313</sup>  
 وَرَدَّتْ عَلَى فُرَاطِهِمْ قَدَهْمَتَهُمْ      بِأَخْطَارِ مَوْتٍ يَلْتَهِمَنَّ سَجَالَهَا<sup>314</sup>  
 وَقَارِيَةِ أَحْوَاضٍ مَجْدِكَ دَوْنَهَا      ذِيَادًا يُبَيِّلُ الْحَاضِنَاتِ سَخَالَهَا<sup>315</sup>  
 وَشَهْبَاءَ تَرْدِي بالسَّلْوَقيِّ فَوْقَهَا      سَنَا بَارِقَاتٍ تَكْرَهُ الْعَيْنُ خَالَهَا<sup>316</sup>  
 قَصَدَتْ لَهَا حَتَّى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا      صَرُبَتْ بِبُصْرِي الصَّفِيحِ قَدَالَهَا<sup>317</sup>

وهو هنا يتحدث عن انتصار جيوشه التي قاتل الأعداء بها، ويذكر بالتحديد (الأردني) ويعني به حسان بن مالك بن بحدل والي الأردن لوالده مروان والذي تمكن من الانتصار على الزبيريين وقتل الضحاك بن قيس الفهري في معركة مرج راهط، فخيّل عبد الملك التي كان يقاتل بها أعداءه هي خيل الله، وهو ينسب انتصاراته وأعماله وخلافته إلى الله، وهذا ما كان الخلفاء الأمويون يحبون أن

<sup>310</sup> حليّة: أجمة باليمن وهي مأسدة، خوادِر: أسود تقيم في خدورها

<sup>311</sup> تسربلوا: لبسوا، المسرودة: الدرع المنسوجة، المقلص: القصر، المذال: الطويل

<sup>312</sup> شارعات: رافعات أعناقها مقيلات، السنن: الاستنان، النصب: المنصب

<sup>313</sup> الأمراس: الحبال، السواني: جمع سانية وهي الدلاء، المحال: البكرات

<sup>314</sup> الفراط: أول الواردين على الحوض، السجال: الدلاء

<sup>315</sup> القارية: حد الرمح والسيف، يبيل: يجعلها تقذف، السخال: الأولاد المحبوبون إلى ذويهم

<sup>316</sup> تردى: تمشي، السلوقي: دروع منسوبة إلى سلوك اليمنية، البارقات: السيوف، الخال: البرق

<sup>317</sup> بصري الصفيح: سيوف مصنوعة في بصرى

يمدحوا به من صفات، وبعد وصفه للمعارك والحروب التي كان عبد الملك يقودها، وهذا الوصف لجيوشه وجنوده الذين استطاع بشجاعتهم وهمتهم العالية أن يكسب الحروب والمعارك، ينتقل ليرسم صورة لمزاياه التي فاق بها كافة الناس، فما من فضيلة وصف بها إنسان إلا كان عبد الملك يتحلى بأحسن منها<sup>318</sup>، يقول:

فَأُقْسِمُ مَا مِنْ حُلَّةٍ قَدْ حَرَّثَهَا      مِنْ النَّاسِ إِلَّا قَدْ فَضَّلْتَ خِلَالَهَا

وَمَا ظَنُّهُ فِي جَنِّكَ الْيَوْمَ مِنْهُمْ      أَرَأَيْتَ بِهَا إِلَّا اضْطَلَعْتَ احْتِمَالَهَا<sup>319</sup>

وينتقل بعد ذلك ليذكر بني مروان بما فعله مروان بن الحكم والد عبد الملك من أجل الحفاظ على الخلافة، ويطلب من قومه بني عبد شمس عدم جحد نعمه التي أسداها عليهم، فهو الذي استطاع أن يتدارك الخلافة قبل أن يتخطفها غيره منهم، واستطاع أن يقضي على الفتن ويحفظ الخلافة لبني مروان<sup>320</sup>، لذلك يجب على قومه أن يقفوا بجانبه، وألا ينفسوا عليه الخلافة ويدعوهم إلى الاعتراف له بذلك وتأييده والالتفاف حوله، يقول<sup>321</sup>:

فَلَا تَكْفُرُوا مَرْوَانَ آلَاءَ أَهْلِهِ      بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ وَأَشْكُرُوهُ فَعَالَهَا

أَبْوَكُمْ تَلَاقَى قُبَّةَ الْمَلِكِ بَعْدَمَا      هَوَى سَمْكُهَا وَغَيَّرَ النَّاسُ حَالَهَا

إِذَا النَّاسُ سَامَوْهَا حَيَاءً زَهِيدَةً      هِيَ الْقَتْلُ، وَالْقَتْلُ الَّذِي لَا شَوْى لَهَا

<sup>318</sup> ديوانه، 87

<sup>319</sup> ظنة: تهمة، أزن: أتهم بها، اضطلع: أطاق

<sup>320</sup> كثير عزة حياته وشعره، أحمد الربيعي، 168

<sup>321</sup> ديوانه، 87

أَبَى اللّٰهُ لِلشُّمِّ الْأَلَاءِ كَأَنَّهُمْ      سُيُوفٌ أَجَادَ الْقَيْنُ يَوْمًا صَقَالَهَا  
فَلِّلِهِ غَيْنًا مَّنْ رَأَى مِنْ عِصَابَةٍ      تُنَاضِلُ عَنْ أَحْسَابٍ قَوْمٍ نِضَالَهَا  
وفي ختام القصيدة نلاحظ أن كثير عزة يدل على عبد الملك، فقد زعم أن عبد الملك هو  
الذي تحيل عليه بلطفه ليكسب وده، وأن الخليفة هو الذي يتودد إليه يقول <sup>322</sup>:

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي      عَزَا كَامِنَاتِ النَّصْحِ مَنِّي فَنَالَهَا  
وَإِنِّي مُدِلٌّ أَدْعِي أَنَّ صُحْبَةً      وَأَسْبَابَ عَهْدٍ لَمْ أَقْطَعْ وَصَالَهَا

وقد عد ابن طباطبا هذا القول من الأقوال التي زادت قريحة قائلها على  
عقولهم <sup>323</sup>، وطلب منه أن يميزه عن العصبة الضالة التي تبرأ منها لما رأى ضلالها يقول <sup>324</sup>:

فَلَا تَجْعَلَنِي فِي الْأُمُورِ كَعُصْبَةٍ      تَبَرَّأْتُ مِنْهَا إِذْ رَأَيْتُ ضَلَالَهَا  
عَدُوًّا، وَلَا أُخْرَى صَدِيقٍ، وَنُصْحُهَا      ضَعِيفٌ، وَبَتُّ الْحَقِّ لَهَا بَدَأُ لَهَا  
تَبَلَّجَ لَهَا جُنْتُ وَاخْضَرَّ عَوْدُهُ      وَبَلَّ وَسِيلَاتِي إِلَيْهِ بِلَالَهَا

<sup>322</sup> ديوانه، 87، منتهى الطلب 99/4

<sup>323</sup> عيار الشعر، ابن طباطبا، 95

<sup>324</sup> ديوانه، 88

وهو يأمل أن يتم تمييزه عن تلك العصبة الضالة، بعد أن تبين له ضلالها وابتعادها عن الحق، فيا ترى من هذه العصبة الضالة التي تبرأ كثير منها، لقد كان ولاء كثير لمحمد بن الحنفية، وكان هو إمامه الذي يأتمر بأوامره، فهل هذا القول يعني أنه تبرأ من تبعيته له، أم أنه بقي على ولائه لشيعته، ومع ذلك فقد رأى أن عبد الملك استحق الخلافة بعدما ملأ الأرض بالعدل والخير<sup>325</sup>:

بَلَّوْهُ فَأَعْطُوهُ الْمَقَادَّةَ بَعْدَمَا أَدَّبَ الْبِلَادَ سَهْلَهَا وَجِبَالَهَا

فهل اتبع كثير مبدأ التقية جريا وراء الكسب المادي وتخلصا من تعقب بني أمية لشعراء الفرق الأخرى؟ يرى محقق ديوانه أنه بعد مبايعة محمد بن الحنفية لعبد الملك لم يعد لدى كثير صعوبة من التردد على الأمويين ومدحهم بالقصائد الجياد مخلصا دون نفاق أو تقية، خصوصا أنهم - أي الأمويون - يكونون له التقدير ويحلونه من أنفسهم محلا لطيفا، ويضيف أستاذنا المرحوم إحسان عباس: إننا إن صدقنا ذلك عنه على حاله، نطعن في قدرة رجل مثل عبد الملك أو عبدالعزيز - وهما من هما - على تمييز الصالح من الطالح من الرجال<sup>326</sup>.

ونحن نلاحظ من خلال قراءتنا لهذه القصيدة أن كثير عزة لم يترك صفة من صفات عبد الملك تقريبا إلا ذكرها ونوه بها، ولونها بكل ما أراد أن يتحلى به هذا الخليفة من صفات السيادة والإمارة والخلافة، ومن بهاء وحزم وشجاعة، ومما توارثه من أمجاد أسرته العريقة في كل ذلك، ومن حق شرعي في الخلافة، ومما حباه

<sup>325</sup> ديوانه، 80

<sup>326</sup> ديوانه، 32



الله من توفيق وسداد ورضا المسلمين، ثم عرض صورة لكتائبه وإقدامه وانتصاره في الحروب، وهو يبغي من كل هذا العرض والتفصيل لفضائله التي رفعه بها على كافة الناس إقرار وإثبات أمر لا يخفى على الفطن استنتاجه، وهو إذا كان عبدالمملك قد رقي بفضائله وصفاته الناس جميعا فهو أحق الناس جميعا بخلافتهم<sup>327</sup>.

ويبدو أن عبدالمملك قد امتنع من بيتي كُتِرَ اللّٰذِينَ يقول فيهما<sup>328</sup>.

على ابنِ أبي العاصي دلاصُ حصينهُ      أجادُ المُسدّي سَرَدَها وأذالها  
يؤودُ ضعيفَ القومِ حمْلُ قَتِيرِها      وَيَسْتَضِلُّ الطرفُ الأشمُ احتمالها

فقال له<sup>329</sup>: " وصفتني بالجن ! هلا قلت كما قال الأعشى في قيس بن معد يكرب<sup>330</sup>

وإذا تَجِيءُ كَنِيبةٌ مَلَمومَةٌ      شهباءُ يَخْشَى الدَّائِدُونَ نبأها  
كُنْتُ المَقْدَمَ غَيْرَ لابسِ جُنَّةٍ      بالسيفِ تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبْطالها<sup>331</sup>

<sup>327</sup> كثر عزة حياته وشعره، أحمد الربيعي، 166

<sup>328</sup> ديوانه، 85

<sup>329</sup> طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الحمحي 542/2، التراث النقدي نصوص ودراسات، رجاء عيد، 397

<sup>330</sup> الموشح، 179، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، أحمد اسعد علي، 238

<sup>331</sup> ديوان الأعشى، 147

فقد بالغ كثير بوصف عبدالمملك بالاستعداد وأخذ الحيلة والحذر، فألبسه دروعا ملساء براقة أجاد صانعها صنعها، وأدخل حلقاتها في بعضها وأطال ذيلها لتحمي لابسها وتقيه ضرب السيوف وطعن الرماح.

وهذا الإسراف الشديد من كثير في وصف الدروع ولباس الحرب، والتأكيد على إجاده صنعها وما توفره للابسها من الحماية أشبه بتأكيد الخوف والجبن، وذلك لا يتناسب مع الوصف بالشجاعة<sup>332</sup>.

أما الأعشى فقد ذكر إقدام ممدوحه وخروجه إلى عدوه غير مبال ولا هياب، يخوض المعركة بلا جنة تقيه ضرب السيوف، ولا درع يحميه من الطعان، وذلك بسبب شجاعته المفرطة، فالخوف لا يعرف طريقه إلى قلبه، وكانت هذه الصورة هي التي أحب عبدالمملك بن مروان أن يرسمها له كثير في مديحه له، وأن يبالغ في وصفه بالشجاعة والإقدام، لا أن يُمَثِّرَ خلف الدروع كما يتمترس الجبناء.

وحول هذه الصورة يقول المرزباني مؤيدا عبدالمملك بن مروان في ذلك " رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثير، لأن المبالغة عندهم أحسن من الاقتصار على القول الوسط، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة، حتى جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جُنَّة، على أنه وإن كان لبس الجُنَّة أولى بالحزم وأحق بالصواب، ففي وصف الأعشى دليل على شدة شجاعة صاحبه، لأن الصواب له، ولا لغيره إلا لبس الجنة، وقول كثير يقصر عن الوصف<sup>333</sup>.

<sup>332</sup> التراث النقدي نصوص ودراسات، رجاء عيد، ص 440

<sup>333</sup> الموشح، المرزباني، 179

وكذلك كان موقف قدامة بن جعفر مؤيدا لموقف عبد الملك حيث يقول: " والذي عندي في ذلك أن عبد الملك أصح نظرا من كثير...لأنه قد تقدم من قولنا: أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر بما فيه كفاية، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة "334.

إلا أن كثيرا قد دافع عن موقفه هذا فقال لعبد الملك: " يا أمير المؤمنين، وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق، ووصفتك بالحزم والعزم "335.

ويلح كثير على المعاني والأفكار التي ترددت في القصيدة السابقة في معظم مدائحه لعبد الملك، فهو يرسم المزايا والخصائص التي أهلته ورشحته لتولي الخلافة، وتشهد له بأهليته وأحقية في قيادة هذه الأمة، يقول بعد حديثه عن رحلته وعن الراحلة التي حملته<sup>336</sup>:

إلى ابن أبي العاصي بدوة أزلتُ      وبالسُّفح من ذات الرُّبى فوق مُطْعِنِ  
إلى خيرِ أحياءِ البريةِ كُلِّها      لذي رَحِمٍ أو خُلَّةٍ مُتَأَسِّنِ  
له عهدٌ ودٍ لم يَكدَرِ يَزيئُهُ      ردى قولٍ معروفٍ حديثٍ ومُزْمِنِ  
وليس امرؤٌ من لم يَنَلْ ذاكَ كامِريَّ      بدا نُصْحُهُ فاستَوْجِبَ الرُّقْدَ مُحْسِنِ

<sup>334</sup> نقد الشعر قدامة بن جعفر، ص 100

<sup>335</sup> الموشح 231، طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، 542/2

<sup>336</sup> ديوانه، 249

هذه الراحلة حطت به عند ابن أبي العاصي، عند خير أحياء البرية كلها، فهو واصل للرحم، يحفظ عهد وده ويزينه بزيادة في قول معروف حديث وقديم، ويخاطب عبدالمك قاتلاً له: أنت كريم حليم من بيت مجد وعز، وقد علمت بنو أمية أنكم ملاذ لمن يطلب الحماية، وأنت ذو فضل لأنك لا تجافي الحق أبداً، ولا تصدر منك إلا الكلمة الصائبة الطيبة، في حين يصدر عن غيرك عكس ذلك:

وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ بَيْتَيْ أَمَانَةٍ    بَعْلِيَاءِ مَجْدٍ قُدِّمْتَ لَكَ فَاثْتَن  
مَصَانِعَ عِزٍّ لَيْسَ بِالْثَرْبِ شُرُفَتْ    وَلَكِنْ بِصُومِ السَّمْهَرِيِّ الْمُعَرَّنِ  
وَلَقَدْ عَلِمْتَ قَدِمًا أَمِيَّةً أَنْكُمْ    مِنْ الْحَيِّ مَأْوَى الْخَائِفِ الْمُتَحَصِّنِ  
وَإِنْ تَقْصِرِ الدَّعْوَى إِلَى الرَّهْطِ قَصْرَةً    فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْحَقِّ بَيِّنِ  
بِحَقِّكَ إِنْ تَنْطِقْ تَقْلَ غَيْرَ مُهْجِرٍ    صَوَابًا، وَإِنْ يَخْفُفُ حَصَى الْقَوْمِ تَرْزُنُ<sup>337</sup>

وينتقل بعد ذلك ليرسم لقومه صورة بهية جميلة فهم سادة أشراف، فضلهم معروف، وهم يحفظون أحسابهم في كل الأحوال، يصبرون على ما يصدر من قومهم برفق وحنان، وهم لينون حليمون حين يستدعي الموقف اللين والحلم، كما أنهم يتصفون بالمرح والنعمة والخيلاء، وذكر سُبُوغُ أَرْزِهِمْ وأنهم يطؤونها بنعالهم الحضرية الملسنة هوانا بها، ويدعو لعبدالمك ولكل بني مروان بخلود الملك والمجد لئلا يفقد الخير والندى الذي يفيض من أيديهم عليه :

بِهَالِيلٍ مَعْرُوفٍ لَكُمْ أَنْ تَفْضَلُوا    وَأَنْ تَحْفَظُوا الْأَحْسَابَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ

<sup>337</sup> ديوانه، 251

بصبرٍ وإبقاءٍ على جُلِّ قَوْمِكُمْ  
ولينٍ لهم حتى كأنَّ صُدُورَهُمْ  
وَأَنْتَ فَلَا تُفَقِّدُ وَلَا زَالَ مِنْكُمْ  
أَشْمُ مِنَ الْغَادِينَ فِي كُلِّ حُلَّةٍ  
لَهُمْ أَزْرُ حُمْرِ الْحَوَاشِي يَطَوُّنَهَا  
وفي قصيدته اللامية التي مطلعها<sup>338</sup>:

صَحَا قَلْبُهُ يَا عَزَّ أَوْ كَادَ يَذْهَلُ وَأُضْحَى يُرِيدُ الصَّرَمَ أَوْ يَتَبَدَّلُ

فبعد فراغه من المقدمة الغزلية ووصف رحلته إلى الممدوح ووصف الإبل التي ارتحلوا عليها، ينتقل كثير إلى رسم صورة عبد الملك بن مروان فيقول<sup>339</sup>:

يَزُرُّنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعُنْدَهُ  
لَهُ شَيْمَتَانِ مِنْهُمَا أَنْسِيَّةٌ  
فَرَاغَهُمَا مِنْهُ فَإِنَّهُمَا لَهُ  
وَأَنْتَ الْمُعَلَّى يَوْمَ لُقْتُ قِدَاحَهُمْ  
وَمِثْلِكَ مِنْ طُلَاحِيهَا خَلَصْتُ لَهُ  
نَهَيْتَ الْأَلَى رَامُوا الْخَلَافَةَ مِنْهُمْ  
لِذِي الْمَدْحِ شُكْرٌ وَالصَّنِيعَةِ مَحْمِلُ  
وَوَحْشِيَّةٌ إِغْرَافُهَا النَّهْيُ مُعْجَلُ  
وَإِنَّهُمَا مِنْهُ نَجَاهٌ وَمَحْفِلُ  
وَجَالِ الْمَنِحِ وَسَطُهَا يَتَقَلَّقُلُ  
وَقَارِكِ مَرَضِي وَرَبْعِكَ جَحْفَلُ  
بِضْرِبِ الطَّلَى وَالطَّعْنِ حَتَّى تَتَكَلَّلُوا

<sup>338</sup> ديوانه، 254

<sup>339</sup> ديوانه، 256

لقد قصدت هذه الرواحل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي يقدر مادحيه حق قدرهم، وهو يتصف بصفتين واحدة إنسية تؤنس، والثانية وحشية يستوحش منها، وهذا يحتم عليك أن تتنبه لهاتين الصفتين لتكون آمنا. وقد أبرز كثير المعاني التي كان هوى بني أمية يوافقها، فحين عدد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أسقط منهم خلافة علي والحسن حيث جعل عبد الملك سابع الخلفاء. وقد سأل رجل من بني عبس جماعة وفيها الطرماع فقال: ماذا عنى كثير بقوله لعبد الملك بن مروان: " فَأَنْتَ الْمَعْلَى يَوْمَ عُدَّتْ قِدَاحُهُمْ وَجَاءَ الْمَنْبِجُ وَسَطَهَا يَتَقَلَّقُلْ " فقالوا: أراد أنه أعلاهم حظا كالمعلّى في القداح، فقال الطرماع لا، ولكنه أراد أنه السابع من الخلفاء الذين كان كثير لا يقول بإمامتهم، لأنه أخرج عليا عليه السلام منهم، فإذا أخرجه منهم كان عبد الملك السابع، وكذلك المعلّى السابع من القداح<sup>340</sup>.

وفي قصيدة أخرى من قصائده المدحية يقول<sup>341</sup>:

سَيَّاتِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَدَوْنَهُ      صِمَادٌ مِنَ الصَّوَانِ مَرَّتْ مُيُولُهُ<sup>342</sup>  
تَرَى ابْنَ أَبِي الْعَاصِي وَقَدْ صَفَّ دَوْنَهُ      مَّانُونَ أَلْفًا قَدْ تَوَافَتْ كُمُولُهَا

<sup>340</sup> الأغاني، 29/12

<sup>341</sup> ديوانه، 259

<sup>342</sup> الصماد: المكان الغليظ المرتفع من الأرض، المرت: الأرض التي لا نبت فيها، الميول: جمع ميل وهو الأرض قدر مد البصر

يُقَلِّبُ عَيْنَيَّ حَيَّةٍ مَحَارَةٍ أَضَافَ إِلَيْهَا السَّارِيَاتِ سَبِيلُهَا<sup>343</sup>  
يَصُدُّ وَيَغْضِي وَهُوَ لَيْثٌ خَفِيَّةٌ إِذَا أُمَكَّنْتَهُ عَذْوَةٌ لَا يَقِيلُهَا<sup>344</sup>  
بَسَطَتْ لِبَاغِي الْعُرْفِ كَفَأً بَسِيطَةً تَنَالُ الْعِدَى بَلَّةَ الصَّدِيقِ فُضُولُهَا<sup>345</sup>  
وَلَمْ يَكْ عَنْ عَقْرِ تَقَرُّكَ الْعُلَى وَلَكِنْ مَوَارِيثُ الْجُدُودِ تَوُولُهَا<sup>346</sup>  
حَمَّوْا مَنْزِلَ الْأَمْلَاقِ مِنْ مَرْجٍ رَاهِطٍ وَرَمَلَةٍ لَدَّ أَنْ تُبَاحَ سُهُولُهَا<sup>347</sup>

وهو هنا يرسم صورة لعبدالمملك وقد وقفت بين يديه جموع كثيرة من قومه يصل تعدادها إلى ثمانين ألفاً، والذي يثير الانتباه تكرار ذكر كُثُرٍ لمعركة مرج راهط في أثناء مديحه لعبدالمملك، فهل السبب في ذلك هو كرهه الشديد للزيريين بسبب تضيق عبدالله بن الزبير على الهاشميين وزجه لمحمد بن الحنفية في السجن ؟ أم أنه قصد من ذلك إثبات حق بني مروان وعبدالمملك بالتحديد في الخلافة، لأن أباه مروان بن الحكم هو الذي قاد بني أمية وبني مروان في هذه المعركة الفاصلة التي أعادت الملك وثبته في بني عبد شمس بعد أن كاد الأمر يستوي لعبدالله بن الزبير وتستتب له الخلافة على كافة أرجاء الدولة الإسلامية، إذ لم يبق في أيدي بني أمية في تلك الفترة شيء يذكر من هذه الدولة، واستطاع مروان بن الحكم أن يستعيد نفوذ بني أمية بعد انتصاره في هذه المعركة<sup>348</sup>، وثبت أقدامهم في الخلافة، واستمر

<sup>343</sup> المحارة: المكان الذي يحار فيه، أو الجحر الذي تختبئ فيه الحية

<sup>344</sup> العدو: الوثبة

<sup>345</sup> باغي العرف: طالب المعروف، بسيطة: سمحة بالخير، فضولها: أفضالها

<sup>346</sup> عن عفر: أي قديم غير محدث، تؤولها: تسوسها

<sup>347</sup> مدينة بفلسطين، لما تولى سليمان بن عبدالمملك جند فلسطين نزل لُد ونزل الرملة ومصرها وبني فيها قصره

<sup>348</sup> كثير عزة حياته وشعره، 168

عبدالملك بعده على نهجه يكافح ويناضل من أجلها، يقول كثير في مدائحه لعبدالملك<sup>349</sup> :

أَبُوكُمْ تَلَا فِي يَوْمٍ نَقَعَاءَ رَاهِطٍ      بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ وَهِيَ تُنْفَى وَتُقْتَلُ  
إِذَا النَّاسُ سَامُوكُمْ مِنَ الْأَمْرِ خُطَّةً      لَهَا خَمْطَةٌ فِيهَا السَّمَامُ الْمُتَمَلُّ<sup>350</sup>  
أَبَى اللَّهُ لِلشُّمِّ الْأَنْوَفِ كَأَنَّهُمْ      صَوَارِمٌ يَجْلُوهَا مِوْتَةً صَيَقُلُ  
ويقول أيضا<sup>351</sup> :

أَبُوكَ الَّذِي لَمَّا أَتَى مَرْجَ رَاهِطٍ      وَقَدْ أَلْبَاوَا لِلشَّرِّ فِيمَنْ تُأَلِّبَا  
تَسْنَأُ لِلْأَعْدَاءِ حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا      إِلَى أَمْرِهِ طَوْعًا وَكَرْهًا تَحَبَّبَا  
ويقول<sup>352</sup> :

أَبُوكَ حَمَى أُمِّيَّةً حِينَ زَالَتْ      دَعَائِمُهَا وَأَصْحَرَ لِلضُّرَابِ  
وَكَانَ الْمَلِكُ قَدْ وَهَنْتْ قُوَاهُ      فَزَدَ الْمَلِكُ مِنْهَا فِي النَّصَابِ

ولذلك قام كثير بتذكير بني أمية بصنيع مروان، وطلب منهم عدم نسيان ما قام به في تلك المحنة، ويدعوهم إلى الالتفاف حول عبدالملك، يقول<sup>353</sup> :

<sup>349</sup> ديوانه، 257

<sup>350</sup> خمطة، خمر ذات ريح أو حامضة، السمام الممثل: السم الناقع

<sup>351</sup> ديوانه، 267

<sup>352</sup> ديوانه، 282

<sup>353</sup> ديوانه، 87



فَلَا تَكْفُرُوا مَرْوَانَ آلَاءَ أَهْلِهِ بني عبد شمس واشْكُرُوهُ فَعَالَهَا

وهكذا يقرر كثير أحقية الخلافة والحكم لعبدالمملك.

وأخيرا لا بد لنا من الإشارة إلى إعجاب هارون الرشيد الشديد بمدائح كثير عزة التي خص بها بني مروان، نقلا عن رواية سليمان بن فليح التي وردت في تاريخ دمشق حيث يقول: استنشدني يوما أمير المؤمنين هارون الرشيد لكثير، وأنشدته نسيب قصيدة له، ثم وقفت، فقال لي: مالك ؟ فقلت: إنه مدح بني مروان يا أمير المؤمنين. فقال لي: امضه. فمضيت في مديحها حتى فرغت، ثم استزادني فزدته نسيبا من قصيدة أخرى فلما انتهيت إلى المدح توقفت. فقال لي: ما لك ؟ فقلت: مدح بني مروان يا أمير المؤمنين. فقال: امضه. فمضيت في مديحها حتى أنشدته قصائد له فجعل يتعجب منه. فقال له يحيى بن خالد: ما مدحكم به ابن أبي حفصة أجود من هذا حين يقول:

نور الخلافة في المهدي تعرفه وذلك النور في موسى وهارون

فقال له أمير المؤمنين هارون الرشيد: دع هذا الكلام عنك يا أبا علي، فوالله لا نمدح بمثل شعر كثير حتى يحاك لنا مثل طراز هشام<sup>354</sup>:

ويرجع أحمد الربيعي سبب إعجاب هارون الرشيد بمدح كثير " إلى أن كثيرا يرسم لممدوحه صورة دقيقة القسمات قوية الملامح، زاهية الألوان، يستقصي فيها كل ما للممدوح من المزايا والصفات والمفاخر، حيث يجلسه على عرش الوسامة

<sup>354</sup> تاريخ دمشق، ابن عساکر، 81/50

والصباحة، ويُلبسه حلل الحرير وطرف الديباج الموشاة، ويتوجه بالأبهة ويرصع تاجه ويكلله بشمائل الملوك والخلفاء من حزم وشجاعة ورجاحة وفصاحة وعدل وصلاح، ويُجلله بأمجاد قبيلته..... ويحف عرشه بالأمراء المصطفين من آله الذين جلسوا يخالسون نظرات التجلة، ويجعل القادة والولاة يغدون ويروحون بين يديه بالأوامر وهم يومنون إليه بتحيات الطاعة والتعظيم وهو يرد عليهم بابتسامة يبرق وميضها بعظمة الملك " <sup>355</sup>

---

<sup>355</sup> كثير عزة حياته وشعره، أحمد الربيعي، 163

صورته في شعر عبيدالله بن قيس الرقيات<sup>356</sup>

يصف القدماء عبيدالله بن قيس الرقيات بأنه كان زبيري الهوى والنزعة، وقد صاحب مصعب بن الزبير في العراق والتحقيق به عندما استقر هناك، وقد مدحه بقصيدته الهمزية المشهورة التي مطلعها<sup>357</sup>:

أَقْفَرْتُ مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ كَدَاءٍ      فَكُدِّي      فَالرُّكُنُ      فَالْبَطْحَاءُ

ويقول في مصعب:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّهِ      تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ      جَبَرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبَرِيَاءُ

يَتَّقِي اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْلَحَ      مَنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَاءُ

ويتعرض ابن قيس في هذه القصيدة لبني أمية ويهجوهم لما أوقعوه بقريش من مصائب، ويتوعددهم ويشير إلى قتلهم الحسين بن علي كجرمة من جرائمهم، وستتحدث عن الصورة السلبية التي رسمها لعبدالمملك ولبنی أمية ممثلين به في الفصل الثالث، ويهمنا في هذا الموقع أن نتحدث عن الصورة الإيجابية التي رسمها لعبدالمملك في أشعاره عندما وفد عليه بعد القضاء على الحركة الزبيرية، إذ أصبح في هذه الفترة طريدا خائفا من القتل الذي كان ينتظره على أيدي بني أمية وأعوانهم بسبب مساندته للزبيريين ووقوفه معهم بلسانه وسيفه، وبعد مقتل

<sup>356</sup> انظر ترجمته في: الأغاني 48/5، طبقات فحول الشعراء 648، الشعر والشعراء 539 خزنة الأدب 278/7

<sup>357</sup> ديوانه، 87

مصعب بن الزبير اختبأ ابن قيس عند امرأة تدعى كثيرة لمدة سنة، ثم تركها وهرب إلى المدينة واستجار بعبدالله بن جعفر فأجاره، وكتب عبدالله بن جعفر إلى أم البنين أن تشفع له عند عبدالله، يقول الأصفهاني في أغانيه " فدخل عليها عبدالله كما كان يفعل وسألها، هل من حاجة ؟ فقالت: نعم لي حاجة، فقال: قد قضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات، فقالت: لا تستثن علي شيئاً، فنفع بيده فأصاب خدها، فقال يا بنتي ارفعي يدك، فقد قضيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات، فقالت: إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمنه، فقد كتب إلي أبي يسألني أن أسألك ذلك، قال: فهو آمن، فمر به يحضر مجلسي العشية، فحضر ابن قيس وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبدالله، فأخر الإذن، ثم أذن للناس، وأخر إذن ابن قيس الرقيات حتى أخذوا مجالسهم، ثم أذن له، فلما دخل عليه قال عبدالله: يا أهل الشام، أتعرفون هذا ؟ قالوا لا، فقال: هذا عبيدالله بن قيس الرقيات الذي يقول:

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا      يَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً شَعْوَاءُ

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي      عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَذْرَاءُ

فقالوا: يا أمير المؤمنين اسقنا دم هذا المنافق، قال: الآن وقد أمنتته وصار في منزلي وعلى بساطي، قد أخرجت له الإذن لتقتلوه فلم تفعلوا.... " <sup>358</sup>.

وأحب أن أعلق على هذه الرواية التي نقلها أبو الفرج الأصفهاني فأقول: إن معظم المصادر التي بين أيدينا تتحدث عن وقوف عبيدالله بن قيس الرقيات إلى جانب الزيريين في حربهم ضد الأمويين، وقد ساندتهم بسيقه ولسانه، وكان شاعرهم الذي سخر شعره للدفاع عنهم، وطبيعي أن يتوارى عن الأعين بعد مقتل صاحبه مصعب بن الزبير لكي لا يقع في أيدي أعدائه، ومن الحكمة أن يستجير بشخصية قوية مثل عبدالله بن جعفر الذي كان يقيم في المدينة المنورة لكي تتوسط له عند عبدالمملك بن مروان ليحصل على الأمان، وقد تكون قصة كتابة عبدالله بن جعفر كتابا إلى أم البنين يطلب فيه منها التوسط لابن قيس صحيحة، وتتوسط أم البنين له عند عبدالمملك مقبولة أيضا، لكن غير المعقول هو قول عبدالمملك لأم البنين بعد أن أمَّته، " مريه فليحضر مجلسي العشية "، فهل كان عبيدالله بن قيس مختبئا في دمشق قريبا من أم البنين، حتى تأمره أن يحضر مجلس عبدالمملك في تلك العشية، أليست المسافة بين المدينة المنورة التي التجأ إليها عبيدالله والتي يقيم فيها ابن جعفر تبعد آلاف الأميال عن دمشق، وحضور ابن قيس يستغرق أياما طويلة حتى يصل إلى مقر الخلافة ؟ لذلك فإنني أعتقد أن في هذه الرواية خلل يتمثل في دعوة عبدالمملك له بحضور مجلسه في تلك العشية، وقد يكون الصحيح أن عبدالمملك قد أعطى الأمان له عن طريق أم البنين، على أن تقوم أم البنين بإبلاغ ابن جعفر لاحقا بذلك، ثم يتم استدعاؤه من المدينة إلى دمشق وترتيب لقاء بينه وبين الخليفة، وهذا الأمر يستغرق وقتا طويلا.

و تشير معظم المصادر التي تحدثت عن ابن قيس الرقيات إلى تحوله ملحق الأمويين بعد أن تم القضاء على الزيريين وأعاونهم، وهذا ما تؤكده القصائد

المدحية التي نظمها في خلفاء بني أمية وفي عبد الملك بن مروان والواردة في ديوانه. والناظر في أشعاره في بني أمية يلاحظ أنه استخدم المعاني نفسها التي درج الشعراء المادحون لهم على استخدامها في قصائدهم المدحية، وحين يمدح عبد الملك بن مروان يمدحه بالمعاني التي استخدمها الجاهليون في مدح ممدوحيه من وصف بالشجاعة والحلم والكرم والفصاحة وعراقة النسب، يقول في إحدى مدائحه لعبد الملك يصفه بالبهاء والزينة<sup>359</sup>:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَخْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا  
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ  
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْعَمِ — اصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ  
خَلِيقُهُ اللَّهُ فَوْقَ مَنْبَرِهِ جَفَّتْ بِذَاكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ  
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَقْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الدَّهَبُ  
أَحْفَظَهُمْ قَوْمُهُمْ بِبَاطِلِهِمْ حَتَّى إِذَا حَارَبُوهُمْ حَرَبُوا

الأمر الذي جعل عبد الملك يقول له: يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأنني من العجم، وتقول في مصعب:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ  
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرَوْتُ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءُ

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا<sup>360</sup>. ونستشف من هذه الرواية أن الذي أغضب عبد الملك هو تصوير ابن قيس الرقيات له وكأنه ملك من ملوك الأعاجم الذين يتباهون بالتاج وهو يزين رؤوسهم، ولم يصفه بالمعاني الدينية التي اعتاد ابن قيس أن يصف مصعبا بها في مدائحه له، بينما يريد عبد الملك أن يتزين بالصفات والصور الدينية الإسلامية مثل الورع والتقوى والزهد وغيرها، وهي الصور والصفات التي ألح خلفاء بني أمية على الشعراء أن يفهم بها، فعبد الملك خليفة للمسلمين، والخلافة منصب ديني، وهو يريد تثبيت خلافته وتقويتها عن طريق الدين، وهو لا يريد من ابن قيس أن يمدحه بالتاج الذي يزين رأسه، وإنما كان يريد منه أن يسلك السبيل نفسه الذي سلكه شعراء البيت الأموي في الدفاع عن خلافتهم، فالخليفة ليس بحاجة إلى توكيد نسبه، والتدليل على شجاعته، وإنما هو بحاجة إلى الدفاع عن خلافته أمام أعدائه من الأحزاب الأخرى دفاعا دينيا<sup>361</sup>:

ويصف وهب رومية الصورة التي رسمها ابن قيس الرقيات لعبد الملك في هذه القصيدة بأنها "صورة باهتة كاسفة الألوان ليس فيها ومضة من مشاعر النفس أو نضارة الأحاسيس... وإنه لفرق عظيم بين هذه الصورة وصورة مصعب التي رسمها وأعجب بها عبد الملك إعجابا شديدا"<sup>362</sup>.

<sup>360</sup> الأغاني، 52/5

<sup>361</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل، إبراهيم عبدالرحمن محمد، 146

<sup>362</sup> بنية القصيدة العربية، وهب رومية، 276

ويعلق قدامة بن جعفر على ذلك فيقول: " فوجه عتب عبدالمملك إنما هو من أجل أن هذا الملاح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة، وقد قدمنا أن ذلك غلط وعيب"<sup>363</sup>.

وفي التعليق على ما أورده قدامة يقول طه إبراهيم إن البيت لم يقع موقعا حسنا من نفس عبدالمملك، لا لأنه عدل في مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة، بل لأن بين البيتين بونا شاسعا في الجمال والقوة والروح، لأن بيت ابن الرقيات في مصعب أروع وقعا وأعلى نفسا، وأمس بالنور العلوي، وأشد اتصالا بالله الذي يحرص الخلفاء على أن يمثلوه في الأرض، لهذا وحده عتب عبدالمملك على الشاعر وليس لخلو بيته من الفضائل النفسية، فليس في بيت مصعب شيء منها على النحو الذي يفهمه قدامة<sup>364</sup>.

وها هو عبدالمملك بن مروان يقول للشعراء: " يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتُم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم"<sup>365</sup>:

نهارُكم مُكابِدَةٌ وَصَوْمٌ      وَلَيْلُكُمْ صَلاةٌ وَأَقْبَرَاءُ  
وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزْكِ      فَاسْرِعَ فَيُكِّمَ ذَاكَ الْبَلَاءُ

<sup>363</sup> نقد الشعر، 184

<sup>364</sup> تاريخ النقد الأدبي، طه إبراهيم، 126-127، النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، 173

<sup>365</sup> الأغاني، 196/20



بكى نَجْدَ عَدَاةٍ غَدٍ عَلَيْكُمْ وَمَغَّهْ وَالْمَدِينَةَ وَالْجِوَاءَ

ويقول في رواية أخرى للشعراء: " تشبهوني مرة بالأسد، ومرة بالبازي، ومرة بالصقر، ألا قلت كما قال كعب الأشقري في المهلب وولده<sup>366</sup> :

بِرَاكَ اللّٰه حِينَ بَرَكَ بَحْرًا      وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا صَغَارًا  
بَنَوْكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالِي      إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الْخَطَارَا  
كَأَنَّهُمْ نُجُومٌ حَوْلَ بَذْرِ      دَرَارِي تَكْمَلُ فَاسْتَدَارَا  
مَلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ تَغْرِ      إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرُّوعِ طَارَا  
رِزَانٌ فِي الْأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِمُ      مَنْ الشَّيْخِ الشَّمَائِلِ وَالنَّجَارَا  
نَجُومٌ يَهْتَدِي بِهِمْ إِذَا مَا      أَخُو الظُّلَمَاءِ فِي الْغَمَرَاتِ حَارَا

ومن هنا نلاحظ أن عبد الملك بن مروان كان يحب أن تظهر صورته في مدائح الشعراء له وقد لونت بالمعاني الإسلامية المتمثلة بالورع والتقوى والزهد، وأن الخلافة التي آلت إليه إنما ساقها الله إليه لأنه أحق بها من غيره، فهو حامي حمى المسلمين، وهو الذي جمع شتاتهم ووحدهم بعد أن كانوا متفرقين.

والملاحظ أن ابن قيس الرقيات كان يوزع قصيدته في عبد الملك على ثلاثة أمور، فلا يبقى لعبد الملك إلا بضعة أبيات:

أولاً: افتخاره بقريش وموطنهم بطاح مكة وأماكنها المقدسة، وتذكره يثرب وأيامها السعيدة.

<sup>366</sup> الأغاني، 181/14

ثانيا: مدحه عبدالمملك كونه قرشيا.

ثالثا: مدحه الأمويين كونهم من قريش أعظم الناس نسبا وحسبا، فالخلافة يجب ألا تخرج

عنهم<sup>367</sup>.

ففي قصيدته الهمزية التي مطلعها<sup>368</sup>.

أَنْتَ ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبِطَا	حِ كُـدَيْهَا فَكُـدَائِهَا
فَالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ فَالـ	مُسْتَقٍّ مِنْ بَطْحَائِهَا
فَمَحَلُّ أَعْلَاهَا إِلَى	عَرَفَاتِهَا فَحِرَائِهَا

يفتخر ابن قيس الرقيات بمكة وبطاحها وكعبتها وعرفاتها وحرائها، ويمدح عبدالمملك بن مروان ابن قريش البطاح، وهو خير من يعلم ذلك، وهو أتمها نسبا، فأبوه وأمه من الأعياص الأمويين، وهو وسطهم كالبدن، ومملكته واسعة ممتدة الأطراف، يقول:

وَلَأَنْتَ أَعْلَمُهَا بِهَا	وَأَصَحُّهَا مِنْ دَائِهَا
وَأَتَمُّهَا نَسَباً إِذَا	نُسِبَتْ إِلَى آبَائِهَا
وَلَدَتْكَ عَائِشَةُ التِّي	فَصَلَتْ أَرْوَمَ نَسَائِهَا
مُتَعَطِّفُ الْأَعْيَاصِ	حَوْلَ سَرِيرِهَا وَفَنَائِهَا

<sup>367</sup> الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، ثريا ملحس، 328

<sup>368</sup> ديوانه، 117

وَلَدَتْ أَغْرَّ مُبَارَكًا      كَالْبَذْرِ وَسْطَ سَمَائِهَا  
 فِي لَيْلَةٍ لَا نَحْسَ فِي      سَحَرِهَا وَعَشَائِهَا  
 إِنَّ الْبِلَادَ سَوَى بِلَادِكَ      ضَاقَ عَرْضُ قَضَائِهَا

وقد ذكر محقق الديوان أن هذه القصيدة قيلت في عبدالله بن الزبير عندما خرج إليه الشاعر وافداً، إلا أنه يشير في الحاشية إلى أنها قيلت في عبدالملك لا في ابن الزبير، وهذا ما تؤكدُه أبيات القصيدة، لا سيما أنه يذكر فيها عائشة أم عبدالملك بن مروان، وهذا ما يؤكدُه إبراهيم محمد حيث يقول: (وواضح أنه يريد عائشة بنت معاوية بن أمية، وهي أم عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي، وأما عبدالله بن الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر، ويريد الشاعر بالأعيان المتعطفين حول سريرتها أربعة من أجدادها من أبناء أمية الأكبر بن عبد شمس، وهم العاصي وأبو العاصي والعيص والعيوص<sup>369</sup>).

ويلاحظ من يستعرض مدائح عبيدالله بن قيس الرقيات لبني أمية وبني الحكم أنه يصورهم وقد منعوا من يستجير بهم وهم يوفون بعهودهم، ويغيثون الملهوفين ويجبرون كسرهم، وهم أيضاً غوث للأمة عندما تتعرض للمآسي، يقول في قصيدته الميمية التي مدح بها عبدالعزيز بن مروان، وقد جاء في المطبوعة أنها قيلت في مدح عبدالملك، كما يذكر محقق الديوان<sup>370</sup>، ويبلغ تعداد أبياتها ثلاثة وثلاثين بيتاً، احتلت المقدمة الطللية منها سبعة أبيات، وبلغ عدد أبيات المدح فيها

<sup>369</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل، إبراهيم عبدالرحمن محمد، 82

<sup>370</sup> ديوانه، 7

سته وعشرين بيتا، والذي يعن النظر في القصيدة يجد أنها قد قيلت في مديح الخليفة  
عبدالمملك وليس في عبدالعزيز بن مروان لأنه لم يكن خليفة<sup>371</sup>:

أَحَلَّكَ اللَّهُ وَالْخَلِيفَةُ بِالْأَلْ	عَوَظَةٍ دَارًا بِهَا بَنُو الْحَكَمِ
الْمَانِعُو الْجَارَ أَنْ يُضَامَ قَمَا	جَارٌ دَعَا فِيهِمْ يَمُتُّهُمْ
وَالْوَارِثُو مِنْ بَرِّ الْخِلَافَةِ وَالْ	مَوْفُونَ عِنْدَ الْعُهُودِ بِالذَّمِّ
وَالْجَابِرُو كَسَرُ مَنْ أَرَادُوا وَمَا أَلْ	كَسَرُ الَّذِي أَوْهَنُوا يُمْلَتُّمِ
فَهُمْ إِذَا جَلَلَتْ مَدَجِّيَّةٌ	نُجُومٌ لَيْلٍ تُنِيرُ فِي الظَّلَمِ
الكَاشِفُو عَمْرَةً إِذَا نَزَلَتْ	بِالنَّاسِ إِحْدَى الْجَوَائِحِ الْعُظْمِ
لَيْسُوا يَمْنُونُ فَضْلَهُمْ وَلَهُمْ	فَضْلٌ عَلَيْنَا بِأَحْسَنِ النُّعَمِ
تُحِبُّهُمْ عَوْدُ النِّسَاءِ إِذَا	أَبْدَى الْعَذَارَى مَوَاضِعَ الْخَدَمِ
وَأَنْكَرَ الْكَلْبُ أَهْلَهُ وَبَدَتْ	حَرْبٌ عَوَانُ تُشَبُّ بِالضَّرَمِ

فبنو الحكم هم وارثو الخلافة، وجابرو الكسر، ومانعو الضيم عن الجار، ومنيرو  
الظلمات، ومزيلو المكروه عن الناس إذا وقع المكروه بهم، لا يمنون على أحد بفضلهم، هم  
السادة والأشراف والشجعان، يدافعون عن مجدهم بسيوفهم، تعوذ العذارى بهم إذا أصابهن  
مكروه.

<sup>371</sup> ديوانه، 7

ونلاحظ أنه قد تخيرمنهم واحدا ووصفه بأنه إمام الهدى، وصاحب الأيادي العظيمة عليه، وهو بالتأكيد يشير إلى عبدالمملك بن مروان الذي عفا عنه عندما توسط إليه بشأنه عبدالله بن جعفر فقال <sup>372</sup>:

مِنْهُمْ إِمَامُ الْهُدَى لَهُ نَعَمٌ	عِنْدِي وَأَيْدٍ تَصُوبُ بِالْدِّيمِ
خَلِيفَةٌ يُفْتَدَى بِسُنَّتِهِ	فِي إِثْرِ مَجْدِ الثَّرَاءِ وَالْكَرَمِ
وَالْعُرُّ مِنْ قَوْمِهِمْ إِذَا ذُكِرَتْ	أَيَّامُهُمْ فِي الْغَنَاءِ وَالْقُدَمِ
نَفْسِي فِدَاءٌ لَهُ وَمَا عَظُمَتْ	مِنْ فَاجِعَاتِ الْخُتُوفِ وَالسَّقَمِ
مَنْ الَّذِي بَعْدَهُ يَعْزُّ بِهِ	ضَامِنٌ حَاجَتِنَا وَمِنْ عَدَمِ
فِي شِدَّةِ الْعَيْشِ وَالزَّمَانِ وَمَا	يَأْتِي بِهِ دَهْرُنَا مِنَ الْقَحَمِ
وَأَنْتَ لِلصَّيْدِ مِنْ مُلُوكِهِمْ أَلِ	بِأَنْبِيَاءِ لِلْمَجْدِ ثَابِتَ الدَّعَمِ

وهو يصف الخليفة بالشجاعة والكرم وأصالة النسب والحلم والفصاحة، وغيرها من الصفات التي استخدمها الشعراء الجاهليون.

و يتحدث عن إخماده لتلك الفتنة التي أثارها فريق من قومه، وقطعوا فيها شوابك الرحم <sup>373</sup> وهو يعني تلك الحروب التي وقعت بين الزبيريين والأمويين، والتي تمكن عبدالمملك من خلالها القضاء على معارضيهِ في وقعتي دير الجاثليق التي قتل فيها مصعب بن الزبير، وحصاره لمكة ومقتل عبدالله بن الزبير، فيقول:

<sup>372</sup> ديوانه، 9

<sup>373</sup> ديوانه، 10، الأبيات من 21-23

لَمَّا رَأَوْا بَغْيَ قَوْمِهِمْ لَهُمْ إِذْ قَطَعُوا مِنْ شَوَابِكِ الرَّجِمِ

كَانَتْ حُصُونًا لَهُمْ سَيُوقُفُهُمْ وَكُلُّ حَامِي الْحِفَاطِ مُسْتَلِمٌ

وفي بائيته التي مدح بها عبد الملك ومَر ذكرها، يشير ابن قيس الرقيات إلى حلم بني أمية وحقهم في الخلافة، وانتصارهم على أعدائهم الذين يمثلون الباطل، فبنو أمية لا يفرحون عندما ينتصرون، ولا يجزعون عندما يخسرون، إنهم معدن الملوك الذين تصلح بهم العرب، يتصفون بالرزانة والسعة عندما تضيق الأمور، هم أهل المعروف شجعان في خوض المعارك، يترفعون عن أخذ السبايا زوجات لهم لأنهم يحافظون على أنسابهم<sup>374</sup>:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا	أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا	تَصْلُحُ إِلَّا عَلَىٰ يَهُمُ الْعَرَبُ
أَحْفَظُهُمْ قَوْمُهُمْ بِبَاطِلِهِمْ	حَتَّىٰ إِذَا حَارَبُوهُمْ حَرَبُوا
تَجَرَّدُوا يَضْرِبُونَ بِبَاطِلِهِمْ	بِالْحَقِّ حَتَّىٰ تَبَيَّنَ الْكَذِبُ
لَيْسُوا مَفَارِيحَ عِنْدَ نَوْبَتِهِمْ	وَلَا مَجَازِيْعَ إِنْ هُمْ نُكِبُوا
إِنْ جَلَسُوا لَمْ تَضُقْ مَجَالِسَهُمْ	وَالْأَسَدُ أَسَدُ الْعَرِينِ إِنْ رَكِبُوا
لَمْ تُنْكِحِ الصُّمُّ مِنْهُمْ عَزْبًا	وَلَا يُعَابُونَ إِنْ هُمْ حَطَبُوا

هذه هي الصورة التي رسمها ابن قيس الرقيات لبني مروان، وعبد الملك هو واحد منهم، بل هو خليفتهم، وبالتالي فإن هذه الصورة هي صورة لعبد الملك.

<sup>374</sup> ديوانه، 4

ونلاحظ من خلال مدائحه لبني مروان عموما ولعبدالمملك خصوصا أنه قد تحول من شاعر زبيري نافع عنهم وعن مبادئهم بلسانه وبسيفه إلى شاعر من شعراء البلاط الأموي، ويفسر أحمد الشايب ذلك بقوله: " الحركة الزبيرية لم تدم طويلا، ولم يكن لها شعراء يعبرون عن رأيها ويدافعون عنها، أما عبدالله بن قيس الرقيات فلم يكن زبيريا بقدر ما كان قرشيا، فهو يريد الحكومة في قریش، ومستعد أن يقف بجانبها زبيرية كانت أم أموية أم شيعية، وفعلًا كان ذلك، فبعد هلاك مصعب اتصل بالأمويين ومدحهم<sup>375</sup> .

وتوافق ثريا ملحس أحمد الشايب الرأي فتقول " إن عبدالله بن قيس الرقيات إذا مدح الهاشميين مدح قریشا، وهي الرابطة القبلية التي تضم تحت مظلتها الزبيريين والهاشميين والأمويين، فهؤلاء جميعا من بطاح مكة وهم من أرومتها<sup>376</sup> .

ويرى إبراهيم عبدالرحمن محمد صاحب كتاب شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل الرأي نفسه، يقول: " وفي مديح ابن قيس لعبدالمملك ظاهرة تحتاج إلى تفسير، ونريد بها موقفه من الزبيريين، بعد سقوط مصعب واتصاله بعبدالمملك، وتتلخص هذه الظاهرة في أن ابن قيس يحاول أن ينتزع نفسه من الزبيريين انتزاعا، فيشير إلى قتال عبدالمملك لهم وقضائه عليهم، فيقول<sup>377</sup> :

أَحْفَظُهُمْ قَوْمُهُمْ بِبَاطِلِهِمْ      حَتَّى إِذَا حَارَبُوهُمْ حَرَبُوا

<sup>375</sup> تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، أحمد الشايب، 212.

<sup>376</sup> الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، ثريا ملحس 324

<sup>377</sup> ديوانه، 5

تَجَرَّدُوا يَضْرِبُونَ بِأَطْلَهُمْ بِالْحَقِّ حَتَّى تَبَيَّنَ الْكَذِبُ

ويقول<sup>378</sup> .

لَمَّا رَأَوْا بَغْيَ قَوْمِهِمْ لَهُمْ إِذْ قَطَعُوا مِنْ شَوَابِكِ الرَّحِمِ

كَانَتْ حُصُونًا لَهُمْ سَيُوقُفُهُمْ وَكُلُّ حَامِي الْحِفَاظِ مُسْتَلِمٍ

فهو يصف دعوة الزبيريين بالباطل، ويرر لقضاء عبدالمملك عليهم، وقد يفهم من هذا أنه تغير على الزبيريين وخانهم، ولكننا إذا اعتبرنا ما أحاط بالشاعر من ظروف سياسية قاسية، كادت تودي بحياته، وكذلك ما استقر في نفسه من الانتصار لقريش والدعوة لها أمكننا فهم مدائحه في الأمويين والتعليل لها، فلم يكن بد لابن قيس حين اتصل بالأمويين من أن يمدحهم فقد استقر السلطان فيهم وهم بيت من قريش، وانتهت تلك الحروب التي فرقت القرشيين شيعة وأحزابا، واستقرار السلطان في قريش وهو ما كان يدعو الشاعر له ويتمناه<sup>379</sup> .

وهذا التفسير الذي جاء به إبراهيم عبدالرحمن محمد يؤدي ما ذهب إليه كل من أحمد الشايب وثريا ملحس، من أن ابن قيس الرقيات كان يتعصب لقريش على العرب جميعا، ويراهما أحق من غيرها في الحكم والسلطان بغض النظر عن البيت الذي يحكم فيها سواء كان من الهاشمين أم الزبيريين أم الأمويين، والمهم عنده أن تبقى الخلافة في قريش.

<sup>378</sup> ديوانه، 9

<sup>379</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل، إبراهيم عبدالرحمن محمد، 53



ونلاحظ في نهاية عرضنا للصورة التي رسمها ابن قيس الرقيات لعبدالمملك بن مروان أنه قد سار على نهج الشعراء الجاهليين واستعار أوصافهم لممدوحهم، ولهذا رأيناه يصف عبدالمملك بالشجاعة والكرم وأصالة النسب وغيرها من الصفات التي اعتاد الجاهليون على رسمها لممدوحهم، وكانت بعض العناصر الإسلامية تظهر على استحياء في مدائحه كصفة العدل والرحمة وإشاعة المساواة بين الناس، وذلك على عكس ما شاهدناه عند الشعراء الآخرين مثل جرير والفرزدق والأخطل الذين شاع في شعرهم وصف خلفاء بني أمية وعلى رأسهم عبدالمملك بن مروان بإقامة العدل وإشاعة المساواة بين المسلمين بصورة مطلقة، ودفاعهم عن أحقية بني أمية بالخلافة دفاعا دينيا كما مر معنا.

عدي بن الرقاع العاملي شاعر أموي الهوى والنزعة، نشأ في بلاد الشام، وهو ينتمي إلى القبائل اليمانية التي ساندت الأمويين، فوقف مدافعا عن بني أمية مناصرا لهم في حروبهم مع الزبيريين، وقد لقب بشاعر أهل الشام وشاعر أهل الأردن، اختص بالوليد بن عبدالمملك.

يبدو أن عدي بن الرقاع العاملي قد شارك في الوقعة التي كانت بين عبدالمملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين للهجرة، وكان أحد فرسان عبدالمملك، إذ جهز عبدالمملك جيوشه وقادها بنفسه متوجها إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، فالتقوا بدير الجاثليق، وهُزِمَ الزبيريون في هذه المعركة وقُتِلَ مُصْعَبُ قَرَبَ باخمر<sup>381</sup>، فأشاد عدي بمنزلة عبدالمملك وشجاعته وقيادته لجيوشه، وتغنى بوضاء وجهه، وبين موقف القبائل اليمانية المؤيدة لخلافته، ونوه بنصرتها له على أعدائه، ووقوفها إلى جانبه في معاركه مع الزبيريين، ومساندتها له في معاركه مع الشيعة وثباتها على ولائها لبني أمية، فاحتفظ لها عبدالمملك بمنزلة مرموقة في

<sup>380</sup> عدي بن زيد بن مالك بن الرقاع العاملي، نسب إلى جده الرقاع لشهرته، كان شاعرا مقدما عند بني أمية مداحا لهم، اختص بالوليد بن عبدالمملك، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، تعرض لجرير في مجلس الوليد وناقضه، صنفه ابن سلام في شعراء الطبقة السابعة الإسلامية، مات حوالي سنة 101 هـ. له ديوان شعر مطبوع: الأغاني 228/9 الطبقات الكبرى، 196/5، تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 264، أنساب الأشراف، 342/5

دمشق، وظل يتمسك بها ويعتمد عليها، فكانت تشكل صلب جيشه في الشام<sup>382</sup>، مما عزز موقفه وعجل له بالفوز يقول<sup>383</sup>:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَصْحَرْتُ حَيْنُنَا      بِأَكْنَفٍ دَجَلَةً لِلْمُضْعَبِ  
يَهْزُونَ كُلَّ طَوِيلِ الْقِنَاةِ      مُعْتَدِلَ النَّصْلِ وَالْمَنْصَبِ  
وَجَرَّتْ سَنَابِغُهَا بِالْعِرا      قِي حَتَّى تَرَكْنَاهُ كَالْمِشْجَبِ  
إِذَا مَا مُنَافِقُ أَهْلِ الْعِرا      قِي عَوْتِبَ قَمَّتْ لَمْ يُعْتَبِ  
دَلَفْنَا إِلَيْهِ بِذِي تُدْرَاءِ      قَلِيلِ التَّفَقُّدِ لِلْغِيَابِ  
يُقَوِّمُنَا وَاضِحٌ وَجْهُهُ      كَرِيمُ الْمَضَارِبِ وَالْمَنْصَبِ  
أَغْرُ يُضِيءُ لَنَا نَوْرَهُ      إِذَا مَا انْجَلَّتْ غَمْرَةُ الْمَوَكِبِ  
تَظَلُّ الْقَنَابِلُ يَكْسُونُهُ      رِوَاقًا مِنَ النَّقْعِ لَمْ يُطْنَبِ  
أَعْيَنَ بِنَا وَتُصِرْنَا بِهِ      وَمَنْ يَنْصُرِ اللَّهَ لَا يُغْلَبِ  
فَدَاؤُكَ أُمِّي وَأَبْنَاؤُهَا      وَإِنْ شِئْتَ زِدْتُ عَلَيْهَا أَيَّ  
فَمَنْ يَكُ مَنَّا يَبِثْ آمِنًا      وَمَنْ يَكُ مِنْ غَيْرِنَا يَهْرُبِ

فعدي صدر في مدحه وتصويره لعبدالمملك عن طيب خاطر كما لاحظنا، وهو لم يقل أبياته السابقة بدافع الخوف والرغبة، فخطبه بلهجة صادقة نابعة من موقف سياسي مؤيد له، وعبر عما يعتمل في صدره من حب لبني أمية، فقدم أهله

<sup>382</sup> الوليد بن يزيد: عرض ونقد، 412

<sup>383</sup> ديوانه، 249، والأبيات ساقطة من القصيدة رقم (17) في الديوان ص: 232 وفيه أن القصيدة قيلت في مدح الوليد، الأغاني، 96/19، أنساب الأشراف، 5/ 196، الأخبار الطوال، 311، طبقات ابن سلام، 2/ 705.

فداء للخليفة الذي أيدته الله بنصره، ونلاحظ أنه لم يذكر شيئاً من صفاته الإسلامية<sup>384</sup>.

---

<sup>384</sup> عدي بن الرقاع: حياته وشعره، تحسين الصلاح، 71

يقول أبو الفرج في معرض حديثه عن النابغة الشيباني: " كان نابغة بني شيبان منقطعا إلى  
عبدالمملك مداحا له، فدخل إليه في يوم حفل والناس حواليه وولده قدامه فمثل بين يديه  
وأُشْد<sup>386</sup>

اشتقتَ وانْهَلْ دَمْعُ عَيْنِكَ أَنْ أَضْحَى قِفَاراً مِنْ أَهْلِهِ طَلَحُ

حتى انتهى إلى قوله:

أَزَحَّتْ عَنَّا آلَ الزُّبَيْرِ وَلَوْ      كَانَ إِمَامٌ سِوَاكَ مَا صَلُّوا  
تَسْوَسُ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عُمَلَتَهُمْ      وَأَنْتَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ مُنْتَصِحُ  
إِنْ تَلَقَّ بَلَوَى فَصَابِرٌ أَنْفُ      وَإِنْ تُلَاقِ التَّعْمَى فَلَا قَرِحُ

فنابغة بني شيبان كما نلاحظ يتعرض للزبيريين الذين استطاع عبدالمملك أن يقضي على  
نفوذهم ويستأصلهم، ولو كان الإمام واحدا آخر غير عبدالمملك لما تمكن من إنجاز هذه المهمة  
حسب قوله، وعبدالمملك هو الذي يقود الأمة الإسلامية بهدي الرحمن، وهو الذي يصبر في  
الملامات والشدائد، ولا يفرح عندما يحقق ما يريد وينتقل بعد ذلك ليرسم صورة مشرقة  
جميلة لبني أمية (آل أبي العاص )، فيقول<sup>387</sup>:

<sup>385</sup> هو عبدالله بن المخارق بن سليم الشيباني، شاعر بدوي من شعراء الدولة الأموية، كان يفد إلى الشام ويمدح  
خلفاء بني أمية وينال عطاءهم، ويبدو أنه كان نصرانيا، له ديوان شعر مطبوع، الأغاني 7/ 81

<sup>386</sup> ديوانه، 106، الأغاني 7/ 81-82 مع اختلاف في بعض المفردات

<sup>387</sup> ديوانه، 107، الأغاني، 7/ 82

وَأَلَّ أَبِي الْعَاصِ أَهْلُ مَأْتَرَةٍ      غُرَّ عِتَاقُ بِالْخَيْرِ قَدْ نَفَحُوا  
 خَيْرُ قُرَيْشٍ وَهُمْ أَفْضَلُهَا      فِي الْجِدِّ جِدٌّ وَإِنْ هُمْ مَزَحُوا  
 أَرْحَبُهَا أَذْرَعًا وَأَصْبَرُهَا      صَبْرًا إِذَا الْقَوْمُ فِي الْوَعَى كَلَحُوا  
 أَمَّا قُرَيْشٌ فَأَنْتَ وَارِثُهَا      تَكْفُ مَنْ شَغَبِهِمْ إِذَا طَمَحُوا  
 حَفِظْتَ مَا صَيَّعُوا وَزَنَدَهُمْ      أَوْرَيْتَ إِذْ أَصْلَدُوا وَقَدْ قَدَحُوا  
 مَنَاقِبُ الْخَيْرِ أَنْتَ وَارِثُهَا      وَالْحَمْدُ ذُخْرُ تُغْلِي بِهِ رَبْحُ

فَالْ أَبِي الْعَاصِ هُم أَصْحَابُ الْمَأْتَرِ، وَهُمْ الْغَرِ الْمِيَامِينِ، إِنَّهُمْ أَخْيَارُ قُرَيْشٍ وَأَفْضَلُهُمْ فِي جَمِيعِ الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ، إِنَّهُمْ أَصْبَرُ النَّاسِ حِينَ تَحْتَدِمُ الْمَعَارِكُ وَيَشْتَدُّ أَوَارِهَا، وَعَبْدُ الْمَلِكِ هُوَ الَّذِي وَرَثَ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّ مَنَاقِبِهَا الْجَمِيلَةِ، وَهُوَ الَّذِي حَافِظٌ عَلَى مَجْدِ قُرَيْشٍ بَعْدَ أَنْ كَادَ يَضِيعُ.

وَيَنْتَقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى وِلَايَةِ الْعَهْدِ وَيَقْرَرُ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَحَقُّ بِوِلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْ غَيْرِهِ وَهُوَ يَعْنِي عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسْتَبْعَدَ مِنْ وِلَايَةِ الْعَهْدِ، وَهُوَ مَا كَانَ يَسْعَى إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ، يَقُولُ <sup>388</sup>.

لَأَبْنُكَ أَوْلَى بِمُلْكٍ وَإِلَيْهِ      وَعُمُّهُ إِنْ عَصَاكَ مُطَّرَحُ  
 دَاوُدُ عَذْلٌ فَاحْكُمْ بِسُنَّتِهِ      ثُمَّ ابْنُ حَرْبٍ فَإِنَّهُمْ نَصَحُوا  
 وَهُمْ خِيَارُ فَاعْمَلْ بِسُنَّتِهِمْ      وَاخِي بَخِيرٍ وَكَدَحُ كَمَا كَدَحُوا

<sup>388</sup> ديوانه، 107، الأغاني، 82/7.

ويقول صاحب كتاب الأغاني: فتبسم عبد الملك ولم يتكلم في ذلك بإنذار (بإقرار) ولا دفع، فعلم الناس أن رأيه خلع عبدالعزيز، وبلغ ذلك من قول النابغة عبدالعزيز فقال: لقد أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا ضيقا فأوردها موردا خطرا، وبالله علي لئن ظفرت به لأخضبن قدمه.

وتعليقا على قول أبي الفرج إن النابغة كان منقطعا إلى عبد الملك مداحا له، فهذا يعني أن له قصائد غير القصيدة التي بين أيدينا، وقد حاولت جهدي العثور على أشعار ومدائح للنابغة في عبد الملك إلا أنني لم أوفق في العثور على غير هذه القصيدة، ويبدو أن تلك القصائد قد آلت إلى الضياع شأنها شأن كثير من أشعار العرب.

كان أعشى ربيعة مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية، وقد مدح عبد الملك ونال صلاته، يقول أبو الفرج الأصفهاني : قدم أعشى بني ربيعة على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: ما الذي بقي منك ؟ قال: أنا الذي أقول<sup>390</sup>:

وما أنا في أمري ولا في خُصومتي      مُهْتَضِمٌ حَقِّي ولا قَارِعٌ سِنِّي  
ولا مُسْلِمٌ مَوْلَايَ عِنْدَ جِنَايَةٍ      ولا خَائِفٌ مَوْلَايَ مِنْ شَرِّ مَا أَجْنِي  
وإنَّ فُؤادي بَيْنَ جَنَبَيَّ عَالِمٌ      بِمَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي وَمَا سَمِعْتُ أُذْنِي  
وفَضَّلني في الشُّعْرِ وَاللِّبِ أَنَّنِي      أَقُولُ عَلَى عِلْمٍ وَأَعْرِفُ مَنْ أَعْنِي  
فَأَصْبَحْتُ إِذْ فَضَّلْتُ مَرْوَانَ وَابْنَهُ      عَلَى النَّاسِ قَدْ فَضَّلْتُ خَيْرَ أَبٍ وَابْنِ

فقال عبد الملك: من يلومني على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف درهم، وأجزل له العطايا....

فمروان وعبد الملك بن مروان هما خير الناس وأفضلهم، والشاعر إنما يصدر في هذا الحكم من قناعته المطلقة، فقد آمن قلبه إيماناً مطلقاً بما سمع وأبصر

<sup>389</sup> هو عبدالله بن خازجة بن حبيب من بني ربيعة بن ذهل بن شيبان، شاعر اشتهر في أيام بني مروان، ووقف معهم ضد خصومهم، له مدائح في عبد الملك وبشر ابني مروان وفي سليمان ابن عبد الملك، توفي نحو 100هـ، الأغاني

95/18

<sup>390</sup> الأغاني، 95/18، العقد الفريد، 217/1



من فضل عبدالمملك وفضل أبيه، وهو يعلم علم اليقين صحة ما ذهب إليه، وبسبب قناعة عبدالمملك بصدق ولائه له، أمر له بجائزة حسنة.

يذكر أبو الفرج أن أعشى ربيعة دخل على عبدالمملك وهو يتردد في الخروج لمحاربة ابن الزبير ولا يجد، فقال: يا أمير المؤمنين مالي أراك مُتَلَوِّماً يُنْهَضُكَ الحِزْمُ وَيُقْعِدُكَ العِزْمُ، وتهتم بالإقدام وتجنح إلى الإحجام، انْقَدْ لبصيرتك وأمض رأيك، وتوجه إلى عدوك، فجدك مقبل، وجده مدبر، وأصحابه له ماقتون، ونحن لك محبون، وكلمتهم متفرقة، وكلمتنا عليك مجتمعة، والله ما نُؤْتِي من ضعف جنان، ولا قلة أعوان، ولا يثبطك عنه ناصح، ولا يحرضك عليه غاش، وقد قلت في ذلك أبياتا، فقال: هاتها فإنك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح، فقال:

أَلْ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخَلَاقَةِ كَالَّتِي	عَجَلَ النَّتَاجُ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا
أَوْ كَالضَّعَافِ مِنَ الْحَمُولَةِ حُمِّلَتْ	مَا لَا تُطِيقُ فَضَيَّعَتْ أَحْمَالَهَا
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ	كَمْ لِلْغَوَاةِ أَطْلُتُمْ مَوَا إِنْهَايَهَا
إِنَّ الْخِلَاقَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ	مَا زِلْتُمْ أَزْكَانَهَا وَغَمَالَهَا <sup>391</sup>
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مُغْلَقاً	فَانْهَضْ بِبَيْنِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا

<sup>391</sup> غمالتها: غياثها

فضحك عبدالمملك وقال: صدقت يا أبا عبد الله، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير ولا  
نتأخر عن مناجزته إن شاء الله، ونستعين الله عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأمر له  
بصلة سنية<sup>392</sup>.

فأعشى ربيعة لا يرى ابن الزبير أهلاً للخلافة، وهو يحرض عبدالمملك على محاربته  
وقتاله، ويؤكد أن الخلافة حق للأمويين لا للزبيريين، وصف ابن الزبير بأنه غاو وضال، كما يرى  
أن الخلافة يجب أن تكون في بني مروان لا في غيرهم<sup>393</sup>.  
وكان قد دخل على عبدالمملك وأنشده قوله<sup>394</sup>.

رَأَيْتُكَ أُمْسٍ حَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ حَيْرٌ مِنْكَ أُمْسٍ  
وَأَنْتَ عَدَاً تَزِيدُ الضُّعْفَ ضُعْفًا كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةً عَبْدَ شَمْسٍ

فأعشى ربيعة يرى عبدالمملك خير بني معد، وهو في كل يوم يكون خيراً من اليوم السابق  
له، كما أن أعطياته تتضاعف دائماً، وهذه هي سمة سادة بني عبد شمس، هذه هي الصورة  
التي رسمها أعشى ربيعة لعبدالمملك فيما وصل إلينا من شعره.

<sup>392</sup> الأغاني، 96/18

<sup>393</sup> أدب السياسة في العصر الأموي، الحوفي، 158

<sup>394</sup> الأغاني، 98/18

صورته في شعر إبي صخر الهذلي<sup>395</sup>

كان أبو صخر الهذلي من المواليين لبني مروان، متعصبا لهم، له في عبد الملك وفي أخيه عبدالعزيز مدائح وقد جر عليه حبه لبني أمية السجن<sup>396</sup>، وقد ذكر أبو الفرج أن أبا صخر الهذلي قد دخل مع هذيل على عبدالله بن الزبير بعد موت يزيد ليقبضوا عطاءهم، فمنعه ابن الزبير من العطاء بسبب هواه الأموي، وجرت بينهما ملاحاة أدخل على أثرها سجن عارم، فحبس فيه مدة، وخرج من السجن، ولما كان عام الجماعة لقيه عبد الملك في الحج، فقربه وأداناه وقال له: إنه لم يخف علي خبرك مع الملحد (يعني ابن الزبير)، ولا ضاع لك عندي هواك وموالائك<sup>397</sup>.

ثم استأذنه في الإنشاد، فقال قصيدته التي مطلعها<sup>398</sup>.

عَفْتُ ذَاتُ عَرَقٍ عَصَلُهَا قَرِنَاْمَهَا      قَدَهْنَاؤُهَا وَحَشُّ وَأَجَلَى سَوَاْمَهَا<sup>399</sup>

وقد بلغت مقدمتها ستة عشر بيتا، وهي مقدمة طلبية، وفي البيت السابع عشر يصل إلى مدح عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الذي قضى على ابن الزبير

<sup>395</sup> هو عبدالله بن سلم السهمي، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية، كان مواليا لبني مروان متعصبا لهم، له في عبد الملك وفي أخيه عبدالعزيز مدائح، حبسه عبدالله بن الزبير، وبقي في الحبس حتى مقتل ابن الزبير، الأغاني 62 / 24

<sup>396</sup> شعراء أمويون، 12 / 3

<sup>397</sup> انظر الرواية في الأغاني، 63 / 24

<sup>398</sup> شعراء شاميون، 88 / 3، الأغاني، 63/24، مع وجود اختلاف في ترتيب أبيات القصيدة وبعض مفرداتها في هذين المصدرين.

<sup>399</sup> عصل ورنام ودهناء: أسماء مواضع، السوام: الإبل الراعية ( لسان العرب: مادة سوم ).

والزبيرين وأنهى دولتهم، وظهر مكة منهم بعد أن نشروا فيها الفساد، واستحلوا حرمتها، حتى الطيور والحمام لم يسلم من ظلمهم، يقول :

وَقَدْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي رَمَى بِجَاوَاءِ جُمْهُورٍ مَمُورٍ إِكَامُهَا  
مِنْ أَرْضٍ قُورَى الزَّيْتُونِ مَكَّةَ بَعْدَمَا غَلَبْنَا عَلَيْهَا وَاسْتَحْلَلْ حَرَامُهَا  
وَإِذْ عَاتَتْ فِيهَا النَّاكِثُونَ وَأَفْسَدُوا فَخَافَتْ قَوَاشِيهَا وَطَارَ حَمَامُهَا<sup>400</sup>  
فَطَهَّرَ مِنْهُمْ بَطْنَ مَكَّةَ مَا جِدَّ أَيْ شَبَابَةَ الضَّيْمِ حِينَ يُسَامُهَا  
وَمِنْ رَأْيِهِ ذِي الْفَضْلِ وَالْيَمْنِ وَالتَّقَى أَغْرَ سَمَآوِيٍّ إِلَيْهِ زِمَامُهَا

ويصف جانباً من المعركة، وما جرى فيها من أحداث، ويصف عسكر عبد الملك، ذلك الجيش العرمم الذي جاء به لاستخلاص مكة، واستطاع أن يحسم المعركة لصالحه، وأن يطهرها منهم:

يَشُجُّ بِهَا عَرَضَ الْفَلَاةِ تَعَسُفًا وَأَمَّا إِذَا يَخْفَى مِنْ أَرْضِ عِلَامُهَا  
فَصَبَّحَهُمُ بِالْخَيْلِ تَزَحُفُ بِالْقَنَا وَبَيَضاءَ مِثْلِ الشَّمْسِ يَبْرُقُ لَأْمُهَا  
لَهُ عَسَكْرٌ طَاحِي الصُّفَافِ عَرْمَرَمٌ وَجُمْهُورَةٌ يَزْهَى الْعَدُوُّ اخْتِدَامُهَا  
فَطَهَّرَ مِنْهُمْ بَطْنَ مَكَّةَ مَا جِدَّ أَيْ شَبَابَةَ الضَّيْمِ حِينَ يُسَامُهَا

أما الصفات التي يتصف بها عبد الملك وتزدان بها صورته الجميلة فهي الرأي السديد واليمن والتقوى، فهو الأغر الماجد الذي يأبى الضيم ولا يقبل به .

<sup>400</sup> الفواشي: المال الراعي

ويؤكد على صفات الأمويين المتمثلة بالكرم والشجاعة وحماية الحمى، فهم أكرم قریش، وهم الغيث الذي يغيث الناس، شجعان في المعارك<sup>401</sup>.

وَمَا مِنْ قَبِيلٍ الْمُؤْمِنِينَ قَبِيلَهُ      وَلَوْ كَرَّمْتَ إِلَّا قُرَيْشٌ كِرَامُهَا  
هُمْ الْبَيْضُ أَفْدَاماً وَدِيَاً أَوْجُهُ      وَعَئِثْ إِذَا الْجَوَزَاءُ قَلَّتْ رِهَامُهَا  
هُمْ فَضَلَّتْ الْمَوْتَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ      وَبَحَرٌ وَأَنْهَارٌ تَفِيضُ جِمَامُهَا  
وَلَوْ لَا قُرَيْشٌ لَأَسْتَرْقَتْ عَجُوزُكُمْ      وَطَالَ عَلَى قُطْبِي رَحَامَا اخْتِرَامُهَا

وهو من الشعراء الذين وظفوا شعرهم في مدح الأمويين والدفاع عن حقهم في الخلافة، معترفاً بكل الفضائل التي تعطيهم أحقيتها.

<sup>401</sup> شعراء أمويون، 92

صورته في شعر عبدالله بن الزبير الأسدي<sup>402</sup>

كان عبدالله بن الزبير الأسدي من شيعة بني أمية، متعصبا لهم، وقد مدح عبدالمملك  
بن مروان لما قتل عبدالله بن الزبير فقال<sup>403</sup> .

مشى ابنُ الزُّبيرِ القَهْقَرى فتقدَّمت أميُّه حتَّى أحرزوا القَصَباتِ

وجئتُ المُجَلِّي يا ابنَ مروانَ سابقاً أمامَ قريشٍ تنفضُ العُدْراتِ

فلا زلتَ سباقاً إلى كُلِّ غايَةٍ من المجدِ نَجاءً من العَمَراتِ

ومدح عبدالمملك بشعر فيه ثناء على أخيه بشر بن مروان، فقال<sup>404</sup> :

أقولُ: أميرَ المؤمنينَ عَصَمْتَنَا بَبَشْرِ من الدَّهرِ الكثيرِ الرِّلازِلِ

وأطفأتَ عَنَّا نارَ كُلِّ منافقٍ بأبيضِ بُهلولٍ طويلِ الحمائلِ<sup>405</sup>

مَمَّتْهُ قُرومٌ من أُميَّةٍ للعُلا إذا افتخرَ الأقوامُ وسطَ المحافِلِ<sup>406</sup>

هو القائدُ الميمونُ والعِصمةُ التي ألقى حَقُّها فينا على كُلِّ باطلٍ

<sup>402</sup> عبدالله بن الزبير الأسدي شاعر من شعراء الكوفة المشهورين بالهجاء في العصر الأموي، من بني أسد بن خزيمه، كان من شيعة بني أمية ومن ذوي الهوى فيهم والتعصب لهم، ولما استقام الأمر لمصعب بن الزبير في الكوفة تم أسره، فأطلقه مصعب ووصله وأحسن إليه، فمدحه مدائح كثيرة، وانقطع إليه إلى أن قتل، أصيب بالعمى في أخريات أيامه، ومات في زمن عبدالمملك بن مروان، جمع شعره يحيى الجبوري، الأغاني، 14 / 140

<sup>403</sup> الأغاني، 14 / 157

<sup>404</sup> الأغاني، 14 / 161، شعر عبدالله بن الزبير الأسدي، تحقيق يحيى الجبوري، 64

<sup>405</sup> الأبيض: نقي العرض، البهلول: السيد الجامع لكل خير، الحمائل: جمع حمالة وهي علاقة السيف، كناية عن

الطول

<sup>406</sup> ممتة قروم: أنجبته سادات كرام

أَقَامَ لَنَا الدِّينَ الْقَوِيمَ بِحِلْمِهِ      وَرَأَى لَهُ فَضْلٌ عَلَى كُلِّ قَائِلٍ  
أَخَوْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ بِهِ      نَجَادُ وَنُسْقَى صَوْبَ أَشْحَمِ هَاطِلٍ<sup>407</sup>  
إِذَا مَا سَأَلْنَا رِفْدَهُ هَطَلَتْ لَنَا      سَحَابَةٌ كَفَيْتِهِ بِجُودٍ وَوَابِلٍ<sup>408</sup>  
حَلِيمٌ عَلَى الْجُهَّالِ مَنَّا وَرَحْمَةٌ      عَلَى كُلِّ حَافٍ مِنْ مَعَدٍّ وَنَاعِلٍ

ونلاحظ من خلال قراءتنا لهذا الشعر أن عبد الله بن الزبير الأسدي قد مدح الخليفة عبد الملك ومدح بشرا أخاه في المقطوعة نفسها، وقد وصفهما بالصفات الإسلامية إلى جانب الصفات التقليدية، وزاوج الشاعر بين الألفاظ السهلة الرقيقة والألفاظ الجزلة التي تحتاج إلى تفسير معجمي لمعرفة معانيها، واستخدم الصور البيانية في هذه الأبيات، فالخليفة عصمه ببشر من الزلازل والفتن، وأطفأ نار الفتن هذا القائد الميمون الذي سيحق الحق ويبطل الباطل، وهو الذي غمرهم بحلمه ورأيه الصائب وهو بذلك يكون قد أقام قواعد الدين بينهم، وأمير المؤمنين هو صاحب الفضل الذي يغدق عليهم كرمه ويغض الطرف عن مخطئهم.

<sup>407</sup> الصوب: المطر، أشحم: سحب أسود متكاثف

<sup>408</sup> الجود: المطر الغزير، الوابل: المطر الشديد

صورته في شعر عبدالله بن الحجاج<sup>409</sup>

عده أبو الفرج من الشعراء الفتاك الشجعان، ومن معدودي فرسان مضر ذوي  
البأس والنجدة فيهم، وكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد على عبدالمملك بن مروان، فلما قَتَلَ  
عبدالمملك بن مروان عمراً خرج مع نجدة بن عامر الحنفي، ثم هرب، فلحق بعبدالله بن  
الزبير فكان معه إلى أن قتل، ثم جاء إلى عبدالمملك متنكراً واحتال عليه حتى آمنه<sup>410</sup>.

وقد بلغه أن الحجاج بن يوسف الثقفي كتب إلى عبدالمملك يعرفه آثار عبدالله بن  
الحجاج، وبلاءه في محاربته، وأنه بلغه أنه آمنه، ويحرضه ويسأله أن يوفده إليه ليتولى قتله،  
فوقف بين يدي عبدالمملك وقال<sup>411</sup>:

أَعُوذُ بِتَوْبِيكَ اللَّذِينَ ارْتَدَاهُمَا      كَرِيمُ الثَّنَا مَنْ جِيئَهُ الْمُسْكُ يَنْفُجُ  
فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا فَكُنْ أَنْتَ آكِلِي      وَإِنْ كُنْتُ مَذْبُوحًا فَكُنْ أَنْتَ تَذْبِحُ

فقال عبدالمملك ما صنعت شيئا، فقال عبدالله:

لَأَنْتَ وَخَيْرُ الظَّافِرِينَ كِرَامُهُمْ      عَنِ الْمَذْنِبِ الْخَاشِي الْعِقَابَ صَفُوحُ

<sup>409</sup> هو عبدالله بن الحجاج بن محصن المازني، شاعر فاتك من فرسان مضر ذوي البأس والنجدة فيهم، خرج على  
عبدالمملك بن مروان مع عمرو بن سعيد، ولما قتل عمرو خرج مع نجدة بن عامر الحنفي، ثم هرب والتحق  
بعبدالله بن الزبير، ولما قتل ابن الزبير دخل متنكراً على عبدالمملك، وأنشده شعراً فأمنه، مات نحو 90هـ. الأغاني

110/13

<sup>410</sup> الأغاني، 110/13

<sup>411</sup> الأغاني، 120/13، شعراء شاميون، 302/3



ولو زَلَقْتُ من قبلِ عَفْوِكَ نَعْلَهُ      تَرَامَى بِهِ دَخْضُ الْمَقَامِ بَرِيحُ  
مَى بَكَ إِنَّ خَانَتْ رَجَالاً عُرُوفُهُمْ      أرومٌ ودينٌ لمْ يَخْنُكْ صَاحِبُ  
وَعَرَفَ سَرَى لمْ يَسِرْ فِي النَّاسِ مِثْلُهُ      وشأؤُ على شأوِ الرِّجَالِ مَتَوَحُ  
تَدَارَكْنِي عَفْوُ ابْنِ مِرْوَانَ بعدما      جرى لي من بعد الحياة سَنِحُ  
رَفَعْتُ مَرِيحاً نَاطِرِي ولمْ أَكْذُ      من الهمِّ والكربِ الشَّدِيدِ أَرِيحُ

لقد أضافى عبدالله بن الحجاج على عبدالمملك بعد أن طلب منه العفو صفات الخير، ورسم له صورة جميلة لونها بألوان تليق بمقامه كخليفة، فهو من خير الظافرين وكرامهم ومن الذين يصفحون عن المذنبين الخاشين العقاب، وقد نمت بعبدالمملك أرومة عريقة ودين صحيح، وعرف لم يسر في الناس مثله، وشأؤ بعيد بين الرجال يصعب عليهم الوصول إليه، ويضع الشاعر نفسه موضع التقصير، ويضع الخليفة في موضع النموذج<sup>412</sup>.

أما قصيدته التي يقول فيها:

أَبْلَغُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنِّي      مِمَّا لَقِيتُ من الحوادثِ مَوْجِعُ

والتي أوردها أبو الفرج في الأغاني على شكل حوار دار بين الشاعر وعبدالمملك بن مروان<sup>413</sup> فيرسم فيها الشاعر الصورة التالية للخليفة، يقول فيها:

وَلَقَدْ وَطِئْتُ بَنِي سَعِيدٍ وَطَاءً      وَابْنَ الزُّبَيْرِ فَعَرَّشُهُ مُتَّصَعُجُ

<sup>412</sup> شعراء شاميون، 3/289

<sup>413</sup> الأغاني، 111/13

مَا زَلَتْ تَضْرِبُ مَنْكِبًا عَنْ مَنْكِبٍ      تَعْلُو وَيَسْفُلُ غَيْرُكُمْ مَا يُرْفَعُ  
 وَوَطِئْتُمْ فِي الْحَرْبِ حَتَّى أَصْبَحُوا      حَدَثًا يَكُوسُ وَغَابِرًا يَتَجَعَّجُ  
 فَحَوَى خِلَافَتَهُمْ وَلَمْ يَظْلِمْ بِهَا      الْقَرْمُ قَرْمُ بَنِي قُصَيِّ الْأَنْزَعُ  
 لَا يَسْتَوِي خَاوِي نُجُومٍ أَقْلٍ      وَالْبَدْرُ مُنْبَلَجًا إِذَا مَا يَطْلُعُ  
 وَضَعَتْ أُمِّيَّةٌ وَاسْطِينَ لِقَوْمِهِمْ      وَوَضَعَتْ وَسْطَهُمْ فَنِعَمَ الْمَوْضِعُ  
 بَيْتُ أَبِي الْعَاصِي بَنَاهُ بِرَبْوَةٍ      عَلِي الْمَشَارِفِ عَزُّهُ لَا يُدْفَعُ  
 وَأَرَى الَّذِي يَرْجُو ثَرَاتَ مُحَمَّدٍ      أَفَلَتَ نَجُومُهُمْ وَنَجْمُكَ يَسْطَعُ

فالشاعر يستحضر ما فعله عبد الملك بعمر بن سعد وقتله إياه، وقضائه على حكم ابن الزبير، وهم أي الأمويون في الحرب أشداء على أعدائهم، يذيقونهم مر العذاب، ويشبه عبد الملك بالبدر الذي يعلو ويسطع وسط السماء، في حين ترى أعداءه كالنجوم الآفلة، فلا مقارنة بينه وبينهم، ويرسم له صورة وهو يتوسط بني أمية، وبني أمية يتوسطون قومهم قريش، وكما يقال خير الأمور الوسط، ولقد بنى لهم هذا المجد العالي الذي لا يزول أبوهم أبو العاصي، ويلج على سطوع نجم عبد الملك بينما نجوم أعدائه آفلة.

أما القصيدة التي أنشدها ابن الحجاج بن يدي عبد الملك بسبب ما كان من ابنه عوين في القصة التي رواها أبو الفرج في الأغاني، فيقول فيها<sup>414</sup>:

يَا ابْنَ أَبِي الْعَاصِي وَيَا خَيْرَ فَتَى      أَنْتَ النَجِيبُ وَالْخِيَارُ الْمُصْطَفَى

<sup>414</sup> الأغاني، 117/ 13، تاريخ الطبري، 6/ 421، مع اختلاف في الرواية، شعراء أمويون، 3/ 317

أَنْتَ الَّذِي لَمْ تَضَعْ الْأَمَرَ سُدى      حِينَ كَشَفْتَ الظُّلُمَاتِ بِالْهُدى  
 مَا زِلْتَ إِنْ نَازَ عَلَى الْأَمْرِ انْتزى      قَضَيْتَهُ إِنْ الْقَضَاءُ قَدْ انْقَضَى  
 كَمَا أَذَقْتَ ابْنَ سَعِيدٍ إِذْ عَصَى      وَابْنَ الزُّبَيْرِ إِذْ تَسَمَّى وَطغى  
 وَأَنْتَ إِنْ عُدَّ قَدِيمٌ وَبَنَى      مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ فِي الشُّمَارِيخِ العُلَى  
 جَبِيْتُ قَرِيشٌ عَنْكُمْ جَوَّبَ الرَّحَى      هَلْ أَنْتَ عَافٍ عَنْ طَرِيدٍ قَدْ عَوَى

فهو يخاطب الخليفة عبدالملك ويصفه بأنه خير فتى، وأنه النجيب الذي الذي اصطفاه الناس ليسوسهم، فلم يترك الأمور على علاتها، فأحق الحق وأبطل الباطل، وهو يقف بالمرصاد للمارقين الذين يحاولون الوثوب على الخلافة فيجري فيهم أمر الله وقضاءه، فها هو عمرو ابن سعيد وعبدالله بن الزبير عندما وثب كل منهم على الخلافة نالا ما يستحقانه من عبدالملك، وعبدالملك عندما يُعد بنو عبد شمس فهو أفضلهم وأعلاهم، فهم وسط في قريش، وهم محورها الذي تتكئ عليه، وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه، قال للانصار يوم السقيفة: إنما جيبت العرب عنا كما جيبت الرحي عن قطبها أي خرقت القطب عنا، فكنا وسطا، وكانت العرب حوالينا كالرحى وقطبها الذي تدور عليه<sup>415</sup>.

وفي نهاية هذه القصيدة يطلب الشاعر من الخليفة أن يعفو عن زلة ابنه عويف الذي ذاق مرارة التشرد بسبب فعلته التي فعل، وما كان من عبدالملك إلا أن استجاب لدعوته وأمر بتحمل ما يلزم ابنه من غرم وعقل، وأمنه<sup>416</sup>.

<sup>415</sup> لسان العرب، مادة جوب

<sup>416</sup> الأغاني، 13 / 118

ونلاحظ كما لاحظ نوري القيسي أن أكثر أخبار الشاعر مع عبد الملك كانت تأتي من باب الاعتذار أو الشفاعة أو الترجي، وربما كانت هذه الحالة قد حملته أن يقول كثيرا من قصائده في تبرير مواقفه أمام الخليفة، وهو بالتالي مضطر إلى أن يقف موقف المادح ليقوي موقفه ويجد الطريق لتحقيق غرضه، ولكن هذا الاضطرار كان يعبر في بعض الأحيان عن نزوع صادق بعد أن يستجيب الخليفة لهذا الرجاء، ويتحمل ما يترتب على مطلبه من غرم أو عقل أو أمن أو عفو<sup>417</sup>.

وكذلك اعتبر علي أحمد عبد الله أن ابن أبي الحجاج يرسم في قصيدتيه السابقتين صورتين إحداهما للشاعر الذي يعتذر عما بدر منه من أخطاء وزلات، ويلتجئ للخليفة ويتعلق بثيابه لكي يعفو عنه، والصورة الثانية للخليفة الذي يفوح المسك منه، وهو الذي يستطيع أن يفعل ما يشاء بالشاعر، والشاعر راض بحكم الخليفة<sup>418</sup>.

<sup>417</sup> شعراء شاميون، 291 / 3

<sup>418</sup> انظر: قصيدة الاعتذار حتى نهاية العصر الأموي، علي أحمد عبد الله، 178.

صورته في شعر إسماعيل بن يسار النسائي<sup>419</sup>

كان إسماعيل بن يسار النسائي منقطعاً إلى الزبيريين طوال فترة انتفاضتهم على الحزب الأموي، وبعد مقتل عبدالله بن الزبير ارتقى ابن يسار في أحضان الأمويين<sup>420</sup>. وعندما دخل على عبدالملك واستأذنه في الإنشاد قال له عبدالملك: " الآن يا ابن يسار ! إنما أنت امرؤ زبيري، فبأي لسان تنشُد ؟ " فأجابه ابن يسار: " يا أمير المؤمنين أنا أصغر شأننا من ذلك، وقد صفحت عن أعظم جرماً وأكثر غناء لأعدائك مني، وإِنما أنا شاعر مضحك " فتبسم عبدالملك، وأوماً الوليد إلى الشاعر أن ينشد، فأنشد قصيدته التي مطلعها<sup>421</sup>.

أَلَا يَا لَقَوْمِي لِلرُّقَادِ الْمُسَهَّدِ      وللماء ممنوعاً من الحائم الصَّدي

وفي هذه القصيدة يقول ابن يسار لعبدالملك<sup>422</sup>:

إِلَيْكَ إِمَامَ النَّاسِ مِنْ بَطْنِ يَثْرِبٍ      وَنَعَمَ أَخُو ذِي الْحَاجَةِ الْمُتَعَمِّدِ  
رَحَلْنَا لِأَنَّ الْجُودَ مِنْكَ خَلِيفَةٌ      وَأَنْتَ لَمْ يَذُمَّمُ جَنَابُكَ مُجْتَنَدِي  
مَلَكَتْ قَرِذَتِ النَّاسِ مَا لَمْ يَزِدْهُمْ      إِمَامٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ غَيْرِ الْمَصْرَدِ  
وَقُفِّمَتْ وَلَمْ تُنْقِصْ قَضَاءَ خَلِيفَةٍ      وَلَكِنْ بِمَا سَارُوا مِنَ الْفَعْلِ تَقْتَدِي

<sup>419</sup> إسماعيل بن يسار مولى بني تميم بن مرة، كان منقطعاً إلى آل الزبير، فلما أفضت الخلافة إلى عبدالملك بن مروان وفد إليه مع عروة بن الزبير، ومدحه ومدح الخلفاء الأمويين من بعده، الأغاني 4/ 285

<sup>420</sup> شعر إسماعيل بن يسار، يوسف بكار، 12

<sup>421</sup> شعر إسماعيل بن يسار، 30، الأغاني، 4/ 293

<sup>422</sup> شعر إسماعيل بن يسار، 30، الأغاني 4/ 293

وَمَا وَلِيْتَ الْمُلْكَ ضَارِبَتْ دُونَهُ وَأَسْنَدَتْهُ لَا تَأْتِي خَيْرَ مُسْنَدٍ

جَعَلْتَ هَشَامًا وَالْوَلِيدَ ذَخِيرَةً وَلِيَيْنِ لِلْعَهْدِ الْوَثِيقِ الْمُؤَكَّدِ

فَنظر إليهما عبدالمملك متبسما، والتفت إلى سليمان فقال: أخرجك من هذا الأمر. فقطب سليمان ونظر إلى إسماعيل نظر مغضب. فقال إسماعيل: يا أمير المؤمنين، إنما وزن الشعر أخرجه من البيت الأول، وقد قلت بعده:

وَأَمْضَيْتَ عَزْمًا فِي سُلَيْمَانَ رَاشِدًا وَمَنْ يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ مِثْلَكَ يَرُشِدِ

فأمر له بألفي درهم صلة.... فعبدالمملك هو إمام الناس، وهو مقصد المحتاجين وقبلتهم لشدة جوده وكرمه، وجود عبدالمملك ليس جودا طارئا وإنما هو سجية وطبع من طباعه، وهو لم ينقص الناس عطاءهم وإنما زاد في تلك الأعطيات لشدة كرمه، لقد انتهج نهج الخلفاء الذين سبقوه في المعروف، وقد تخير أفضل الناس لولاية العهد فأسندها للوليد ولهشام من بعده، ولم ينس ولده سليمان أيضا فكان له نصيبه من ولاية العهد بعد أخويه، فعبدالمملك معتمصم بالله لا يضل أبدا. هذه هي الصورة التي رسمها ابن يسار لعبدالمملك في قصيدته هذه، وهي صورة شبيهة بصور من سبقه من الشعراء المتكسبين.

يقول محمد نافع المصطفى في تعليقه على هذه القصيدة " فرغم الرهبة في صدر الشاعر لم يسمح لسانه أن يلهج بإقرار منه لعبدالمملك بالخلافة، فهو إمام الناس وليس أمير المؤمنين، ومن بطن يثرب، وفي ذلك استدعاء لحال يثرب قبل أن يهاجر إليها الرسول، واستحضار ذهني من السامع لحال صراع قبائلها واحترابهم، ولو صفا قلبه لعبدالمملك وأقر له بالخلافة لوضعه على جادة صاحب الرسالة (ص)

فذكر المدينة المنورة عاصمة دولة الرسول والخلفاء الراشدين، ولا يخفي ذلك من سريال شرعي لمن يقوم بالأمر، ثم لا يكتف دوافع حركته إليه، بعد أن بلغه سعة جوده وعظم عطائه للمجتدين، فخطواته تقودها رغبة جامحة بالعطاء عله يرجع من نداه بشيء<sup>423</sup>.

---

<sup>423</sup> الزبيريون في التاريخ والأدب، محمد نافع المصطفى، 113

صورته في شعر الأحمر بن سالم المري<sup>424</sup>

دخل الأحمر بن سالم المري الشاعر على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا أحمر كيف قلت:

مُقَلٌّ رَأَى الْإِفْلَالَ عَارًا فَلَمْ يَزَلْ  
يَجُوبُ بِلَادَ اللَّهِ حَتَّى تَمُوتَ

فأنشده، فأصغى إليه مطرقاً، فلما فرغ قال له: حاجتك ؟ قال: أنت أمير المؤمنين أعلى  
بالجميل عينا، فافعل ما أنت أهله، فإني لما أوليتني غير كافر.

فأمر له عبد الملك بعشرة آلاف درهم، وألحقه في الشرف، فخرج من عند عبد الملك وهو  
يقول:

بِكُفِّ ابْنِ مَرْوَانَ حَيَّيْتُ وَنَاشَنِي	إِلَهِي مِنْ دَهْرٍ كَثِيرِ الْعَجَائِبِ
فَأَذْرَكْنِي وَالرُّكْنَ مَنِّي مُضْعَضَعٌ	وَقَدْ أَشْرَفَ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَقَالُوا هُوَ الْمُرِّي سَيِّدُ قَوْمِهِ	عُرُوقُ مَمْنَهُ مِنْ لَوْيِّ بْنِ غَالِبِ
فَقُلْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ لَا بِحَمْدِ غَيْرِهِ	وَحَمْدِ ابْنِ مَرْوَانَ نَجَوْتُ وَصَاحِبِي
مَنْ اللَّيْثِ إِذْ نَحَى إِلَيَّ بَنَانَهُ	وَكَانَ أَلَيْمًا أَخَذَهُ لِلْمُحَارِبِ
فَأَقْلَبْتُ مِنْهُ بَعْدَمَا قَدْ تَشَبَّثَ	بِشُلُوبِي مِنْ مَوْجِدَاتِ الْمَخَالِبِ
وَكَانَ ابْنُ مَرْوَانَ يَرْأُبُ الثَّأْيَ	وَيُشْعِبُ مَا أَعْيَا بِهِ كُلَّ شَاعِبِ

<sup>424</sup> الأحمر بن سالم المري، شاعر أموي، مدح عبد الملك بن مروان، وتعرض للحجاج بن يوسف الثقفي بالهجاء، فأحرقه الحجاج في النار بالعراق، تاريخ دمشق 350/7



وَيُعْطِي الْمُنَى مَنْ جَاءَهُ مُتَنَصِّفًا  
وَكَمْ لَابِنِ مِرْوَانَ عَلَى النَّاسِ مِنْ يَدٍ  
تَدَارَكَ دِينَ اللَّهَ إِذْ هُدِّدَ رُكْنُهُ  
يَحْزِمُ وَجَدًا لَا يُجَارَى وَجْدَةً  
وَحَلِمٍ عَنِ الْجُهَالِ إِذْ شَتَفُوا لَهُ  
فَنَازَلَهُمْ بِالسَّيْفِ صَلَتًا وَنَاصِرٌ  
فَوَلَّى جُمُوعَ الْمُلْحَدِينَ وَأَذْبَرُوا  
وَقَوْمَ دِينَ اللَّهَ مِرْوَانُ وَابْنُهُ  
هُمَا صَدَقَا الْأَعْدَاءَ فِي مُرْجَحَنَةِ  
وَلَوْ وَقَفُوا صَارُوا حَدِيثًا لَخَلَفِهِمْ  
وَقَامَ لَنَا مِنْ بَعْدِ مِرْوَانُ وَابْنُهُ  
فَدَوَّخَ مَنْ عَادَى إِلَاهَهُ بِصَوْلَةٍ

وَفَوْقَ الْمُنَى وَرَغْبَةً الْمُتَرَاغِبِ  
إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ تُخْزِهِ فِي الْمَحَاصِبِ  
وَأُطِمَّحَ فِيهِ كُلُّ نَكِيسٍ وَجَانِبِ  
وَصَبِرَ عَلَى وَقْعِ السُّيُوفِ الْقَوَاضِ  
وَسَارُوا بِجَمْعٍ مُطْلَخٍ مِنَ الْكُتَائِبِ  
مَنْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِغَائِبِ  
كَمَا أَذْبَرَتْ مِلَّ الْأَسَدِ نَوْرَ التَّعَالِبِ  
وَلَمْ يَرْجُمَا مَا جَمَعُوا بِالتَّكَادُّبِ  
تَوَلَّوْا حِذَارَ الشَّرْمَحِيِّ الضُّبَاضِ  
كَمَا حَدَّثَ الْأَقْوَامُ عَنْ أَهْلِ مَآرِبِ  
بَحْزِمٍ وَرَأَى غَيْرَ هَدٍّ مَوَارِبِ  
يَبْصُصُ مِنْهَا كُلَّ خِرْقِي مُحَارِبِ<sup>425</sup>

<sup>425</sup> الأخبار الموفقيات، 410

صورتَه في شعر القطامي<sup>426</sup>

وللقطامي قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها ثمانية وتسعين بيتا، ذكر محققا الديوان أنه قالها يمدح عبدالملك بن مروان، وقد جاء ذكره لعبد الملك في أربعة أبيات فقط، يقول<sup>427</sup>:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَدَى وَنُورٌ    كَمَا جَلَى دُجَى الظُّلَمِ النَّهَارُ  
قَرِيعُ بَنِي أُمَيَّةَ مِنْ قَرِيشٍ    هُمْ السَّرُّ الْمَهْدَبُ وَالنَّضَارُ  
وَعَبْدُ الْمَلِكِ لِلْفُقَرَاءِ طَعْمٌ    وَحِرْزٌ لَيْسَ مَعْقَلُهُ يُضَارُ  
وَقَدْ حَمَلَ الْخِلَافَةَ ثُمَّ حَلَّ    بِهَا عِنْدَ ابْنِ مَرْوَانَ الْقَرَارُ

فهو يصوره في هذه الأبيات صورة يجعله فيها هدى ونورا يضيء نور النهار في إجلاء الظلام، وهو ملاذ الفقراء، عنده يجدون ما يريدون ويحتاجون.

<sup>426</sup> هو عمر بن شبيب بن عمرو التغلبي، وهو ابن أخت الأخطل، ويقال إنه من الأرقام من تغلب، كان نصرانيا وأسلم، صنفه ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول الإسلام، وكان معاصرا للوليد بن عبدالملك، أراد مدحه وتحول عنه إلى عبدالواحد بن سليمان فمدحه، ومدح زفر بن الحارث بعدما أسره وفك أسره، ويقال إنه توفي حوالي سنة 101هـ له ديوان شعر مطبوع. انظر: مقدمة ديوانه، الأغاني 13/24، طبقات فحول الشعراء 534/2

<sup>427</sup> ديوانه، 137

صورته في شعر جواس بن القعطل<sup>428</sup>

وجعل جواس بن القَعْطَل الكليي الخلافة حقا خالصا لبني أمية لا يشاركهم فيها  
أحد، ودعاهم إلى المحافظة عليها باتباع الحزم والشدة، ووصف خصومهم بالنفاق والإلحاد،  
يقول<sup>429</sup> :

أَبْدَأْ تَدُرُّ لِغَيْرِكُمْ تَذْيَاهَا	إِنَّ الْخِلَافَةَ يَا أُمِيَّةَ لَمْ تَكُنْ
لَا يَخْلُبُنَّ الْمُلْحِدُونَ صَرَاهَا	فَخُذُوا خِلَافَتَكُمْ بِأَمْرِ حَازِمٍ
لَا تُصْلِحُوا وَسَوَاكُم مَوْلَاهَا	سِيرُوا إِلَى الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَشَمَّرُوا
إِلَّا أَمَلْتُمْ بِالسُّيُوفِ طَلَاهَا	لَا تَتَرَكُنَّ مَنَافِقِينَ بِبَلَدَةٍ

هذه هي الصورة الإيجابية الواضحة المعالم التي رسمها شعراء العصر الأموي لعبدالمملك ابن مروان من خلال قصائدهم المدحية التي نظموها فيه، وقد لاحظنا من خلال استعراضنا لها أن أكثرها قد ركز على الصفات الحميدة التي تمتع بها الخليفة عبدالمملك من كرم وجود وعراقة نسب ونخوة وشجاعة وإقدام وعفو وما إلى ذلك من الصفات، وهي الصفات التي وردت في قصائد المديح العربية الجاهلية، كما ركز كثير من هذه القصائد على الصفات الدينية التي أحب عبدالمملك أن يوصف بها والمتمثلة بالتقوى والمحافظة على دين الله ونصرتة، وإشاعة العدل والمساواة بين الناس، والبعد عن الظلم، وغيرها من القيم الدينية المحببة إلى نفس الخليفة.

<sup>428</sup> هو جواس بن القعطل بن سويد بن الحارث بن حصن بن عدي بن جناب الكليي، شاعر إسلامي أموي، اشتهر أبوه بالقعطل، شارك في معركة مرج راهط سنة 64هـ، وصحب عبدالمملك بن مروان، مات سنة 70هـ تاريخ دمشق 327 / 11.

<sup>429</sup> أنساب الأشراف 138/7

## الفصل الثاني

صورة عبدالملك بن مروان عند الشعراء الهجّائين



## صورة عبد الملك بن مروان عند الشعراء (الهجائيين )

بعد أن استعرضنا الصورة الإيجابية التي رسمها الشعراء المادحون لعبد الملك، لا بد لنا من تحديد ملامح الصورة السلبية التي رسمها له بعض الشعراء الذين تعرضوا له بالهجاء من شعراء الأحزاب المعارضة أو الشعراء الذين كانوا على خلاف معه على قلتهم، فالملاحظ أن الذين تعرضوا له من الشعراء ليسوا كثيرين أو أن ما وصل إلينا من شعر يتعرض له ليس كثيرا، وعلى الرغم من كثرة أعداء بني أمية في تلك الفترة، وكثرة المناوئين لهم وانتشار أعدائهم في بقاع كثيرة من أصقاع الدولة الإسلامية، وكثرة الشعراء المؤيدين لأعدائهم المعارضين لهم، إلا أننا لم نعثر على شعر نستطيع من خلاله أن نرسم صورة سلبية واضحة المعالم للخليفة عبد الملك بن مروان بالتحديد، وإن دل ذلك على شيء فأعتقد أنه يدل على أن هناك أسبابا وراء هذه الظاهرة، قد يكون من أهمها خوف الشعراء من الوقوع في أيدي عمال بني أمية أو في أيدي خلفائهم نتيجة ما يتحقق من انتصارات لبني أمية، ونتيجة الملاحقة المستمرة لهم كما حدث في أثناء تولي الحجاج بن يوسف الثقفي حكم العراق، وملاحقته لعدد من الشعراء والاقتصاص منهم بسبب أشعارهم التي قالوها، وبالتالي إيقاع العقاب بهم وقتلهم كما تذكر لنا بعض الروايات.

وحول هذا السبب يتحدث داود سلوم فيقول ( وقد اتبع الولاة في الأمصار سياسة خليفاتهم في المركز، فتشددوا مع الشعراء وحاربوهم أشد الحرب إذا أبدى أحدهم تفكيرا مغائرا لما عليه السياسة العامة، وقد كمن الحجاج أفواه المعارضة السياسية وتشدد مع العلويين ومع القراء الذين ثاروا مع ابن الأشعث كما فعل ابن

زياد مع حجر بن عدي الكندي من قبل حيث شهد عليه زورا وحلل قتله، فأخذ إلى الشام فقتل هو وأصحابه، وكما يبدو أن الحجاج لم يكن يحترم الشعراء.....<sup>430</sup>، أو بسبب انشغال الشعراء المعارضين لبني أمية بالدفاع عن معتقداتهم المذهبية، وانشغالهم بالحروب المتتالية مع بني أمية مثل شعراء الخوارج، أو أن بعضهم أحب أن يكون له مخرج إذا دارت الدوائر وحلت الهزيمة بالفرقة التي يؤيدها كما فعل عبيدالله بن قيس الرقيات بعد القضاء على الزبيريين، الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى عبد الملك ومدحه كما مر معنا، وكما فعل شاعر الكيسانية كثير بن عبد الرحمن الذي مدح عبد الملك بقصائد عديدة بعد أن كان يضمّر له ولبني أمية العداوة الشديدة، ولعل السبب الأكبر يكمن في ضياع قدر كبير من شعر هؤلاء الشعراء في هجاء الخلفاء الأمويين أو التكتّم عليه كما رأينا في القصائد المكتّمات التي كان يحظر إنشادها أو إذاعتها بين الناس .

وبالعودة إلى الأبيات والمقطعات القليلة التي وصلت إلينا في التعرض لعبد الملك أو آل بيت عبد الملك، نستطيع أن نتبين بعض الملامح للصورة السلبية التي رسمها الشعراء المناوئون له وإن كانت معاملها غير واضحة، وذلك على خلاف الصورة البهية واضحة المعالم التي رسمها له الشعراء المادحون.

ونبدأ أولا بالكميت بن زيد الأسدي الذي حمل في هاشمياته حملة عنيفة على الأمويين نتيجة ما فعلوه بآل البيت من قتل وتشريد واغتصاب للخلافة التي هي حق لآل البيت الهاشمي حسب قناعة الكميّ، وهو يمزج بين مدحه لآل البيت

<sup>430</sup> الشاعر الإسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، داود سلوم، 77

وهجائه للأمويين، ويقارن بين سياسة كل منهما وسلوكهما في النظر إلى مصالح المسلمين مقارنة لهدف سياسي يتمثل بتحريض الناس للثورة على الأمويين، والقضاء على دولتهم التي تمثل دولة الظلمة المثقلين بالآثام<sup>431</sup>، يقول الكميت<sup>432</sup>:

بَلْ هَوَايَ الَّذِي أُجِنُّ وَأُبْدِي	لَيْنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الْأَنَامِ
لِلْقَرِيبِينَ مَنْ نَدَى وَالتَّبْعِيدِ	نَ مَنْ الْجَوْرِ فِي عُرَى الْأَحْكَامِ
رَاجِحِي الْوِزْنَ كَامِلِي الْعَدْلِ فِي السِّ	يَرَةِ طَبِيبِينَ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
سَاسَهُ لَا كَمَنْ يَرَى رَغِيَّةَ النَّا	سِ سَوَاءَ وَرَغِيَّةَ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ	أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهْشَامِ
رَأْيُهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ دَوِي الثُّلَّةِ	فِي الثَّائِبَاتِ جُنَحِ الظَّلَامِ
جَزُ ذِي الصُّوفِ وَانْتِقَاءَ لِذِي الـ	مُخَّةٍ وَانْعَقَى وَدَعْدَعًا بِالْبِهَامِ
وَهُمُ الْأَرَأَفُونَ بِالنَّاسِ فِي الرَّأ	فَةِ وَالْأَحْلَمُونَ فِي الْأَحْلَامِ
أَخَذُوا الْقَصْدَ وَاسْتَقَامُوا عَلَيْهِ	حِينَ مَالَتْ زَوَامِلُ الْآثَامِ

فالكميت يقرر في هذه المقارنة عدل أئمة الشيعة، وينفي الظلم والجور عنهم، بينما يصف بني أمية بأنهم ظالمون جائرون، يسوسون الرعية سياسة غاشمة

<sup>431</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي، 116

<sup>432</sup> ديوانه 488



عمادها استخلاص ما يستطيعون استخلاصه، وهو يشبه الرعية بالأغنام حيث يقوم بنو أمية بجز أصوافها وشرب ألبانها وأكل لحومها، وهم لا يرحمون أحدا ممن قهرهم، إنهم ظلمة، أما بنو هاشم فهم على النقيض منهم<sup>433</sup>. وحملته على بني أمية لا تتوقف، يقول في هاشمية ثانية<sup>434</sup>:

فَتَلَّكَ وُلَاةُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُلْكُهُمْ      فَحَتَّامَ حَتَّامِ الْعَنَاءِ الْمُطَوَّلِ  
رَضُوا بِفِعَالِ السُّوءِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ      فَقَدْ أَتَمَمُوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَتَكَلَّوْا  
لَهُمْ كُلَّ عَامٍ بِدَعَّةٍ يُخَدِّثُونَهَا      أَزَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْحَلُوا  
كَمَا ابْتَدَعَ الرَّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ      كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلُ  
تَحِلُّ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْنَهُمْ      وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهْدَلِ  
فِيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ تَبْتَغِي      عَلَيْهِمْ وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمُعْوَلُ

فهذه حملة عنيفة على الأمويين، فهم برأيه ملوك سوء طال حكمهم، وهو يتمنى زوال هذا الحكم وانتهائه بأسرع ما يمكن، فبنو أمية تجردوا من الصفات الدينية، وابتدعوا البدع، فأضلوا كثيرا من الناس بضلالهم هذا، وهو يشبههم بالرهبان الذين ابتدعوا بدعا باطلة، وقد أحلوا دماء المسلمين وحرمو ما أحل الله، ويطلب من الله أن يعجل بالنصر عليهم.

<sup>433</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، 117

<sup>434</sup> ديوانه، 597

ومن الغريب أن نجد الانقلاب الشديد عند شاعر الشيعة المتعصب بعد كل هذا الحقد وهذه الحملة العنيفة على بني أمية، فإذا به يمدح عبد الملك بن مروان وابنه هشام وبني أمية بشكل عام فيقول <sup>435</sup>:

أَبْنِي أُمِّيَّةَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ

ثَقَّتِي لِكُلِّ مُلَمَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ

أَنْتُمْ مَعَادِنُ لِلْخِلَافَةِ كَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرِ

ونلاحظ من خلال قراءة أبيات هذه القصيدة الدرجة المتقدمة من النفاق السياسي التي وصل إليها الكميت الشاعر المتعصب لآل البيت، إنه الخوف من عقاب الخليفة على ما صدر عنه سابقا بحق بني أمية، وحب الكسب المادي، لذلك وجد أنه لا بد له من استرضائهم لا سيما أن كفتهم هي الراجعة.

ولعبيد الله بن قيس الرقيات قصة أخرى مع بني أمية، ومع عبد الملك وابنه الوليد، فقد كان كما ذكرنا زبيري الهوى، ولكنه كان قرشي الولاء والانتماء، وكان مختصا بمصعب بن الزبير يمدحه بأجمل الأوصاف، ونتيجة العداء الذي وقع بين الأمويين والزبيريين على الخلافة، والمعارك التي دارت بين الجانبين، وقف ابن قيس الرقيات يتهم على بني أمية، واتخذ من الغزل وسيلة للنيل منهم وإغاثتهم وتجريحهم <sup>436</sup>، فقد تغزل بأم البنين، واستطاع أن يُحَفِّظَ عليه عبد الملك وعبد العزيز

<sup>435</sup> ديوانه، 131

<sup>436</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، 123

وبني مروان جميعا، يقول مصطفى الشكعة: " كان يعتمد إلى طريقة شيطانية يغيظ بها بني أمية، حين يشبب بأم البنين زوج الخليفة الوليد بن عبدالمكك تشييبا فاضحا يضمه قصائده في مدح آل الزبير، وهو بهذا التشيبب يزلزل وقار الخلافة حينما يشبب بزوجة الخليفة وأم بنيه <sup>437</sup>، وفي الحقيقة عندما شبب ابن قيس بأم البنين لم تكن زوجا للخليفة، وإنما كانت زوجا لابن الخليفة، لأن ابن قيس انقلب يمدح بني مروان بعد مقتل عبد الله ابن الزبير في زمن الخليفة عبدالمكك، وعندما تسلم الخلافة ابنه الوليد زوج أم البنين كان ابن قيس قد نقل هواه مع بني أمية بصورة كاملة. وأم البنين هي التي تشفعت لابن قيس عند عمها عبدالمكك بن مروان بناء على طلب عبد الله بن جعفر كما تذكر رواية الأغاني <sup>438</sup> .

يقول ابن قيس الرقيات مشيبا بأم البنين زوج الوليد بن عبدالمكك وابنة عبدالعزيز بن مروان، وقد كانت أثيرة عند عمها عبدالمكك <sup>439</sup>:

أَصْحَوْتُ عَنْ أُمِّ الْبَنِيِّ	نَ وَذَكَّرَهَا وَعَنَائَهَا
وَهَجَرْتَهَا هَجْرَ امْرِئٍ	لَمْ يَقُلْ صَفْوً صَفَائَهَا
زَادَتْ عَلَى الْبَيْضِ الْحِسا	نِ بِحُسْنِهَا وَنَقَائَهَا
لَوْلَا هَوَى أُمِّ الْبَنِيِّ	نَ وَحَاجَتِي لِلْقَائَهَا
قَدْ قُرْبَتْ لِي بَعْلَةٌ	مَخْبُوسَةٌ لِتَجَائَهَا

<sup>437</sup> رحلة الشعر، مصطفى الشكعة، 92

<sup>438</sup> الأغاني، 52/5

<sup>439</sup> ديوانه 175

لقد اتخذ ابن قيس من الغزل الكيدي أو الغزل السياسي كما أطلق عليه صلاح الدين الهادي<sup>440</sup> والغزل الهجائي حسب التسمية التي أطلقها عليه طه حسين له في حديث الأربعاء<sup>441</sup> أداة لإغاظه بني أمية والكيد منهم، فقد استطاع أن يُحفظ عبد الملك بن مروان عليه بسبب تشبيهه هذا بأم البنين، ويتحدث في القصيدة التالية عن قصة لقائه بأم البنين واستجابتها له، واتصاله بها، على نحو خليق أن يؤذي أهلها من الأمويين ويغیظهم، فهو يتخذ من الغزل الهجائي وسيلة سياسية لنقد الخليفة والنيل منه<sup>442</sup>، يقول<sup>443</sup>:

أَلَا هَزَانَتْ بِنَا فُرْشِيَّ	هَـ يَهْتَزُّ مَوْكِيَّهَا
رَأَتْ بِي شَمِيئَةً فِي الرَّأ	سِ مَنِّي مَا أَعْيَبُهَا
فَقَالَتْ: أَبْنُ قَيْسٍ ذَا؟	وَعَايِرُ الشَّيْبِ يُعْجِبُهَا
وَمَمْلِكٍ قَدْ لَهَوْتُ بِهَا	مَمَامُ الْخُسْنِ أَعْيَبُهَا
لَهَا بَعْلٌ غَيُورٌ قَا	عِدُّ بِالْبَابِ يَحْجُبُهَا
يَرَانِي هَكَذَا أَمْ شِي	فَيُوعِدُهَا وَيَضْرِبُهَا
ظَلَّلْتُ عَلَى مَارِقِهَا	أَفْدِيَهَا وَأَخْلِبُهَا
أَحْدَثْتُهَا فَتًى وَمِنْ لِي	فَأَصْدُقُهَا وَأَكْذِبُهَا

<sup>440</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، 123

<sup>441</sup> حديث الأربعاء 247/1

<sup>442</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل إبراهيم عبدالرحمن محمد، 84

<sup>443</sup> ديوانه، 121

جَهْ قَدْ كُنْتُ أَطْبُهَا	فَدَعْ هَذَا وَلَكِنْ حَا
يَقْرَبُهَا مُقَرَّبُهَا	إِلَى أُمِّ الْبَنَيْنِ مَتَى
سَتْ هَذَا حِينَ أَغْبَاهَا	أَتَتْنِي فِي الْمَنَامِ فَقُلْ
وَمَالَ عَلِيٍّ أَغْذَاهَا	فَلَمَّا أَنْ فَرَحْتُ بِهَا
نَهَلْتُ وَبِئْتُ أَشْرَبُهَا	شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى
نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا	وَبِئْتُ صَاحِبِهَا جَذَلَا
وَأَلْبِسُهَا وَأَسْلُبُهَا	وَأُضْجِكُهَا وَأُبْكِيهَا
فَأَرْضِيهَا وَأَغْضِبُهَا	أَعَالِجُهَا فَتَضْرَعُنِي
مَ نَسْمُرُهَا وَنَلْعَبُهَا	فَكَانَتْ لِيْلَةً فِي النَّوْ
صَلَاةِ الصُّبْحِ يَرْقُبُهَا	فَأَيْقَظُنَا مُنَادٍ فِي
لَمْ يُدَرْ مَذْهَبُهَا	فَكَانَ الطَّيْفُ مِنْ جَنِيٍّ

وفي حديثه عن الغزل الهجائي الذي اختص به ابن قيس الرقيات يقول إبراهيم محمد ( كان ثمة غزل آخر يمكن أن نسماه هجاء، واختص به ابن قيس عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج الخليفة الأموي عبدالملك، وأم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان، زوج الوليد بن عبدالملك، وقد نحا في هذا الغزل منحى جديدا لا نظفر به عند شاعر آخر من شعراء الغزل والسياسة الذين سبقوه<sup>444</sup> .

<sup>444</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل، إبراهيم عبدالرحمن محمد، 118.

ونلاحظ أن ابن قيس قد نسج قصة متخيلة وأخبارا غير واقعية، وهو يقصد من ذلك إغاطة خصومه السياسيين وإثارتهم، ولكنه في الوقت نفسه كان حريصا حرصا شديدا على ألا يؤدي المرأة التي كان يشبب بها، لكن غرضه الأساسي يتمثل بإغاطة الخليفة، فرسم لزوجها صورة ساخرة ظهر فيها زوجا غيورا غافلا عما تفعله زوجته، وهو ينظر إلى صاحب زوجته وهو يدور حول منزلها ليثيره ويهيجه، وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى توعده زوجته وضربها، وهي صورة ساخرة تبعث على الضحك والاحتقار، وهذا ما أراد ابن قيس أن يصل إليه، وفي النهاية ذكر ابن قيس أن هذه القصة ما هي إلا حلم وقعت له في المنام، وبذلك حفظ كرامة أم البنين. وفي الوقت نفسه أغاظ عبدالمملك وأحفظه عليه.<sup>445</sup>

ولم يتوقف الأمر عند أم البنين، فقد شبب بعاتكة زوج الخليفة عبدالمملك نفسه فقال<sup>446</sup>.

أَعَاتِكَ بَنَتَ الْعَبْشَمِيَّةِ عَاتِكَ	أَتَيْبِي امْرَأَةً أُمْسَى بِحُبِّكِ هَالِكَا
بَدَتْ لِي فِي أَتْرَابِهَا فَقَتَلَنَنِي	كَذَلِكَ يَقْتُلُنَ الرِّجَالُ كَذَلِكَ
نَظَرَنَ إِلَيْنَا بِالْوُجُوهِ كَأَنَّمَا	جَلَوْنَ لَنَا فَوْقَ الْبِغَالِ السَّبَائِكَا
وَقَالَتْ لَوْ أَنَا نَسْتَطِيعُ لَزَارَكُمُ	طَبِيبَانِ مِنَّا عَالِمَانِ بِدَائِكَا
تُذَكِّرُنِي قَتْلِي بِحَرَّةٍ وَأَقِمِ	أُصَيْبَتْ وَأَرْحَامًا قُطِعْنَ شَوَابِكَا

<sup>445</sup> المصدر نفسه، 121

<sup>446</sup> ديوانه، 128

رِجَالٌ هُمْ الْأَقْتَالُ مِنْ يَوْمٍ رَاهِطٍ أَجَازُوا الْغَوَارَ بَيْنَنَا وَالتَّسَافُكَا

وواضح من أبيات هذه القصيدة أنه يتخذ من تغزله بعاتكة وسيلة إلى انتقاده العنيف لسياسة بني أمية التي أدت إلى وقوع كل هذه المعارك، وتسببت في انقسام قريش على نفسها، وراح يعدد الأخطاء التي وقعت، فذكر وقعة الحرة التي قتل فيها كثير من أبناء المدينة المنورة، ومعركة مرج راهط التي قتل فيها الضحاك بن قيس، وفيها وقفت اليمانية مع بني مروان ضد القيسية، فمزج ابن قيس للغزل بالسياسة هدفه إغاطة الخليفة والنيل منه، واتخاذها وسيلة للتعبير عن آرائه فيما نزل بقريش من أحداث ومحن بسبب سياسة بني أمية<sup>447</sup>.

ولا تغيب عنا أبيات ابن قيس الرقيات في همزته التي مدح بها مصعب بن الزبير والتي يقول فيها<sup>448</sup>:

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا يَشْمَلِ الشَّامَ غَارَةً سَعَوَاءُ  
تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَبُذِي عَنْ بُرَاهَا الْعَقِيلَةَ الْعَدْرَاءُ  
أَنَا عَنْكُمْ بَنِي أُمَيَّةٍ مُزْرٍ وَرٌّ وَأَنْتُمْ فِي نَفْسِي الْأَعْدَاءُ  
إِنَّ قَتْلِي بِالطَّفِّ قَدْ أَوْجَعَتْنِي كَانَ مِنْكُمْ لَنْ قُتِلْتُمْ شِفَاءُ  
أَيُّهَا الْمُشْتَهِي فَنَاءُ قُرَيْشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمرُهَا وَالْفَنَاءُ

<sup>447</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين الغزل والسياسة، إبراهيم عبدالرحمن محمد، 122

<sup>448</sup> ديوانه، 95

فهو يتهم عبد الملك بأنه يسعى إلى فناء قريش والقضاء عليها، بسبب حقه عليها، بل هو يشتبه في هذا الفناء، لكن هذه الأحقاد لن تنال من هذه القبيلة التي أنجبت النبي الأمي ( صلى الله عليه وسلم ) وأبا بكر الصديق وسائر الخلفاء الراشدين، وإنما الفناء والبقاء بيد الله وحده لا بأيدي الأمويين.

أما الشاعر عبد الله بن الحجاج الذي كان متقلب الهوى، -- فهو يناصر الخوارج حيناً، ثم ينقلب لمناصرة الزبيريين حيناً آخر، وبعد ذلك يمدح عبد الملك ابن مروان --، فقد استعظم من بني مروان -- عندما كان هواه مع ابن الزبير -- أن يطاولوا عبد الله بن الزبير وينازعوه الخلافة، فالفرق بينهما كبير، يقول مخاطباً عبد الملك بن مروان<sup>449</sup>:

أَتَطْلُبُ شَاوَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَلَمْ تَكُنْ      لَتُدْرِكْهُ مَا حَجَّ لِلَّهِ رَاكِبُ

تَكَلَّفْتَ أَمْرًا لَمْ تَكُنْ لَتَنَالَهُ      طَوَالَ اللَّيَالِي أَوْ تُنَالَ الْكَوَاكِبُ

فَمَهْلًا بَنِي مِرْوَانَ لَسْتُ بِذَادَةٍ      إِذَا مَا التَّقَتْ يَوْمَ اللَّقَاءِ الْكَتَائِبُ

إِذَا التَّقَتْ الْأَبْطَالُ كُنْتُمْ تَعَالِيَا      وَأَسْدُ الثَّرَى فِي السِّلْمِ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ

فعبد الله بن الحجاج يستغرب مطاولة عبد الملك لابن الزبير، ويقول له إنك لن تستطيع مهما بذلت من جهد أن تلحق بابن الزبير، ويصف بني مروان بعدم الخبرة في خوض المعارك، فلا ساحات الوغى ولا معترك الكتائب تعرفهم، إنهم

<sup>449</sup> أنساب الأشراف، 354/6 (إقواء في البيت الرابع)



يفتقدون في تلك المواطن، وإن كانوا يجيدون المزاوغة، إلا أن المزاوغة لا تمكن أصحابها في الأرض<sup>450</sup>.

أما عرفة بن شريك<sup>451</sup> وهو أحد بني قيس بن ثعلبة فقد لام عبد الملك بن مروان على قتله مصعباً، فخيله قتلت بطلا عظيماً صاحب فضل ونعمة على الناس، لو راموا مثلها ما استطاعوا لها سبيلاً، فهو كريم يتحمل الأعباء الثقالة، بينما الآخرون لا يقوون على ذلك، فقال يرثي مصعباً ويدعو على قاتله عبد الملك بن مروان الذي نفس عليه ما أعطاه الله من جمال ورئاسة وبسالة<sup>452</sup>:

ما لابن مروان أعمى الله ناظره	ولا أصاب رغييات ولا نَقْلا
يرجو الفلاح ابن مروان وقد قتل	خيل ابن مروان خرقاً ماجداً بطلاً
يا ابن الحواري كم من نعمة لكم	لو رام غيركم أمثالها شغلا
حملتم فحملتم كل معضلة	إن الكريم إذا حملته احتملا

<sup>450</sup> الزبيريون في التاريخ والأدب، محمد نافع المصطفى، 130

<sup>451</sup> لم أعتز على ترجمته، إلا أن البلاذري ذكر أنه أحد بني قيس بن ثعلبة.

<sup>452</sup> أنساب الأشراف، 97/7، الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 111/4

وتحدث عتبان بن وصيلة الشيباني<sup>453</sup> عن الحروب والمعارك التي خاضها شبيب، والانتصارات المتتالية التي حققها على جيش الحجاج بن يوسف الثقفي، ووجه أبياته التالية إلى عبدالمملك بن مروان قائلاً<sup>454</sup> :

لعمري لقد نادى شبيبٌ وصحبُهُ	على البابِ لو أنَّ الأميرَ يُجيبُ <sup>455</sup>
فأبلغُ أميرَ المؤمنين رسالةً	وذو النصحِ لو تُصغي إليه قريبُ
أتذكرُ إذ دارتُ عليكِ رماحُنا	مَسْكَنَ والكلبيُّ تَمَّ غريبُ
فلا صُلحَ ما دامتْ منابرُ أرضنا	يقومُ عليها من ثقیفَ خطيبُ
فإنَّكَ إلَّا تُرضِ بكرَ بنِ وائلٍ	يكنُ لكِ يومٌ بالعراقِ عصبُ
فلا ضيرَ إنْ كانتْ قريشُ عدداً لنا	يُصيونَ ممَّا مرَّةً ونُصبُ
فإنْ يكُ منهمْ كان مروانُ وابْنُهُ	وعمرُو ومنهمْ هاشمٌ وحبیبُ
فمِنَّا سُويْدٌ والبَطَيْنُ وقَعَنُ	ومنا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ
غزالُهُ ذاتُ النَّذْرِ ممَّا حميدةٌ	لها في سهامِ المسلمينِ نصيبُ
وممَّا سنانُ الموتِ وابنُ عُوَيرٍ	ومُرَّةٌ فانظرُ أيَّ ذاكِ تعيبُ

<sup>453</sup> عتبان بن وصيلة وقيل أصيلة، وأصيلة أمه، وأبوه شراحيل بن شريك بن عبدالله بن الحصين الشيباني، وهو من شراة الجزيرة، ذكره ابن دريد في الاشتقاق في رجال شيبان، وعده الجاحظ في البيان والتبيين ( في الجزء الثالث ص 266 ) من شعراء الخوارج، انظر شعر الخوارج، إحسان عباس ص 182

<sup>454</sup> البيان والتبيين، 228/3، شعر الخوارج، 182

<sup>455</sup> هو شبيب الخاجي بايعته الخوارج الصفرية بعد مقتل صالح بن مسرح، وله وقائع كثيرة مع جيوش الحجاج، مات غرقاً سنة 77هـ

فَوَارِسُنَا مَنْ يَلْقَهُمْ يَلْقَى حَتْفَهُ وَمَنْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَنْجُ وَهُوَ سَلِيبُ

فهو يوجه نصيحته إلى عبدالملك بن مروان ليكف يد الحجاج عن محاربة الخوارج، ويتهدده بيوم عصيب في العراق، فما دام الحجاج يصول ويجول في العراق فإن الصلح والسلام بعيدين عن التحقق، ويقول لعبدالملك، نحن أنداد لكم، فكما أنه منكم مروان وعبدالملك وعمرو وهاشم، فمننا كذلك سويد والبطين وقعنّب وأميرنا هو شبيب أمير المؤمنين، ونحن أشداء في الحروب، فالذي يواجهنا لابد مقتول، والذي لا يقتل من أعدائنا فيعيش مسلوب الإرادة بسبب ما يراه من أهوال.

وقال أبو قطيفة الشاعر<sup>456</sup> يفخر على عبدالملك بن مروان ويعيره<sup>457</sup>:

أَنَا ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حِينَ أَمَى      لِأَكْرَمِ ضُنْضِيٍّ وَأَعَزِّ جِيلِ<sup>458</sup>  
وَأَمَى لِلْعَقَائِلِ مِنْ قُصَيٍّ      وَمَخْزُومٍ فَمَا أَنَا بِالضُّئِيلِ  
وَأَرَوَى مِنْ كُرَيْزٍ قَدْ مَتْنِي      وَأَرَوَى الْخَيْرِ بِنْتُ أَبِي عَقِيلِ  
كَلَا الْحَيَّيْنِ مِنْ هَذَا وَهَذَا      لَعَمْرُ أَبِيكَ فِي الشَّرَفِ الطَّوِيلِ  
فَعَدُّ مِثْلَهُنَّ أَبَا ذُبَابٍ      لَيَعْلَمَ مَا تَقُولُ ذَوُو الْعُقُولِ

<sup>456</sup> أبو قطيفة هو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، واسم أبي معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، يكنى أبو قطيفة أبا الوليد، وأبو قطيفة لقب لقب به، وأمه بنت الربيع بن ذي الخمار من بني أسد بن خزيمه، وهو من العنابس من بني أمية، نفاه عبدالله بن الزبير مع بني أمية عن المدينة إلى الشام، ثم عفا عنه، فرجع إلى المدينة ومات. الأغاني 31/1

<sup>457</sup> الأغاني، 45/1

<sup>458</sup> الضنضي: الأصل والمعدن

فَمَا الزَّرْقَاءُ لِي أُمًّا فَأَخْزَى      وَلَا لِي فِي الْأَزَارِقِ مِنْ سَبِيلِ

والشاعر يعني بأبي الذبَّانَ عبدالمملك بن مروان، والزرقاء إحدى أمهاته من كندة وكان يعير بها.

وبلغ أبا قطيفة أن عبدالمملك يتنقصه، فقال<sup>459</sup>:

نُبْتُ أَنْ ابْنَ الْعَمَلْسِ عَابَنِي      وَمَنْ ذَا مَنْ النَّاسِ الْبَرِيءُ الْمُسْلَمُ

مَنْ أَنْتُمْ مَنْ أَنْتُمْ خَبَرُونَا مَنْ أَنْتُمْ      فَقَدْ جَعَلْتَ أَشْيَاءَ تَبْدُو وَتُكْتَمُ

فبلغ ذلك عبدالمملك فقال: ما ظننت أنا نجهل، والله لولا رعايتي لحرمته لألحقته بما يعلم، ولقطعت جلده بالسياط.

وحين قُتِلَ عبدالمملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق، تنادى أصحاب عمرو حين أحسوا بذلك وهم بالباب، فأخذ عبدالمملك خمس مائة صرة كانت قد هُبِيت، وجعل في كل صرة ألف درهم، فألقيت مع رأس عمرو، فترك أصحابه الرأس ملقى وأخذوا المال، وتفرقوا، فقال أحد الشعراء يخاطب عبدالمملك وآل مروان:

عَدَرْنُمُ بِعَمْرٍو يَا آلَ مَرْوَانَ صَلَّ      وَمِثْلُكُمْ يَبْنِي الْبُيُوتَ عَلَى الْغَدْرِ

فَرَحْنَا وَرَاحَ الشَّامِتُونَ بِقَتْلِهِ      كَأَنَّ عَلَى أَكْتَافِنَا فُلُقَى الصَّخْرِ

وَمَا كَانَ عَمْرُو عَاجِزًا غَيْرَ أَنَّهُ      أَتَتْهُ الْمَنَايَا بَعْتَهُ      وَهُوَ لَا يَدْرِي

<sup>459</sup> الأغاني، 46/1، تاريخ الطبري، 421/6، مع اختلاف في الرواية، أنساب الأشراف، 235/7.

كَأَنَّ بَنِي مَرَوَانَ إِذْ يَقْتُلُونَهُ      بَغَاثٌ مِنَ الطَّيْرِ اجْتَمَعْنَ عَلَى صَفَرٍ<sup>460</sup>

ويعاتب جواس بن القعطل الكلبي<sup>461</sup> عبد الملك بن مروان عتاباً مرا شديداً بسبب قيامه بالموازنة في سياسته ما بين القبائل القيسية والقبائل اليمانية، وكان عبد الملك قد عزل عدداً من رجال كلب الذين كانوا يتولون بعض الأعمال، وجعل مكانهم رجالاً من قيس من أجل تهدة نفوس رجالات قيس بعد الخصومات التي كانت قائمة بينهم وبين الأمويين وبين القبائل القيسية والقبائل اليمانية، الأمر الذي أثار شعراء كلب الذين ساءت لهم المساواة بينهم وبين خصومهم من القيسية<sup>462</sup>، يقول<sup>463</sup>:

أَعْبَدَ الْمَلِكِ مَا شَكَرْتَ بِلَاءَنَا	فَكُلُّ فِي رَحَاءِ الْعَيْشِ مَا أَنْتَ آكِلُ
بِجَابِيَةِ الْجَوْلَانِ لَوْلَا ابْنُ بَحْدَلٍ	هَلَكْتُ وَلَمْ يَنْطِقْ لِقَوْمِكَ قَائِلُ
فَلَمَّا عَلَوَتِ السَّامُ فِي رَأْسِ بَاذِخٍ	مَنْ الْعِزُّ لَا يَسْطِيعُهُ الْمُتَنَاوِلُ
نَفَحَتْ لَنَا سَجَلَ الْعَدَاوَةِ مُعْرِضًا	كَأَنَّكَ مِمَّا يُحَدِّثُ الدَّهْرُ جَاهِلُ <sup>464</sup>
وَكُنْتُ إِذَا أَشْرَفْتُ فِي رَأْسِ تَلْعَةٍ	تَضَاءَلْتُ إِنَّ الْخَائِفَ الْمُتَضَائِلُ
فَلَوْ طَاوَعُونِي يَوْمَ بَطْنَانَ أُسْلِمْتُ	لِقَيْسٍ فُرُوجٌ مِنْكُمْ وَمَقَاتِلُ

<sup>460</sup> الأخبار الطوال، 281

<sup>461</sup> مرت ترجمته في الفصل السابق ص 177

<sup>462</sup> شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 1495/3

<sup>463</sup> شرح ديوان الحماسة، التبريزي، 68/4، حماسة البحري، 113، ديوان الحماسة، أبو تمام، 479

<sup>464</sup> السُّجْل: الدلو إذا كان فيها ماء

لقد تناول ابن القعطل في هذه الأبيات على عبدالمملك بن مروان تناولاً عنيفاً، وخاطبه بلهجة عدائية قاسية غير لائقة، فهو يقول له إنك لم تحمد وقوفنا إلى جانبك وبلاءنا في نصرك، ولم تقابل انقطاعنا إليك وقتالنا مع أبيك ببعض ما وجب لنا من حق عليك، فكلُّ في ظلال الأمن والهدوء ما أنت آكله في دنياك غير مدافع ولا منازع، فلولاً حسان بن بحدل الكلبي ودعوته لكم بالجابية لهلكت ولضاعت الخلافة من قومك، ثم يشتد جواس في عتابه لعبدالمملك، فيتهمه بالجن ويلوح له بالثورة والتمرد، ويقول له: لما ملكت ما تريد واستويت على عرش الشام في عز باذخ لا يقدر على تناوله أحد اطرحتنا وأعرضت عنا ومنحتنا العداوة والبغضاء، كأنك جاهل بالدهر ونكباته وأحداثه وتقلباته<sup>465</sup>.

لقد تجاوز ابن القعطل كل حدود اللياقة والأدب في مخاطبته الخليفة عبدالمملك بهذه الأبيات الشعرية وبهذه اللهجة القاسية.

<sup>465</sup> شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، 1495/3، شعر القبائل اليمنية الشامية في العصر الأموي، مفلح الفانز، 192



### الفصل الثالث

موقف عبدالملك بن مروان من الشعراء ونقده لشعرهم





## موقف عبدالمملك بن مروان من الشعراء ونقده لشعرهم

يعد العصر الأموي – على الرغم من الفتن السياسية التي حدثت فيه – من العصور الذهبية التي مر بها الأدب العربي بعامة والشعر بخاصة، فقد أولى خلفاء بني أمية الشعر اهتماما بالغاً، ابتداء من معاوية بن أبي سفيان، وصولاً إلى عبدالمملك بن مروان ومن بعده، وأجزلوا العطاء للشعراء لكي يقدموا أفضل ما عندهم من أشعار خدمة لمصالح الدولة، وأفسحوا لهم في مجالسهم، فنشطت الحركة الأدبية في تلك المجالس، وبلغ الاهتمام أوجه في عهد الخليفة عبدالمملك بن مروان، الذي كان راوية للشعر ناقداً له، كثير الاستشهاد به في معظم المناسبات، وكان يكثر من الأسئلة عن الشعر والمحاوره فيه في مجالسه، فضلاً عن اهتمامه بمعانيه وذلك لعلمه بخطورته في المجال الإعلامي، وتأثيره في كسب الأنصار والهجوم على الخصوم، وأهميته في إثبات أحقية بني أمية في الحكم .

وقد استقطب عبدالمملك بن مروان كبار شعراء العصر الأموي، من أمثال جرير والفرزدق ( مر بنا في الفصل الثاني من هذا البحث أن الفرزدق لم يفد على أي من خلفاء بني أمية قبل خلافة سليمان حسب ما جاء في مقدمة ديوانه)<sup>466</sup> والأخطل والراعي النميري وكثير عزة وعبيدالله بن قيس الرقيات وغيرهم، سواء كانوا من الشعراء المؤيدين للحزب الأموي أو المعارضين لهم، وغصت مجالسه الأدبية بهم، واستطاع بذكائه وسخائه وحكمته أن يوظفهم لمدحه والدفاع عن دولته وعن بني أمية.

<sup>466</sup> انظر الفرزدق، شاكر الفحام، ص 169، ديوانه، 334/1

ومارس عبدالمملك بن مروان أوجها مختلفة من النشاط الأدبي على الرغم من المشكلات السياسية الكبيرة التي كانت تواجهه، والحروب والمعارك العسكرية التي خاضها، والفتن الكبيرة التي ثارت في زمنه واستطاع أن يخدمها، فشخصيته السياسية لم تتمكن من طمس شخصيته الأدبية على الرغم من ضخامة المسؤولية السياسية التي ألقيت على عاتقه منذ توليه الخلافة بعد وفاة والده، وكان يعقد المجالس الأدبية ويشارك فيها بآرائه وانتقاداته وتوجيهاته السديدة التي أذهلت معاصريه ومجالسيه، ولم يكن يبخل على هذه المجالس لا بالوقت ولا بالمال، فقد كان يغدق الأعطيات الجزيلة على المحسنين من جلسائه، وقد تمتع عبدالمملك بمقدرة عجيبة على الحفظ، فاخترن في ذاكرته آلاف من الأبيات الشعرية التي كان يستشهد بها حين تدعوا الحاجة إلى الاستشهاد، فهو راوية للشعر متذوق له ناقد من الطراز الرفيع، ويذكر الدكتور حسين عطوان: أن عبدالمملك كان عارفا بأخبار العرب وأنسابهم وأشعارهم حافظا لها كلها، وأنه كان كثير المراجعات لهم فيها، عظيم الحرص على نشرها وإظهارها، دائم الحُصّ على تعلمها وإتقانها<sup>467</sup>.

وكانت آراؤه النقدية محل احتفاء في عالم النقد الأدبي العربي المتقدم، إذ كثيرا ما كان يدلي بآرائه القيمة التي ساعدت على فهم الحركة النقدية في زمانه<sup>468</sup>. وقد ساهمت تلك الآراء مساهمة فاعلة في نمو هذه الحركة وتطورها، ويتضح من متابعة أخبار عبدالمملك الأدبية ودراساتها أنه كان له أثر ضخم في نقد الشعر وتقويمه، كما

---

<sup>467</sup> الرواية الأدبية في بلاد الشام في العصر الأموي، حسين عطوان، 266، الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي، حسين عطوان، ص 29 - 35، 54.

<sup>468</sup> عبدالمملك بن مروان الناقد الأدبي، خليل إبراهيم جفال، ص 9

كان له أثر واسع في روايته، وجمعه وتدوينه<sup>469</sup>، وكان لا يتوانى في طلب المعرفة، روى الشعبي قال: "رهما حدثت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان...وقد هيا اللقمة، فيمسكها في يده مقبلا علي، فأقول: أحرها يا أمير المؤمنين، فإن الحديث بعدها، فيقول: الحديث أشهى إلي منها"<sup>470</sup>، وكان يتجنب مجالسة غير الأدباء<sup>471</sup>، ويقول المبرد: "كان عبد الملك من أكثر الناس علما وأبرعهم أدبا، وأحسنهم في شببته ديانة..."<sup>472</sup>، وقال الشعبي "ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ما ذاكرته حديثا إلا زادني منه، ولا شعرا إلا زادني فيه"<sup>473</sup>.

وقد أولى عبد الملك اللغة العربية اهتماما كبيرا، وكان يدرك عظيم الإدراك قيمة اللغة في تحقيق التواصل بين الناس، وكان يؤرقه ما يقع من ابنه الوليد من لحن، ولكنه يعترف أنه هو السبب في ذلك، فحبه الشديد له وعدم مقدرته على فراقه هو الذي منعه من إرساله إلى البادية، فهو الأثير إلى النفس، والقريب من القلب<sup>474</sup>.

وقال: "أضر بالوليد حبنا له، فلم نوجهه إلى البادية"<sup>475</sup>.

<sup>469</sup> الرواية الأدبية في بلاد الشام في العصر الأموي، حسين عطوان، 267

<sup>470</sup> ذيل الأمالي، 80

<sup>471</sup> الكامل في اللغة والأدب، المبرد 327/1

<sup>472</sup> الكامل في اللغة والأدب، المبرد، 1158

<sup>473</sup> الكامل في التاريخ، 4/ 250، البداية والنهاية، 6/9، تاريخ دمشق، 124/37

<sup>474</sup> العقد الفريد، 245/2، 160/5، مختصر تاريخ دمشق، 230/15

<sup>475</sup> البيان والتبيين، 205/2، العقد الفريد، 160/5

وفي رواية أخرى قال عبدالمملك: أضر بنا في الوليد حبنا له فلم نؤدبه، وكأن الوليد أدبنا<sup>476</sup>.

وهو يعلم علم اليقين أن الإعراب قد يرفع الوضع، واللحن قد يضع الشريف، يقول: "الإعراب جمال الوضع، واللحن هُجْنَةٌ على الشريف"<sup>477</sup>.

وقال: "اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب، والجدرى في الوجه"<sup>478</sup>.

وقيل لعبدالمملك مرة: "عجل إليك الشيب يا أمير المؤمنين! قال: كيف لا يعجل علي وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين" يعني خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من أمور<sup>479</sup>. وكان يقول: شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن<sup>480</sup>.

فعبدالمملك يرى أن سبب تعجيل غزو الشيب رأسه هو كثرة تصديه للخطابة وحرصه الفائت على عدم الوقوع في آفة اللحن، ورغبته الشديدة في أن يوصل آراءه إلى الناس في عبارة فصيحة بليغة. كما يظهر لنا من الأقوال السابقة التي سقناها حرصه الشديد على تعلم الناس اللغة العربية والأدب والابتعاد ما أمكن عن الوقوع في اللحن. ونلاحظ أن عبدالمملك كان حريصا الحرص كله على الإقبال على الأدب والاحتفاء به وحفظه وتمثل معانيه، فالناس بحاجة إليه كحاجتهم إلى الطعام،

<sup>476</sup> العقد الفريد 245/2

<sup>477</sup> العقد الفريد، 276/2، البيان والتبيين، 216/2

<sup>478</sup> العقد الفريد، 275/2

<sup>479</sup> البيان والتبيين 135/1، العقد الفريد، 204/4، سير أعلام النبلاء، 4/ 248، تاريخ الخلفاء، 219

<sup>480</sup> العقد الفريد، 318/2، الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 239/4

يقول: " ما الناس إلى شيء من العلوم أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاورون الكلام، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكم، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها ويجمعون ما تفرق منها، إن الكلام قاض يجمع بين الخصوم، وضياء يجلو الظلام، وحاجة الناس إلى مواده حاجتهم إلى مواد الأغذية "<sup>481</sup>.

ومما يؤكد حرص عبد الملك على الدعوة إلى تعلم الأدب والعناية بحفظه قوله لبنيه: " عليكم بطلب الأدب، فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا "<sup>482</sup>. وكان يؤكد على أن يكون الشعر جزءا من التكوين الثقافي لأولاده فكان يقول لمؤدبهم " روهم الشعر يمجّدوا وينجدوا "<sup>483</sup> كما كان يقول له " أدبهم برواية شعر الأعشى، فإن لكلامه عذوبة - قاتله الله - ما كان أعذب بحر وأصلب صخره "<sup>484</sup>.

والذي يعود إلى سيرة عبد الملك يلاحظ أنه قد امتاز عن غيره من الخلفاء بحافظة قوية ومملكة نقدية أتاحت له الاستشهاد بالأشعار ونقدها في مواقف مختلفة كانت تعرض له، كما استشهد بالشعر في خطبه ورسائله المختلفة التي أنشأها، وجاء معظم الاستشهاد عندما كان يحاول اختبار مقدرة أبنائه أو جلسائه من العامة أو الخاصة على حفظه، ولا بد لنا من أجل الاطلاع على هذه الملكة القوية من أن نلجأ إلى الاستشهاد ببعض الروايات التي عرضت له في مجالسه الأدبية التي كان يعقدها،

<sup>481</sup> الإمتاع والمؤانسة، 144/2

<sup>482</sup> العقد الفريد، 231/2

<sup>483</sup> العقد الفريد، 108/6، تاريخ دمشق، 37/ 148

<sup>484</sup> جمهرة أشعار العرب، 80، خزنة الأدب، 176/1

لنتبين موقفه من الجلساء والشعراء ومن شعرهم، ونقده لأشعارهم سواء كان النقد سلبيا أم إيجابيا. وهذه المواقف كثيرة ومتنوعة نقلتها لنا الكتب والمصادر الأدبية والنقدية والتاريخية المتنوعة التي تحدثت عنه وعن المواقف التي عرضت له، لتدل على سعة اطلاعه وثقافته المتميزة سواء كانت ثقافة دينية أم أدبية أم تاريخية أم علمية، وعبدالمملك فعلا كان يتمتع بثقافة موسوعية ميزته عن غيره من الخلفاء، وقد اكتسب هذه الثقافة بجده واجتهاده أثناء إقامته في المدينة المنورة التي قضى فيها ما يقارب الأربعين عاما من حياته، وهذه الفترة هي فترة بناء الشخصية وتربيتها إن صح التعبير، وقد شهد له معاصروه بالجد والاجتهاد والمثابرة في طلب العلم، الأمر الذي أدى إلى وجود ثقافة متراكمة مختزنة عنده، قلما نجد لها نظيرا.

صحيح أن عبدالمملك بن مروان قد اشتغل بالسياسة بعد خروجه من المدينة لا سيما بعد أن تسلم والده مروان بن الحكم زمام الخلافة إثر موت الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية، واستنكاف معاوية بن يزيد بن معاوية عن الحكم، وكان لا بد له من خوض غمار هذه التجربة التي هيأتها بعد أشهر قليلة من حكم والده الذي عينه وليا للعهد لتسلم الخلافة بعد وفاته، وقد لاحظنا أنه على الرغم من الظروف العصيبة القاسية والفتن الكثيرة التي مرت بها الخلافة الأموية، وعلى الرغم من كثرة الأعداء الطامعين بالخلافة، وخروج كثير من القبائل عن طاعة الخلافة لا سيما القيسية منها، ومساندتها لأعداء الدولة الأموية، إلا أن عبدالمملك قد تمكن بعد جهد كبير من إخماد معظم هذه الفتن، والقضاء على مثيريها، واستطاع أن يوحد أمصار الدولة الإسلامية من شرقها إلى غربها، وأن ينشر الأمن في ربوعها، وأن يدخل كثيرا من الإصلاحات إلى أجهزتها المختلفة، لا سيما الإدارية والاقتصادية والاجتماعية،

ناهيك عن التوسع في الفتوحات شرقا وغربا، ومناجزته لأعداء الدولة الإسلامية التقليديين، أعني بذلك الرومان، وتمكن بفضل جهوده وجهود القادة المسلمين أن يحمي ثغور الدولة وأن يضع حدا لأطماع أعدائها، وكل هذه الأمور لم تشغل عبد الملك بن مروان عن احتفائه بالأدب والشعر والشعراء على وجه الخصوص. ولذلك نستطيع أن نقول إن عبد الملك بن مروان كان راوية للشعر حافظا لكثير من قصائده الجاهلية والإسلامية، وكان بصيرا بالنقد الأدبي، متمكنا من النحو عالما باللغة العربية وأسرارها، وقد عُدَّ من أفصح أبناء زمانه، لذلك قال الأصمعي: " أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل، الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القُرَيْبِ"<sup>485</sup>، وكان عبد الملك يحث مجالسيه على حفظ الشعر وروايته، وتعلم اللغة العربية، بالإضافة إلى اهتمامه الشديد بتربية أولاده تربية دينية وثقافية وأدبية، وحثه لهم على حفظ الشعر وروايته والتمثل به في الأوقات المناسبة، وسنعرض لعدد من الروايات الأدبية التي تشير إلى ما ذهبنا إليه وتؤيد ما قلناه بحق هذا الخليفة الذي شهد له كثيرون من العلماء الذين التقوا به وخالطوه بغزارة علمه، وقوة حافظته، ومقدرته النقدية الفذة، وسماحة خلقه، ورجاحة عقله، واحترامه للعلماء وتوقيره لهم<sup>486</sup>، يقول الشعبي: " وفدت على عبد الملك، فما أخذت في حديث أرى أنه لم يسمعه إلا سبقني إليه، وربما غلطت في الشيء، وقد علمه، فيتغافل عني تكrema"<sup>487</sup>.

<sup>485</sup> تاريخ الخلفاء 221

<sup>486</sup> انظر: الرواية الأدبية في بلاد الشام في العصر الأموي، 186

<sup>487</sup> أنساب الأشراف، 206/7



وقال: " لم ألقِ واليا ولا سوقة إلا وهو يحتاج إلي ولا أحتاج إليه إلا عبد الملك، ما أنشدته شعرا ولا حدثته حديثا إلا وهو يزيدني فيه، وكنت ربما حدثته وفي يده اللقمة فيمسكها، فأقول يا أمير المؤمنين أسخ طعامك، فإن الحديث من ورائه، فيقول: ما تحدثني به أوقع في قلبي من كل لذة وأحلى من كل فائدة"<sup>488</sup>.

---

<sup>488</sup> معجم الأدباء 33/1

عبدالمملك ومكافأته لرواة الشعر وحفظته:

كان عبدالمملك بن مروان يعجب بالشعراء من غير سكان المدين، فيسأل عنهم ويستدعيهم لمجلسه، وذلك لكي يسمع منهم أشعارهم، فقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني " أن عبدالمملك بن مروان كان معجبا بشعر عبد الله بن جحش، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، فورد كتابه وقد توفي، فقال إخوانه لابنه لو شخصت إلى أمير المؤمنين عن إذنه لأبيك، لعله كان ينفعك، ففعل، فبينما هو في طريقه، إذ ضاع منه كتاب الإذن، فهم بالرجوع، ثم مضى لوجهه، فلما قدم على عبدالمملك، سأله عن أبيه، فأخبره بوفاته، ثم سأله عن كتابه، فأخبره بضياعه، فقال له أنشدني قول أبيك:

هَلْ يُبْلِغُنَهَا السَّلَامَ أَرْبَعَةٌ	مَنْي وَإِنْ يَفْعَلُوا فَقَدْ تَفَعُوا
عَلَى مَصَكِّينَ مِنْ جِمَاهُمْ	وَعَنْتَرِيسَيْنِ فِيهِمَا سَطَعُ
قَرَّبَ حَيْرَانُنَا جِمَاهُمْ	صُبْحًا فَأُضْحَا بِهَا قَدْ انْتَجَعُوا
مَا كُنْتُ أَدْرِي يَوْشِكُ بَيْنَهُمْ	حَتَّى رَأَيْتُ الْحُدَاةَ قَدْ طَلَعُوا
قَدْ كَادَ قَلْبِي وَالْعَيْنُ تُبْصِرُهُمْ	لَمَّا تَوَلَّى بِالْقَوْمِ يَنْصَدِعُ
سَارُوا وَخُلِفْتُ بَعْدَهُمْ دَنِفًا	أَلَيْسَ بِاللَّهِ يَنْسُ مَا صَنَعُوا

قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: لا عليك، فأنشدني قول أبيك:

أَجَدَّ الْيَوْمَ حَيْرَتُكَ الْغِيَارَا	رَوَاحَا أَمْ أَرَادَوْهُ ابْتِكَارَا
يَعْنِيكَ كَانَ ذَاكَ وَإِنْ يَبِينُوا	يَزِدُّكَ الْبَيِّنُ صَدْعًا مُسْتَطَارَا

بلى أبقت من الجيرانِ عندي أناساً ما أوفقهُم كُثارا

وماذا كثرة الجيرانِ تُغني إذا ما بانَ من أهوى قسارا

قال: لا والله ما أرويه يا أمير المؤمنين، قال: لا عليك، فأنشدني قول أبيك:

دارٌ لـصَهْبَاءِ التي لا يَنْتَنِي عَنْ ذِكْرِهَا قَلْبِي وَلَا أَنْسَاهَا

صَفراءُ يَطْوِيهَا الصَّجِيعُ لَصْلِهَا طَيِّ الحِمَالَةِ لَيِّنَ مَتْنَاهَا

لَوْ يَسْتَطِيعُ صَجِيعُهَا لَأَجَنَهَا فِي الْقَلْبِ شَهْوَةٌ رِيحُهَا وَنَشَاهَا

قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما أرويه، وإن صهباء هذه لأمي، قال: لا عليك، فقد يبغض الرجل أن يشبب بأمه ولكن إذا نسب بها غير أبيه، فأف لك، ورحم الله أباك، فقد ضيعت أدبه وعقته إذ لم ترو شعره، اخرج، فلا شيء لك عندنا<sup>489</sup>.

فعبداً الملك كما تفيد هذه الرواية استدعى الشاعر لسمع منه شعره، فلما وفد عليه ابنه وأخبره بوفاة والده، أحب أن يسمع شعر الأب من الابن، فأخذ يسأله عن قصائد والده وأشعاره، وكان عبداً الملك يحفظ هذه الأشعار، فوجد الابن لا يحفظ شيئاً من أشعار أبيه، ونتيجة لذلك اعتبره عبداً الملك عاقاً لوالده، فيفترض فيه أن يكون حافظاً لشعر أبيه راوياً له، لذلك انتهره وحرمه من العطاء بسبب هذا العقوق، ومعروف أن عبداً الملك كان يجزل العطايا والهبات للشعراء ولحفظة الشعر.

<sup>489</sup> الأغاني، 19 / 154

وفي رواية أخرى يذكر أبو هلال العسكري أنه قد اجتمع كل من جرير والفرزدق<sup>490</sup> والأخطل في أحد مجالس عبد الملك، فقال عبد الملك لهم، من أتاني بصدر هذا البيت " والعود أحمد " فله عشرة آلاف درهم، فما كان فيهم مجيب، فأدخل أعرابي من عذرة إليه فأنشده:

فَإِنْ كَانَ مِنِّي مَا كَرِهْتَ فَإِنِّي أَعُوذُ لِمَا تَهَوَّاهُ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

فقال عبد الملك: أحسنت، ولكن لم تصب ما أردت. فأنشده:

وَأَحْسَنَ عَمْرُو فِي الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فَإِنْ عَادَ بِالْإِحْسَانِ فَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

قال: لم تصب ما أردت، فأنشده:

جَزَيْنَا بَنِي شَيْبَانَ قَدْماً بِفَعْلِهِمْ وَعُدْنَا مِثْلَ الْبَدءِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

فقال: هذا ما طلبت<sup>491</sup>. وقد شككت الباحثة رابحة ياسين في هذه الرواية، واعتبرت أن الصنعة فيها واضحة منكشفة<sup>492</sup> إذ لا يعقل أن يكون ثلاثة من فحول شعراء الإسلام على غير معرفة بهذا البيت من الشعر، وكذلك تزامن دخول الأعرابي مع سؤال عبد الملك للشعراء الثلاثة عنه، وإنشاده إياه. وأضيف إلى ذلك عدم وفود الفرزدق إلى بلاط عبد الملك كما مر معنا وإقحام اسمه في هذه الرواية .

<sup>490</sup> المشهور أن الفرزدق لم يفد على عبد الملك بن مروان، ويبدو أن ورود اسمه في هذه الرواية كان من التصحيف، انظر الفرزدق، شاكر الفحام 171

<sup>491</sup> ديوان المعاني، 76

<sup>492</sup> صورة عبد الملك في الروايات الأدبية، رابحة مصطفى ياسين، ص36

ولا يتوانى عبد الملك بن مروان عن اختبار ذكاء جلسائه واختبار معرفتهم ومقدرتهم على حفظ الشعر وروايته، سواء أكانوا من الشعراء أم من الشخصيات الخاصة أم العامة، فهو يختبرهم في كثير من الأحيان بسؤالهم عن مسألة أو قصيدة أو بيت من الشعر، فقد سأل يوماً جلساءه " أي المناديل أشرف ؟ فقال قائل منهم: مناديل مصر كأنها غرقىء البيض، وقال آخر: مناديل اليمن، كأنها أنوار الربيع، فقال عبد الملك: ما صنعتما شيئاً، أفضل المناديل ما قاله أخو تميم: يعني عبدة بن الطبيب:

مَا نَزَلْنَا نَصَبًا ظَلَّ أَحْبَبِيَّةٍ      وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَايِيلُ  
وَرَدُّ وَاشْقَرُّ مَا يُؤْنِيهِ طَابُخُهُ      مَا غَيَّرَ الْعَلْيُ مِنْهُ فَهُوَ مَأْكُولُ  
مُتَّ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوِّمَةٍ      أَغْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ<sup>493</sup>

فلم يفتن جلساء عبد الملك إلى ما رمى إليه من سؤاله عن المناديل، وظنوا أنه يسأل عن المناديل المصنوعة من القماش، إلا أنه فاجأهم بأنه يسأل عن المناديل التي وردت في شعر عبدة بن الطبيب ويعني بها أعراف الخيل التي جعلها مناديل للفرسان، فهي تَفْضُلُ كل المناديل، هذه هي الفطنة التي كان عبد الملك يتمتع بها، وكان يريد لجلسائه أن يكتسبوا شيئاً منه، لذلك كان يعلمهم في مجالسه أصول الثقافة والمعرفة بهذه السؤالات ويحفرهم على الماضي في كسب المعرفة أياً كان نوعها.

<sup>493</sup> الكامل في اللغة والأدب 675، العقد الفريد، 113/1

وفي رواية نقلها أبو الفرج في كتاب الأغاني ووردت عند أبي هلال في ديوان المعاني، تقول: " صنع عبدالملك بن مروان طعاما فأكثر وأطاب، ودعا الناس، فأكلوا، فقال بعضهم: ما أطيّب هذا الطعام، وما نرى أحدا رأى أكثر منه ولا أكل أطيّب منه ! فقال أعرابي من ناحية القوم أما أكثر فلا، أما أطيّب فقد والله أكلت أطيّب منه، فطفقوا يضحكون من قوله، فأشار إليه عبدالملك فأدني منه، فقال: ما أنت بمحق فيما تقول إلا أن تخبرني ما يبين به صدقك، فقال نعم يا أمير المؤمنين، ..... (وأخبره قصته )، فقال له عبدالملك: لقد أكلت طعاما طيبا، فمن أنت، قال: أنا رجل جانبتي عنعنة تميم وأسد وكشكشة ربعة وحوشي أهل اليمن وإن كنت منهم، فقال: من أيهم أنت ؟ قال: من أخوالك من عذرة. قال: أولئك فصحاء الناس، فهل لك علم بالشعر ؟ قال: سلمي عما بدا لك يا أمير المؤمنين. قال: أي بيت قالته العرب أمدح ؟ قال: قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَابَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاخٍ

وكان جرير في القوم، فرفع رأسه وتناول لها. ثم قال: فأبي بيت قالته العرب أفخر ؟ قال: قول جرير:

إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسَبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابَا

فتحرك (لها جرير). ثم قال له: فأبي بيت أهجى ؟ قال: قول جرير:

فَعَصَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ مُمَيَّرٍ فَلَا كَعْبَاءَ بَلَّغَتْ وَلَا كِلَابَا

فاستشرف لها جرير. قال: فأبي بيت أغزل ؟ قال: قول جرير:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَا نُنَّمْ لَمْ يُحْيَيْنَ قَتَلْنَا

فاهتز جرير وطرب. ثم قال له: فأَي بيت قالت له العرب أحسن تشبيها ؟ قال: قول جرير:

سَرَى نَحْوَهُمْ لَيْلٌ كَأَنَّ نُجُومَهُ قَنَادِيلُ فِيهِنَّ الذُّبَالُ الْمُفْتَلُّ

فقال جرير: جائزتي للعذري يا أمير المؤمنين. فقال له عبدالملك: وله مثلها من بيت المال، ولك جائزتك يا جرير لا تنقص منها شيئا. وكانت جائزة جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة. فخرج العذري وفي يده اليمنى ثمانية آلاف درهم وفي اليسرى رزمة ثياب<sup>494</sup>.

ونستشف من هذه الرواية — بغض النظر عن مجريات أحداثها — أن عبدالملك بن مروان كان يصنع موائد الطعام ويقدمها لضيوفه في مجالسه الأدبية التي كان يعقدها، وذلك تكريما منه لهؤلاء الضيوف الذين هم في غالبيتهم من الشعراء والعلماء والأدباء، وتشجيعا لهم، وكان يوزع الجوائز عليهم حسب العطاء المقرر لكل منهم، وحسب إجادتهم فيما يقدمون أمام الخليفة والحضور، وقد وافق في هذه الجلسة على الحكم الذي أصدره العذري، فأعطاه جائزة توازي الجائزة المقررة لجرير، وكذلك تبرع جرير بجائزته للعذري، وعلى الرغم من أن الأحكام التي صدرت عن العذري لم تكن دقيقة، إذ هناك من يرى غير أبيات جرير هذه تستحق أن تكون أمدح أو أفخر أو أهجى.....، إلا أن سجية عبدالملك المشجعة لرواية

<sup>494</sup> الأغاني، 8/ 30، ديوان المعاني، ص 76، مع اختلاف في الرواية

الشعر وحفظه والتمثل به دعته إلى إعطاء هذا الأعرابي تلك الجائزة. ذكر أبو الفرج في كتاب الأغاني، وذكر الحسن بن عبد الله العسكري في كتاب المصون في الأدب، أن عبد الملك بن مروان لما قدم الكوفة، بعد قتله مصعب بن الزبير جلس لعرض أحياء العرب للبيعة، فقام إليه معبد بن خالد الجدلي، وكان قصيرا ذميما، فتقدم إليه رجل منا حسن الهيئة، قال معبد: فنظر عبد الملك إلى الرجل وقال: ممن أنت ؟ فسكت ولم يقل شيئا وكان منا، فقلت من خلفه: نحن يا أمير المؤمنين من جديلة، فأقبل على الرجل وتركني، فقال: من أيكم ذو الإصبع ؟

قال الرجل: لا أدري، قلت كان عدوانيا، فأقبل على الرجل وتركني وقال: لم سمي ذا الإصبع ؟ قال الرجل لا أدري، فقلت: نهشته حية في إصبغه فبيست، فأقبل على الرجل وتركني، فقال: وبم كان يسمى قبل ذلك ؟ قال الرجل لا أدري، قلت: كان يسمى حرثان، فأقبل على الرجل وتركني، فقال ؟ من أي عدوان كان ؟ فقلت من خلفه: من بني ناج الذي يقول فيهم الشاعر:

وَأَمَّا بَنُو نَاجٍ فَلَا تَذْكُرْنَهُمْ      وَلَا تُتَبِّعَنَّ عَيْنِيكَ مَا كَانَ هَالِكَا

إِذَا قُلْتُ مَعْرُوفًا لِأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ      يَقُولُ وَهَيْبٌ لَا أُسَالِمُ ذَلِكََا

فَأَضْحَى كظَهْرِ الْفَحْلِ جُبَّ سَنَاْمُهُ      يَدْبُ إِلَى الْأَعْدَاءِ أَحَدَبَ بَارِكَا

فأقبل على الرجل وتركني، وقال أنشدني قوله:

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَانٍ



قال الرجل: لست أروها، قلت يا أمير المؤمنين إن شئت أنشدتك، قال: ادن مني، فلإني أراك بقومك عالما، فأنشدته:

وليس المرء في شيء      من الإبرام والنقض  
إذا أبرم أمراً خا      له يفضي وما يفضي  
يقول اليوم أمضيه      ولا يملك ما يفضي  
عذير الحَيِّ من عَدُو      ن كانوا حَيَّة الأرض  
بَغَى بَعْضُهُمْ بَعْضا      فلم يُبقوا على بَعْض  
فَقَدْ صَارُوا أَحاديث      برُفَع القول والحُفُض

فأقبل على الرجل وتركني، وقال: كم عطاؤك ؟ فقال ألفان، فأقبل علي فقال: كم عطاؤك ؟ فقلت خمسمائة، فأقبل على كاتبه وقال: اجعل الألفين لهذا والخمسمائة لهذا، فانصرفت بها<sup>495</sup>

وتدل هذه الرواية على المعرفة الواسعة لعبدالمملك بأنساب العرب وتاريخ قبائلهم، بالإضافة إلى مخزونه الكبير من الأشعار، ناهيك عن تشجيعه الشديد على حفظ الأشعار وروايتها، ففي هذه الأشعار من العبر الشيء الكثير، فلو عدنا إلى الأبيات السابقة لوجدنا أنها عبارة عن موعظة وتذكرة لمن يسمعها، فهي تفيد بأنبغي القوم وعدوانهم على بعضهم بعضا سيؤدي حتما إلى فنائهم ( بغي بعضهم بعضا فلم يبقوا على بعض ) وهذا ما أراد عبدالمملك أن يعلمه للناس من حوله،

<sup>495</sup> الأغاني، 64 / 3، المصون في الأدب، 169 مع اختلاف في بعض التفاصيل

فالبغي بالتأكيد مرتعه وخيم، وقد لاحظنا في وصيته لأبنائه التي مرت بنا في الفصل الأول من هذا البحث كيف دعاهم للتماسك سوية وعدم الفرقة والاختلاف.

وقريب من هذه الرواية رواية أخرى نقلها لنا صاحب زهر الآداب، يقول:

" وصفت لعبدالمملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه في ابتياعها، فامتنع وامتنعت، وقالت: لا أحتاج لخلافة ولا أرغب في خليفة، والذي أنا في ملكه أحب إلي من الأرض وما فيها. فبلغ ذلك عبدالمملك فأغراه بها، فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قسرا، فما أعجب بشيء إعجابه بها، فلما وصلت إليه وصارت في يده، أمرها بلزوم مجلسه، والقيام على رأسه، فبينما هي عنده، ومعه ابنه الوليد وسليمان، وقد أخلاهما للمذاكرة، فأقبل عليهما، فقال: أي بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد: قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ

وقال سليمان: بل قول الأخطل:

شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا<sup>496</sup>

فقالت الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت:

يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

<sup>496</sup> ذكر أبو الفرج في رواية له أن الرشيد قال لجماعة من أهله وجلسائه: أي بيت مدح به الخلفاء منا ومن بني أمية أفخر ؟ فقالوا وأكثروا. فقال الرشيد: أمدح بيت وأفخر، قول ابن النضرانية في عبدالمملك: شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا الأغاني، 45/11

فأطرق ثم قال: أي بيت قالته العرب أرق ؟ فقال الوليد: قول جرير:

إِنَّ الْعُيُونََ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ      قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

فقال سليمان: بل قول عمر بن أبي ربيعة:

حَبَّذَا رَجَعُهَا يَدَيُهَا إِلَيْهَا      مِنْ يَدَيِ دِرْعِهَا تَحِلُّ الْإِزَارَا

فقالت الجارية: بل بيت حسان:

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ عَلَيْهَا لَأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ

فأطرق ثم قال: أي بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد: قول عنترة:

إِذْ يَتَّقُونَ بَيَّ الْأَسِنَّةِ لَمْ أَحْمِ عَنْهَا وَلَوْ أُنِّي تَضَائِقَ مَقْدَمِي<sup>497</sup>

فقال سليمان: بل قوله:

وَأَنَا الْمُنِيَّةُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا      فَاَلْمَوْتُ مِنِّي سَابِقُ الْآجَالِ

فقالت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك:

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِحَظُونَا      قُدُمًا وَنَلْحَقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال عبد الملك: أحسنت، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك. فأجمل

كسوتها وأحسن صلتها وردّها إلى أهلها<sup>498</sup>.

<sup>497</sup> لم أحم: لم أجبن ولم أحجم

<sup>498</sup> زهر الآداب، 1157

وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على تقدير عبدالمملك بن مروان لمن يحفظ الشعر ويرويه ويتذوقه، فيميز بين الجيد منه والأقل جودة، بغض النظر عن مستواه الاجتماعي، سواء أكان من أشراف القوم أم من عامتهم، فهذه الجارية التي أحسن أهلها تأديبها، فحفظت الشعر ووقفت أمام الخليفة وأبنائه، وأبدت إعجابها بشعر حسان بن ثابت في النسيب والمديح والغزل، وبشعر كعب بن مالك في الشجاعة والإقدام، بينما كان الوليد بن عبدالمملك معجبا بنسيب جرير وسليمان معجب بمديح الأخطل وغزل عمر بن أبي ربيعة، وهما مع شعر عنترة في البطولة والشجاعة، استطاعت أن تلفت انتباه عبدالمملك إليها، فوقف إلى جانبها، وكانت جائزتها أن أعادها الخليفة إلى أهلها حيث تحب معزة مكرمة .

قال عبدالمملك بن مروان لجلسائه: أنشدونا أكرم أبيات قاتلها العرب ؟ فقال روح بن زنباع :

وَمَضَى بِفَصْلِ قَضَائِهِ أَمْسٍ	اليَوْمُ نَعْلَمُ مَا يَجِيءُ بِهِ
وَطَلَوْعُهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُمْسِي	مَنْعَ الْبَقَاءِ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ
وَتَغِيْبُ فِي صَفْرَاءَ كَالْوَرَسِ	تَبْدُو لَنَا بِيضَاءَ صَافِيَةً

فقال له: أحسنت، فأنشدني أكرم بيت وصف به رجل قومه في حرب ؟ فقال: قول كعب بن مالك حيث يقول:

نَصَلُ السِّيَوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطُونَا قَدْ مَا وَنُلْحَقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقْ

قال له أحسنت: فأنشدني أفضل ما قيل في الجود، قال: قول حاتم الطائي:

أَمْ تَرَ مَا أَفْنَيْتُ لَمْ يَكُ ضَرَّرَنِي      وَأَنَّ يَدَي مِمَّا بَخَلْتُ بِهِ صِفْرُ  
 أَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ      وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ  
 غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصْعَلِكِ وَالْغِنَى      وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَاسَيْهِمَا الدَّهْرُ  
 فَمَا زَادَنَا بَغْيًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ      غِنَانَا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَانِ الْفَقْرِ

قال: فمن أشعر العرب ؟ قال الذي يقول – وهو امرؤ القيس :-

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ خَلَفَ خَبَائِنَا      وَأَرْحَلُنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُتَّقَبْ

والذي يقول:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا      لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي<sup>499</sup>

فعبدالمملك استحسن قول روح بن زنباع لأنه استشهد بشعر يطابق ما قصد إليه الخليفة من معان في الحكم والمديح والكرم والوصف، وكما نعلم فإن عبدالمملك كان راويا للشعر حافظا له خبيرا بأجوده، لا يقبل من جلسائه إلا أجمله وأفضله، وكثيرا ما كان يعترض على محدثيه بقوله " أشعر والله من صاحبك الذي يقول...." فهو لا يتوانى عن التصحيح والتوجيه في اختيار البارع من الأشعار في مثل هذه المواقف.

<sup>499</sup> حلية المحاضرة، 361/1، ذيل الأمالي، ص 30

## عبدالمملك وأهل بيته والشعر

وكان عبدالمملك يكثر من سؤال أهل بيته وأبنائه عن معاني الشعر، وكان يسألهم عن أحسن ما قيل في معنى من المعاني في أحد موضوعات الشعر المتنوعة، كأن يسألهم عن أكرم بيت قالته العرب أو أهجى بيت أو أفخر بيت، أو أغزل بيت، وهكذا، ففي رواية في كتاب الأغاني<sup>500</sup>، قال العتبي: " قال عبدالمملك بن مروان لولده وأهل بيته: أي بيت ضربته العرب على عصابة، ووصفته أشرف حواء<sup>501</sup> وأهلا وبناء ؟ فقالوا وأكثروا، وتكلم من حضر، فقال عبدالملك: أكرم بيت وصفته العرب بيت طفيل الذي يقول فيه:

وَبَيْتٌ تَهْبُ الرِّيحُ فِي حُجْرَاتِهِ      بِأَرْضٍ فَضَاءٍ بَابُهُ لَمْ يُحْجَبِ<sup>502</sup>  
 سَمَاوَتُهُ أَسْمَالُ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ      وَصَهْوَتُهُ مِنْ أَتَحَمِّيْ مُعَصَّبِ<sup>503</sup>  
 وَأُطْنَابُهُ أَرْسَانُ جُرْدٍ كَأَنَّهَا      صُدُورُ الْقَنَا مِنْ بَادِيٍّ وَمُعَقَّبِ  
 نَصَبَتْ عَلَى قَوْمٍ تُدِرُّ رِمَاحَهُمْ      عُرُوقَ الْأَعَادِي مِنْ غَرِيرٍ وَأَشْيَبِ<sup>504</sup>

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: " قال عبدالمملك بن مروان وعنده الوليد وسليمان ذات يوم: أي بيت أرق وأمتن ؟ فقال الوليد: قول امرئ القيس:

وَمَا ذَرَقْتَ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي      بِسَهْمَيْكَ فِي أَغْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلِ

<sup>500</sup> الأغاني، 240/15

<sup>501</sup> الحواء: بيوت الناس إذا تدانت

<sup>502</sup> حجراته: نواحيه

<sup>503</sup> سماوته: أعلاه، المعصب: ضرب من برود اليم

<sup>504</sup> الغرير: الشاب الذي لا تجربة له

وقال سليمان: قول كثير:

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَمَّا مَثَلُ لِي لَيْلَى يَكُلُّ سَبِيلِ

فقال: قاتل الله الأعرابي حيث يقول:

دَعَوْنَ الْهَوَى حَتَّى ارْتَمَيْنَ قُلُوبَنَا      بِأَعْيُنٍ أَعْدَاءٍ وَهَنَّ صَدِيقُ<sup>505</sup>

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: "قال عبد الملك بن مروان يوماً لأولاده الوليد وسليمان ومسلمة: ما أمدح بيت قالته العرب ؟ قال الوليد: قول الأخطل:

صُمٌّ عَنِ الْجَهْلِ عَنْ قَوْلِ الْخَنَا حُرُسٌ      وَإِنْ أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهُهُ صَبَرُوا  
شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ      وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا

وقال سليمان: بل قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا      أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا  
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَمَا      تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

وقال مسلمة: بل قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا      وَأَأْنَدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

فقال عبد الملك: بل قول حسان:

<sup>505</sup> حلية المحاضرة، 374 / 1

بَيْضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شَمُّ الْأُنُوفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ<sup>506</sup>

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري: " قال عبد الملك بن مروان يوما لأولاده، الوليد وسليمان ومسلمة: أي بيت قالته العرب أهجى ؟ قال الوليد: بيت الأخطل:

قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الْأَضْيَافُ كَلَبَهُمْ قَالُوا لِلْمِهْمِ بُولِي عَلَى النَّارِ

وقال سليمان: بل قول زياد الأعجم:

قَالُوا الْأَشَافِرُ تَهْجُونَا فَقُلْتُ لَهُمْ مَا كُنْتُ أَحْسَبُهُمْ كَانُوا وَلَا خُلِقُوا<sup>507</sup>

وقال مسلمة: بل قول الراعي:

لَوْ كُنْتُ مِنْ أَحَدٍ يُهْجِي هَجَوْتُكُمْ يَا ابْنَ الرُّقَاعِ وَلَكِنْ لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ

تَأْبَى فُضَاعَةً أَنْ تَرْضَى عَمَاوَتَكُمْ وَإِنَّا نِزَارٍ وَأَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ

فقال عبد الملك: بل قول حسان بن ثابت:

لَا عَيْبَ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَمِنْ قِصَرٍ جِسْمُ الْبِغَالِ وَأَخْلَامُ الْعَصَافِرِ<sup>508</sup>

<sup>506</sup> حلية المحاضرة، 338/1

<sup>507</sup> الأشافر: قبيلة من الأزد

<sup>508</sup> حلية المحاضرة، 345/ 1



وقال الشعبي: " قال عبدالمملك بن مروان لولده: أي بيت قالته العرب أكرم ؟ فقال

الوليد: قول طرفة:

وَأَعِيزْ أَحْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي      وَأَذْرِكْ مَيْسُورَ الْغَنَى وَمَعِيَ عِرْضِي

وقال سليمان: قول كثير:

إِذَا قَلَّ مَالِي زَادَ عِرْضِي كِرَامَةً      عَلَيَّ وَلَمْ أَتَّبِعْ دَفِينِ الْمَطَامِعِ

وقال مسلمة: بل قول عنترة:

وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظْلُهُ      حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

فقال عبدالمملك: بل قول كعب بن مالك:

يُسَوِّدُنِي الْمَالُ الْقَلِيلُ إِذَا بَدَتْ      مِرْوَةٌ فِينَا وَإِنْ كَانَ مُعْدِمًا<sup>509</sup>

وقال المفضل الضبي: قال عبدالمملك بن مروان يوما لولده: أي بيت قالته العرب أشجع ؟

فقال الوليد: قول عنترة:

إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مَثَلْتُ      مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضْنِكَ الْمَنْزِلِ

وقال سليمان: بل قوله أيضا:

<sup>509</sup> حلية المحاضرة، 361/1

يَدْعُونَ عَنَّتَ الرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بَرٍّ فِي لِبَانِ الْأَدْهَمِ

وقال مسلمة: بل قوله أيضا:

وَأَنَا الْمَنِيَّةُ حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا وَالطَّعْنُ مِنِّي سَابِقُ الْأَجَالِ

فقال عبد الملك: بل قول عباس بن مرداس السلمي:

أَشَدُّ عَلَى الْكُتَيْبَةِ لَا أَبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أَمٌ سِوَاهَا<sup>510</sup>

وقال عبد الملك بن مروان يوما وعنده عدة من ولده وأهل بيته: " ليقبل كل واحد منكم أحسن شعر سمع به، فذكروا لامريء القيس والأعشى وطرفة، فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا. فقال عبد الملك: أشعرهم والله الذي يقول:

وَذِي رَحِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ	يَجْلُمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ جِلْمٌ
إِذَا سُمْتُهِ وَصَلَ الْقَرَابَةَ سَامَنِي	قَطِيعَتَهَا، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالظُّلْمُ
فَأَسْعَى لِيْ أَبْنِي وَيَهْدِيْ صَالِحِي	وَلَيْسَ الَّذِي يَبْنِي كَمَنْ شَأْنُهُ الْهَدْمُ
يُحَاوِلُ رَعْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرُهُ	وَكَالْمَوْتِ عِنْدِي أَنْ يَنَالَ لَهُ رَعْمٌ
فَمَا زِلْتُ فِي لَبِنٍ لَهُ وَتَعَطَّفِ	عَلَيْهِ كَمَا تَخْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
لِاسْتَلِّ مِنْهُ الضُّغْنَ حَتَّى سَلَلْتُهُ	وَإِنْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيقُ بِهِ الْجِلْمُ

قالوا: ومن قائلها يا أمير المؤمنين ؟ قال: معن بن أوس المزني<sup>511</sup>.

<sup>510</sup> حلية المحاضرة، 352/1

<sup>511</sup> الأغاني، 42/12، الأمالي، 101/2 مع اختلاف في الرواية.

فَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يُفْضِلُ شَعْرَ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ عَلَى شَعْرِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الشَّعْرَاءِ بِسَبَبِ  
الْمَعَانِي الَّتِي شَمَلَتْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى الْحِلْمِ وَالتَّرَفُّعِ عَنِ الضَّغَائِنِ بَيْنَ الْأَقَارِبِ، كَمَا  
يَدْعُو إِلَى صَلَةِ الرَّحِمِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ، وَغَضِّ الطَّرْفِ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَمَعَامَلَتِهِمْ  
مَعَامَلَةً حَسَنَةً، وَهَذَا هُوَ الدَّرْسُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَعْلِمَهُ لَبْنِيهِ وَلَأَهْلَ بَيْتِهِ، فَهُوَ لَا يَرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ  
تَسْرِيَ الْأَحْقَادُ بَيْنَهُمْ فَتُفَرِّقَهُمْ وَتَذْهَبَ دَوْلَتُهُمْ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ مِنْهُمْ أَنْ يَبْقُوا مُتَحَابِّينَ مُتَمَاسِكِينَ،  
يَغْفِرُ بَعْضُهُمْ زَلَاتَ بَعْضٍ، وَبِذَلِكَ يَصْلُحُوا.

وَهُنَا تَظْهَرُ لَنَا مُبَاشَرَةُ صُورَةِ الْفِتْنَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَيْنَ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ  
حَوْلَ وِلَايَةِ الْعَهْدِ، فَكَمَا نَعْلَمُ دَبَّ الْخِلَافِ بَيْنَهُمَا حَوْلَ وِلَايَةِ الْعَهْدِ، وَاسْتَعْلَ عَمْرِو بْنُ سَعِيدٍ  
انْشِغَالَ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَجْهِيزِ نَفْسِهِ وَجَيْشِهِ لِمُوَاجَهَةِ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَانْسَلَخَ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ  
وَكَرَّ رَاجِعًا إِلَى دِمَشْقَ فَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا، وَأَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَغْلَقَ أَبْوَابَهَا، فَاضْطَرَّ  
عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى الْعُودَةِ عَنْ قِتَالِ مَصْعَبٍ، وَرَجَعَ إِلَى دِمَشْقَ لِإِنْهَاءِ تَمَرْدِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ، وَبَعْدَ أَنْ  
جَرَتْ بَيْنَهُمَا مَفَاوِضَاتٌ حَوْلَ وِلَايَةِ الْعَهْدِ، اتَّفَقَا عَلَى أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ بَعْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ لِعَمْرِو بْنِ  
سَعِيدٍ، وَبِذَلِكَ تَمَكَّنَ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ إِنْهَاءِ التَّمَرْدِ، إِلَّا أَنَّهُ تَمَكَّنَ فِي النِّهَايَةِ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى عَمْرِو  
بْنِ سَعِيدٍ وَقَتْلِهِ، وَبِذَلِكَ اسْتَقَرَّتْ الْأُمُورُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ.

وَيَبْدُو لِي أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ كَانَتْ مَاثِلَةً أَمَامَ عَبْدِ الْمَلِكِ عِنْدَمَا رَأَى أَوْلَادَهُ  
يَجْلِسُونَ فِي مَجْلِسِهِ، فَخَافَ عَلَيْهِمُ الْفِرْقَةَ وَالْاِخْتِلَافَ مِنْ بَعْدِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَعْلِمَهُمْ  
دَرْسًا فِي صَلَةِ الرَّحِمِ، وَأَنْ يَحْذَرَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفِتَنِ أَوْ خُرُوجِ بَعْضِهِمْ عَلَى

بعض، فأبدى إعجابه بهذه الأبيات، وأنشدها أمامهم لكي يحثهم على التعاون فيما بينهم،  
ويبين لهم فضيلة الحلم والتغاضي عن أخطاء الأقارب مراعاة لصلة الرحم .

عبدالمملك ونقده لشعر الشعراء:

كثيرا ما كان الشعراء يجتمعون في مجالس عبدالمملك الأدبية التي كان يعقدها في قصره، وكانت تدور في تلك المجالس مداولات ومناقشات حول أشعار أولئك الشعراء، وكان عبدالمملك يطلب منهم أن ينشدوه ما قالوا في موضوع معين من موضوعات الشعر كالغزل مثلا أو المديح أو الفخر أو غيرها من الموضوعات، وكان عبدالمملك بعد أن يستمع منهم يبدي رأيه النقدي فيما سمع، فيحكم لهذا الشاعر على نظيره، ويوزع الجوائز على المحسنين المبدعين منهم.

يقول الدكتور إحسان عباس في حديثه عن عبدالمملك بن مروان: " تتكاثر الروايات التي تصور مجالس عبدالمملك مستنشدا الشعر أو منشدا أو طارحا موضوعا يدور حوله الحوار، وأغلب مجالسه من هذا القبيل امتحان لأبنائه أو لأحد جلسائه أو لجماعة من أشراف الناس حضروا المجلس، وكثيرا ما يكتفي باستحسان ما يسمع، أو يعقب على الآراء المختلفة برأيه الخاص<sup>512</sup>.

اجتمع عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بن معمر بباب عبدالمملك بن مروان، فأذن لهم، فدخلوا عليه، فقال: " أنشدوني أرق ما قلتم في الغواني، فأنشد جميل:

حَلَفْتُ مِيناً يَا بُنَيَّةُ صَادِقاً      فَإِنْ كُنْتُ فِيهَا كَاذِباً فَعَمِيتُ

إِذَا كَانَ جِلْدٌ غَيْرِ جِلْدِكَ مَسَّنِي      وَبَاشَرَنِي دُونَ الشَّعَارِ شَرِيتُ

<sup>512</sup> عبدالمملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره ( مقالة )، إحسان عباس، ص 109

ولو أن راقِي الموت يَرَقِي جنازتي      بِمَنْطِقِهَا فِي النَّاطِقِينَ حَيَّيْتُ

وَأُنْشِدُ كَثِيرَ عِزَّةٍ:

يَا أَبِي وَأُمِّي أَنْتِ مَنْ مَظْلُومَةٌ      طَبِينَ الْعَدُوَّ لَهَا فَغَيَّرَ حَالَهَا

لَوْ أَنَّ عِزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى      فِي الْحَسَنِ عِنْدَ مَوْفَقِي لَقَضَى لَهَا

وَسَعَى إِلَى بَصَرِمْ عِزَّةً نِسْوَةٌ      جَعَلَ الْمَلِيكَ خَدَوْدَهُنَّ نِعَالَهَا

وَأُنْشِدُ ابْنَ أَبِي رِبِيعَةَ الْمَخْزُومِي:

أَلَا لَيْتَ قَبْرِي يَوْمَ تُقْضَى مَنِيَّتِي      بَتَلَكِ اللَّيْلِ مَنْ بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَالْفَمِ

وَلَيْتَ طَهْوَري كَانَ رِيقَكَ كُلَّهُ      وَلَيْتَ حَنَوطِي مِنْ مَشَايِكَ وَالِدَمِّ

أَلَا لَيْتَ أَمَّ الْفَضْلِ كَانَتْ قَرِينَتِي      هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِحَاجِبِهِ: أَعْطِ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَلْفِينَ، وَأَعْطِ صَاحِبَ جَهَنَّمَ عَشْرَةَ آلَافٍ<sup>513</sup>.

وهنا نتساءل، لماذا أعطى عبد الملك كلا من جميل وكثير ألفين، وأعطى عمر عشرة

آلاف ؟

والذي يبدو لي أن عبد الملك قد أعجب بتمني عمر بن أبي ربيعة ودعائه

للاقتران بصاحبته أم الفضل بغض النظر عن المكان الذي يجتمعان فيه سواء أكان

<sup>513</sup> ذيل الأمالي، 67

الجنة أم جهنم، فهذه الأمكنة ليست مهمة، لكن المهم عنده هو الاجتماع بها والبقاء معها، وهذه الصورة وهذا المعنى اللذين وردا في شعر عمر أجود وأجمل وأطرف في نظر عبدالمملك مما ورد في شعر جميل وكثير، فجميل في شعره أقسم يمينا غير كاذبة أنه مخلص لصاحبه وفي حبها، وأن سماعه لصوتها يعيد له الحياة، وهي صورة تقليدية ليست بجودة صورة عمر، أما كثير فقد رأى أن صاحبه فاقت شمس الضحى جمالا، وطلب من الله أن يجعل من خدود النساء الحاسدات لها نعلا تدوسها حبيبته، وهذه الصورة لا ترقى بأي شكل من الأشكال إلى ما رسمه عمر وتمناه لصاحبه، وهذا هو الذي جعل عبدالمملك يميز بين عمر وصاحبه، وأن يفضل شعره في هذا الموقف على شعرهما، وأن يميزه في العطاء عنهما.

"دخل أرطاة بن سهية على عبدالمملك بن مروان فاستنشه شيئا مما كان يناقض به شبيب ابن البرصاء فأنشده:

أَبِي كَانَ خَيْرًا مِنْ أَبِيكَ وَلَمْ يَزَلْ جَنِيًّا لِأَبَائِي وَأَنْتَ جَنِيْبٌ

فقال له عبدالمملك بن مروان: كذبت، شبيب خير منك أبا، ثم أنشده:

وَمَا زِلْتُ خَيْرًا مِنْكَ مُذْ عَصَّ كَارِهَا بِرَأْسِكَ عَادِي النَّجَادِ رَسُوْبٌ<sup>514</sup>

فقال له عبدالمملك صدقت. أنت في نفسك خير من شبيب نفسا، فعجب من عبدالمملك من حضر ومن معرفته مقادير الناس على بعدهم منه في بواديهم، وكان الأمر على ما قال:

<sup>514</sup> عادي النجاد: قديم يعود إلى زمن عاد

كان شبيب أشرف أبا من أرطأة، وكان أرطأة أشرف فعلا ونفسا من شبيب<sup>515</sup>.

ونلاحظ من هذه الرواية سعة اطلاع عبد الملك بأحوال الناس لا سيما الشعراء منهم، واهتمامه في نقده بصدق الشاعر فيما يقول، فإلى جانب اهتمامه بجودة الشعر وجودة معانيه، كان أيضا يحتفي بصدق الشاعر في شعره لا سيما في مثل هذه المواقف من المفاخرة، فالصدق أساس من الأسس التي يجب على الشاعر أن يأخذها في اعتباره عند نظمه الشعر، وإن كان يحتاج في بعض المواقف إلى المبالغة في صورته<sup>516</sup>.

قال عبد الملك لأسليم بن الأحنف الأسدي ما أحسن ما مدحت به ؟ فاستعفاه فأبى أن يعفيه وهو معه على سريريه، فلما رأى إلا أن يخبره، قال: قول القائل:

أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبُ الْمُخَبُّونَ هَلْ لَكُمْ بِسَيِّدِ أَهْلِ الشَّامِ تُحِبُّوْا وَتَرْجِعُوْا  
مِنْ التَّفْرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ إِذَا اعْتَزَوْا وَهَابَ الرِّجَالُ حَلَقَةَ الْبَابِ فَعَقَّعُوا  
إِذَا النَّفْرُ السُّودُ الْيَمَانُونَ مَتَّمُّوا لَهُ حَوْكُ بُرْدِيهِ أَجَادُوا وَأَوْسَعُوا  
جَلَا الْمِسْكُ وَالْحَمَامُ وَالْبَيْضُ كَالْدُمَى وَقَرْنُ الْمَدَارِي رَأْسُهُ فَهُوَ أَنْزَعُ

فقال له عبد الملك: ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك ( قال أبو الحسن هو أبو قيس بن الأسلت ):

<sup>515</sup> الأغاني، 21/13

<sup>516</sup> عبد الملك الناقد الأديب، 206



قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ<sup>517</sup>

أُنْشِدَ عبد الملك قولَ كثيرٍ فيه:

فَمَا تَرَكوها عَنْوَةً عَنْ مَوَدَّةٍ وَلَكِنْ بِحَدِّ الْمَشْرِفِي اسْتَقَالَهَا

فأعجب به، فقال له الأخطل: ما قلت لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه. قال: وما قلت ؟ قال قلت:

أَهْلُوا مِنَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأُضْبَحُوا مَوَالِي مُلْكٍ لَا طَرِيفٍ وَلَا عَضْبٍ

جعلته لك حقاً وجعلك أخذته غصبا، قال: صدقت<sup>518</sup>.

فعبد الملك في هذا الحكم يوافق الأخطل رأيَه بأن ما قاله في عبد الملك أفضل مما قاله كثير في بيته السابق، وذلك لأن كثيراً يزعم أن عبد الملك وصل إلى الحكم عن طريق القوة وبحد السيف ( بحد المشرفي )، بينما بيت الأخطل يبين أن عبد الملك وصل إلى الحكم بسبب موالاة الناس له ولم يأخذه غصبا.

وكان عبد الملك يقول للشعراء: يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر،

ومرة بالجيل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

تَهَارُكُم مَكَابِدَةٌ وَصَوْمٌ وَلَيُّكُم صَلَاةٌ وَاقْتِرَاءُ

<sup>517</sup> الكامل للمبرد، 234/1

<sup>518</sup> الأغاني، 206/8

وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكِّيِّ      فَاسْرَعَ فَيَكُم ذَاكَ الْبَلَاءُ  
بِكِي نَجْدٌ غَدَاةٌ غَدِيدَةٌ عَلَيْكُمْ      وَمَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْجَوَاءُ  
وَحَقٌّ لِكُلِّ أَرْضٍ فَارَقَوْهَا      عَلَيْكُمْ لَا أَبَا لَكُمْ الْبُكَاءُ  
أَجْعَلَكُمْ وَأَقْوَاماً سَوَاءً      وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْهَوَاءُ  
وَهُمْ أَرْضٌ لَأَرْجِلِكُمْ وَأَنْتُمْ      لَأَرْؤُسِهِمْ وَأَعْيُنُهُمْ سَمَاءٌ<sup>519</sup>

فهذه هي المعاني التي يريد عبد الملك بن مروان أن يمدح هو وبنو أمية بها، لا أن يمدحوا مدحا تقليديا، فيصورونهم جبالا أو أسودا أو بحورا، إنما يريد منهم أن يصفوهم بأنهم صوامون قوامون قارئون للقرآن، إنها المعاني والصور الإسلامية التي تضي على الممدوح هالة من المهابة والجلال في ظل الإسلام العظيم الذي رفع شأن الأمة الإسلامية بين الأمم، وهي الصور والمعاني التي مدح بها أيمن بن خريم بني هاشم.

وفي رواية أخرى نقلها أبو الفرج " كان عبد الملك بن مروان يقول للشعراء: تشبهوننا مرة بالأسد، ومرة بالبازي، ومرة بالصقر، ألا قلتم كم قال كعب الأشقري في المهلب وولده:

بِرَاكِ اللَّهِ حِينَ بِرَاكِ بَحْرًا      وَقَجَرِ مَنْكَ أَنْهَارًا غِزَارًا  
بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالِي      إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الْخَطَارَا  
كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَذْرِ      دَرَارِيٍّ تَكْمَلُ فَاسْتَدَارَا

<sup>519</sup> الأغاني، 196/20، ديوان المعاني، 28 / 1

مُلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ تَغْرِ      إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طَارَا  
رِزَانٌ فِي الْأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِم      مِنْ الشَّيْخِ الشَّمَائِلَ وَالنَّجَارَا  
نَجُومٌ يَهْتَدِي بِهِمْ إِذَا مَا      أَخُو الظُّلَمَاءِ فِي الْغَمَرَاتِ حَارَا<sup>520</sup>

فهو لا يريد أن يمدح بمثل تلك المعاني التي أصبحت كما يرى معان مستهلكة، وإفما يريد أن تكون الصورة التي ترسم له ولبنيه مختلفة عن الصور التقليدية تلك، ويحب أن يمدح بمثل ما مدح به كعب الأشقري المهلب وولده لما في هذا المديح من معان وصور طريفة مستحبة بعيدة عن التقليدية التي درج الشعراء على مدح الممدوحين بها.

وفد رجل من بني ضِنَّة على عبدالمملك بن مروان فقال:

وَاللَّهِ مَا نَدْرِي إِذَا مَا فَاتَنَّا      طَلَبُ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي نَتَطَلَّبُ  
فَلَقَدْ ضَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ فَلَمْ نَجِدْ      أَحَدًا سِوَاكَ إِلَى الْمَكَارِمِ يُنْسَبُ  
فَاصْبِرْ لِعَادَتِنَا الَّتِي عَوَّدْتَنَا      أَوْ لَا فَأَرْشِدْنَا إِلَى مَنْ نَذْهَبُ

فقال عبدالمملك إلي إلي ! وأمر له بألف دينار، ثم أتاه في العام المقبل فقال:

يَرْبُ الَّذِي يَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ إِنَّهُ      إِذَا فَعَلَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَهَمًّا  
وَلَيْسَ كِبَانٍ حِينَ تَمَّ بِنَاؤُهُ      تَتَّبَعُهُ بِالنَّفْضِ حَتَّى تَهْدَمَا

<sup>520</sup> الأغاني، 14/181

فأعطاه ألفي دينار، ثم أتى في العام الثالث فقال:

إِذَا اسْتُمِطِرُوا كَانُوا مَغَارِيْرَ فِي النَّدَى يَجُودُونَ بِالْمَعْرُوفِ عُوْدًا عَلَى بَدْءِ

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار<sup>521</sup>.

فهذه الرواية إن صحت فإنها تدل على أن عبد الملك لم يكن في يوم من الأيام يصد من يقصدون مجلسه، وأنه كان يعطي الوافدين عليه بسخاء.

ودخل الأحمر بن سالم المري على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا أحمر، كيف قلت :

مُقَلٌّ رَأَى الْإِفْلَالَ عَارًا فَلَمْ يَزَلْ يَجُوبُ بِلَادَ اللَّهِ حَتَّى تَمَّوَلَا

فأنشده فأصغى إليه مطرقا، فلما فرغ قال له: ما حاجتك ؟ قال: أنت يا أمير المؤمنين أعلى بالجميل عينا، فافعل ما أنت أهله، فإني لما أوليتني غير كافر، فأمر له عبد الملك بعشرة آلاف درهم، وألحقه بالشرف، فخرج من عند عبد الملك وهو يقول:

بِكُفِّ ابْنِ مِرْوَانَ حَيِيْتُ وَنَاشَنِي إِلَهِي مِنْ دَهْرِ كَثِيرِ الْعَجَائِبِ

فَأَذْرَكْنِي وَالرُّكْنَ مِنْي مُضْعَضَعٌ وَقَدْ أَشْرَفَ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

.....

<sup>521</sup> الأماي، 283 / 2

فلما أنشد عبدالمملك قال: أحسنت ويحك يا ابن سالم ! هل كنت هيات مما قلت قبل اليوم ؟ قال: لا، فقال: ويحك! فقد أمكنك القول فلا تكثر، وقليل كاف خير من كثير غير شاف.....<sup>522</sup>.

ونقل لنا صاحب ديوان المعاني رواية تدل على نفور عبدالمملك من المديح التقليدي والصور والتشبيهات التي ترددت في كثير من أشعار المديح العربية، فقد دخل الأخطل على عبدالمملك ابن مروان، فقال: يا أمير المؤمنين ! قد امتدحتك فاستمع مني، فقال: إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك، وإن كنت قلت كما قالت أخت بني الشريد لأخيها صخر فهات. فقال الأخطل، وما قالت يا أمير المؤمنين ؟ قال: هي التي تقول:

وما بَلَغَتْ كُفَّ امرئٍ متناولٍ      منَ المجدِ إلَّا حيثُ ما نلتَ أطولُ

وما بَلَغَ المُهدونَ في القولِ مِدْحَةً      ولو أَطْنَبوا إلَّا الَّذي فيكَ أَفضَلُ

وجارِكَ محفوظٌ منيعٌ بِنَجْوَةٍ      من الضَّيْمِ لا يبيكي ولا يَتَذَلُّ

فقال الأخطل: والله لقد أحسنت القول، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها، قال هات. فأُشْد:

<sup>522</sup> الأخبار الموفقيات 410، تاريخ دمشق 7 / 350

إِذَا مُتَّ مَاتَ الْعُرْفُ وَانْقَطَعَ النَّدَى      مِنْ النَّاسِ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مَصْرَدٌ

وَرُدَّتْ أَكْفُ السَّائِلِينَ وَأَمْسَكُوا      مِنْ الدِّينِ وَالْدُنْيَا يَخْلُفُ مُجَدِّدٌ<sup>523</sup>

وفي رأيي أن أبيات الخنساء أجود وأجمل من بيتي الأخطل، إذ لا يستحب — كما ذكر صاحب ديوان المعاني — أن يقال للممدوح إذا مت، فإن استماع ذلك مكروه، وهو فأل غير حسن لا يحسن بالشاعر أن يتحدث به أمام الممدوح، وكثيرا ما كان عبدالمملك يتشاءم من أقوال بعض الشعراء، وسنأتي على هذه المسألة لاحقا.

وذكر صاحب المصون في الأدب أن جرثومة الشاعر<sup>524</sup> قد دخل على عبدالمملك بن مروان، فأنشده والأخطل حاضر، فلما بلغ إلى قوله:

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثْتُهَا      وَكَلَّفْتُهَا خَرْقًا مِنَ الْأَرْضِ بَلَّغَا

فَمَا تَجِدُ الْحَاجَاتُ دُونَكَ مُنْتَهَى      سِوَاكَ وَلَا تَلْقَى وَرَاءَكَ مَطْلَعَا

قال عبدالمملك للأخطل: هذا المدح ويلك يا ابن النصرانية!<sup>525</sup>

وهذا يدل على إعجاب عبدالمملك الشديد بالمعنى الجميل الذي ورد في أبيات جرثومة الشاعر، فعبدالمملك في رأي الشاعر هو منتهى الكرم، فعنده تنتهي كل الحاجات، ومهما بحث صاحب الحاجة عن من يقضي له مسألة فإنه لن يجد

<sup>523</sup> ديوان المعاني، 29/1، المصون في الأدب، 64، مع اختلاف في بعض الألفاظ

<sup>524</sup> لم أعثر على ترجمته

<sup>525</sup> المصون في الأدب، 64

أحدا كالخليفة عبدالمك في قضاء حاجات الناس، ولذلك لا بد له من أن يعود إليه ويسأله حاجته .

وأنشد الأخطل عبدالمك بن مروان قوله:

بَكَرَ الْعَوَازِلُ يَبْتَدِرْنَ مَلَامَتِي      وَالْعَاذِلُونَ فَكُلُّهُمْ يَلْحَانِي  
فِي أَنْ سَبَقْتُ بِشَرِيَّةٍ مَقْدِيَّةٍ      صَرَفٍ مُشْعَشَعَةٍ مِمَّا شَانِ  
فَقَالَ لَهُ عَبْدِالْمَلِكِ: شَبِيبُ بْنُ الْبَرَاءِ أَكْرَمَ مِنْكَ وَصَفَا لِنَفْسِهِ حَيْثُ يَقُولُ:  
وَإِنِّي لَسَهْلُ الْوَجْهِ يُعْرِفُ مَجْلِسِي      إِذَا أَحْزَنَ الْقَاذُورَةُ الْمُتَعَبِّسُ  
يُضِيءُ سَنَا جُودِي لِمَنْ يَبْتَغِي الْقَرَى      وَلَيْلُ بَخِيلِ الْقَوْمِ ظِلْمَاءُ حِنْدُسُ  
أَلَيْسَ لِيذِي الْقُرْبَى مِرَاراً وَتَلْتَوِي      بِأَعْنَاقِ أَعْدَائِي حِبَالٌ مَرَّسُ<sup>526</sup>

فعبدالمك يحكم لشبيب بن البراء من خلال هذه الأبيات التي تمثل بها بأنه أكرم وصفا لنفسه من الأخطل بعد سماعه لأبيات الأخطل التي وصف بها نفسه، على الرغم من أن الأخطل كان شاعر عبدالمك المفضل، وهو الذي سماه شاعر بني أمية، لكن الصورة التي وصف شبيب بها نفسه تفوق بكثير من حيث الجمال والجودة الصورة التي رسمها الأخطل لنفسه.

وكان عبدالمك يتمثل بقول شبيب في بذل النفس عند اللقاء ويعجب به:

<sup>526</sup> الأغاني، 12/ 202

دَعَانِي حِصْنٌ لِلْفِرَارِ فَسَاءَنِي      مَوَاطِنُ أَنْ يُثْنَى عَلَيَّ فَأُشْتَمَا  
فَقُلْتُ لِحِصْنٍ نَحْ نَفْسِكَ إِمَّا      يَذودُ الْفَتَى عَنْ حَوْضِهِ أَنْ يُهْدَمَا  
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ      لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا  
سَيَكْفِيكَ أَطْرَافُ الْأُسْنَةِ فَارِسْ      إِذَا رِيحَ نَادَى بِالْجَوَادِ وَبِالْحِمَى  
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْشَ الْمَكَارِهِ أَوْشَكْتُ      حِبَالُ الْهُوَيْنَى بِالْفَتَى أَنْ تَجَدَّمَا<sup>527</sup>

فهذه الأبيات تمثل قمة الشجاعة والإقدام والبرسالة في الذود عن الحياض، ومقارعة الخطوب مهما كانت النتائج، فإما أن يعيش الإنسان بعزة وكرامة ويدفع الأعداء عن حماه، وإما أن يركن إلى الاستكانة والذل والمهانة، وإذا لم يُقَدِّم المرء بكل قوة وجرأة للدفاع عن حقه، فإن مصيره سيكون المهانة والذل لا محالة، وهذا هو الذي دعا الخليفة عبدالملك للتمثل بهذه الأبيات وإنشادها إعجاباً منه بالمعنى الجليل الذي تحمله، والصورة الجميلة التي رسمها شبيب والتي تمثل الفارس المقدم الذي لا تثنيه الخطوب عن هدفه النبيل السامي في الدفاع عن حقوقه.

دخل الأقيشر على عبدالملك وعنده قوم، فتذاكروا الشعر، وذكروا قول نصيب:

أَهِيْمُ بَدْعِدٍ مَا حَيِيْتُ فَإِنْ أُمْتُ      فَوَاحِرَنَّا مِنْ ذَا يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر، فقال عبدالملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله ؟ قال: كنت أقول:

<sup>527</sup> الأغاني، 12 / 202



تُجِبُّكُمْ نَفْسِي حَيَاتِي فَإِنْ أُمْتُ    أَوْكُلُ بِدَعْدٍ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

فقال عبدالمملك: والله لأنت أسوأ قولا منه حين توكل بها، فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال: كنت أقول:

تُجِبُّكُمْ نَفْسِي حَيَاتِي فَإِنْ أُمْتُ    فَلَا صَلَحْتُ دَعْدٌ لَدِي خَلَّةٌ بَعْدِي

فقال القوم جميعا: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم<sup>528</sup>.

فعبدالمملك يعيب على الشاعر نصيب حزنه وانشغاله بعد موته بالبحث عن يهيم بصاحبه دعد، وكذلك عاب على الأقيشر الذي يريد أن يوكل بدعد من يهيم بها بعد موت صاحبها، وهذا كله مناف لأخلاق العربي الذي يأنف ويأبى أن يشاركه رجل آخر في حب المرأة ولو بعد موته. ولذلك قال عبدالمملك " فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي " وهذا هو الرأي الصواب، أن لا يصل إلى حبها من به خصيصة أو عيبا.

" وعندما وفد عمر بن أبي ربيعة على عبدالمملك، قال له: أنت القائل:

أَأْتَرُكَ لَيْلَى لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا    سَوَى لَيْلَةٍ إِيَّيْ إِذَا لَصَبُورُ

قال: نعم، قال: فبئس المحب أنت، تركتها وبينك وبينها غدوة، قال: يا أمير المؤمنين إنها من غدوات سليمان، غدوها شهر ورواحها شهر<sup>529</sup>.

<sup>528</sup> الشعر والشعراء، 1/ 412، الكامل للمبرد، 1/ 236، الموشح، 225 مع اختلاف في بعض المفردات

<sup>529</sup> الأغاني 238/20

فقد اعتبر عبدالمملك عمر بن أبي ربيعة في هذا الموقف غير وفي وغير صادق في حبه لليلي، فالمحب يتحمل المشاق والمتاعب من أجل الوصول إلى محبوبته والفوز بقلائها، وعمر بن أبي ربيعة يتركها على الرغم من قرب اللقاء بينهما ولذلك انتقده عبدالمملك.

ودخل كثير عزة على عبدالمملك، فقال له: أأنت كثير عزة؟ فقال: نعم، قال: أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فقال: يا أمير المؤمنين كل عند محله رحب الفناء شامخ البناء، عالي السناء، ثم أنشأ يقول:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ قَتَزْدَرِيهِ	وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَاصُورٌ
وَيُجِبُكَ الطَّيْرُ إِذَا تَرَاهُ	فَيُخْلِفُ ظَنَّنَكَ الرَّجُلُ الطَّيْرُ
بُغَاثُ الطَّيْرِ أَطَوَّلَهَا رِقَاباً	وَلَمْ تَطُلِ الْبُزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ
خَشَّاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحَا	وَأُمُّ الصَّفْرِ مِقْلَاةٌ نَزُورُ
ضِعَافُ الْأَسَدِ أَكْثَرُهَا زَيْبَرَا	وَأَصْرُمُهَا اللُّوَاتِي لَا تَزِيرُ
وَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بَغِيرِ لُبٍّ	فَلَمْ يَسْتَعْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
يَنْوُخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي	فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ
يَقْوُدُهُ الصَّيْبُ بِكُلِّ أَرْضٍ	وَيَنْحَرُهُ عَلَى التُّرْبِ الصَّغِيرِ
فَمَا عَظُمَ الرُّجَالِ لَهُمْ بَزَيْنِ	وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ

فقال عبدالمملك: لله دره، ما أفصح لسانه وأضبط جنانه، وأطول عنانه، والله لأظنه كما وصف نفسه<sup>530</sup>.

وليس أدل على نقد عبدالمملك بن مروان لاستخدام الشعراء للمعاني في غير مواقعها التي تناسبها من الرواية التي نقلها لنا صاحب الموشح على لسان الزبير بن بكار حيث قال: " قال عبدالمملك بن مروان: لو قال كثير بيته:

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزُّ كُلِّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِئَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

في حرب لكان أشعر الناس "<sup>531</sup>.

ولو أن القطامي قال بيته الذي وصف فيه مشية الإبل:

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلَّمُ

في النساء لكان أشعر الناس "<sup>532</sup>.

وقال العتبي: " قال عبدالمملك بن مروان: ثلاثة أبيات لو قيلت في غير ما قيلت فيه لكان أرفع لها: منها قول كثير: " فقلت لها يا عز كل مصيبة ... البيت " لو كان في تقوى وزهد لكان أشعر الناس.

ومنها قوله في غيره:

<sup>530</sup> الأماي، 47/1، زهر الآداب، 410

<sup>531</sup> الموشح، 18، الكامل للمبرد، 421/1

<sup>532</sup> الموشح، 180

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ      لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ

لو كان هذا في وصف الدنيا لكان أجود

ومنها قول القطامي يصف الإبل " يمشين رهوا... البيت "

لو كان في صفة النساء كان أبلغ وأحسن<sup>533</sup>

لقد تبين لنا مما سبق كيف كان الشعراء يلتقون مع عبدالمملك في مجالسه يتناشدون الشعر ويتداولون الآراء حول بنائه الفني أو حول اتجاه الشاعر وما يحسن من فنون الشعر وموضوعاته، وكانت لعبدالمملك في كل ذلك توجيهاته الصائبة وآراؤه السديدة وتعليقاته الناضجة التي يوجهها لهم، وقد أسهمت هذه الآراء بلا شك في تقدم الحركة الشعرية، ودفعها خطوات إلى الأمام في طريق النضج والازدهار، كما رفدت الحركة النقدية بكثير من الآراء والأفكار حول الشعر والشعراء. في حرب لكان أشعر الناس<sup>534</sup>.

ولو أن القطامي قال بيته الذي وصف فيه مشية الإبل:

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ      وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلُّ

في النساء لكان أشعر الناس<sup>535</sup>.

<sup>533</sup> الموشح 180

<sup>534</sup> الموشح، 180، الكامل للمبرد، 1/ 421

<sup>535</sup> الموشح، 180

وقال العتبي: " قال عبدالمك بن مروان: ثلاثة أبيات لو قيلت في غير ما قيلت فيه لكان أرفع لها: منها قول كثير: " فقلت لها يا عز كل مصيبة ... البيت " لو كان في تقوى وزهد لكان أشعر الناس.

ومنها قوله في غيره:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً      لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ

لو كان هذا في وصف الدنيا لكان أجود

ومنها قول القطامي يصف الإبل " يمشين رهوا... البيت "

لو كان في صفة النساء كان أبلغ وأحسن<sup>536</sup>.

---

<sup>536</sup> الموشح، 180

تشاؤم عبدالمملك ببعض الأشعار

وفي رواية أخرى ينقلها لنا أبو الفرج: " دخل أَرْطاة بن سهية على عبدالمملك بن مروان، فقال له: كيف حالك يا أَرْطاة ؟ وقد كان أَسْن، فقال: ضَعُفْتُ أَوْصالي، وضاع مالي، وقل من ما كنت أحب كثرته، وكثر مني ما كنت أحب قلتة.. قال: فكيف أنت في شعرك ؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربع، وعلى أي القائل:

رَأَيْتُ الْمَرْءَ تَأْكُلُهُ اللَّيَالِي      كَأَكُلِ الْأَرْضَ سَاقِطَةَ الْحَدِيدِ

وَمَا تَبْغِي الْمِثْنَةَ حِينَ تَأْتِي      عَلَى نَفْسِ ابْنِ آدَمَ مِنْ مَزِيدٍ

وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَكُرُّ حَتَّى      تُؤْفَى نَذَرُهَا بِأَيِّ الْوَلِيدِ

فارتاع عبدالمملك ثم قال: بل توفي نذرها بك ويلك ! ما لي ولك ؟ فقال: لا تُرْع يا أمير المؤمنين، فإنما عنيت نفسي، وكان أَرْطاة يكتنأ أبا الوليد فسكن عبدالمملك، ثم استعبر باكيا وقال: أما والله على ذلك لتَلْمَنَ بي " <sup>537</sup>.

وكان الأخطل قد استهل قصيدته في مدح عبدالمملك بن مروان بقوله:

خَفَّ الْقَطِيطُ فَرَّاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَّرُوا      وَأَزْعَجَتْهُمْ نُؤَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ

<sup>537</sup> الأغاني، 21 / 13، عيار الشعر، 127، مع اختلاف في بعض الألفاظ

فقال له عبدالمملك: " بل منك إن شاء الله " فعاد الأخطل وأصلح من قوله بتغيير لفظ "منك " التي لم ترق لعبدالمملك، بقوله:

خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا<sup>538</sup>

وقد مر بنا أن عبدالمملك عندما أنشده الأخطل هذه القصيدة أخذ عبدالمملك يتناول لها من شدة إعجابه بها، ثم قال للأخطل: ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل: أكتفي بقول أمير المؤمنين<sup>539</sup> .

كما أن جريرا أيضا عندما مدح عبدالمملك واستهل قصيدته تلك بقوله:

أتصحوا أم فؤادك غير صاح

تطير منه عبدالمملك وقال له: بل فؤادك يا ابن اللخناء<sup>540</sup> .

ويذكر صاحب الموشح أن الفرزدق دخل على عبدالمملك بن مروان، فقال له: من أشعر أهل زماننا ؟ قال أنا يا أمير المؤمنين، قال : ثم من ؟ قال: غلام منا في البادية يقال له ذو الرمة. ثم دخل عليه جرير بعد ذلك فقال له: من أشعر الناس ؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين، قال: ثم من ؟ قال: غلام منا بالبادية يقال له ذو الرمة، فأحب عبدالمملك أن يراه لقولهما، فوجه إليه فجاء به، فقال: أنشدني أجود شعرك، فأنشد:

<sup>538</sup> الموشح 279

<sup>539</sup> الأغاني، 8 / 206

<sup>540</sup> الموشح، 280

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مقرية سرب

وكانت عينا عبدالمملك تسيلان ماء،، قال: فغضب عليه ونحاه، فقل له ويحك ! إنما دهاك عنده قولك ( ما بال عينك منها الماء ينسكب ) فاقلب كلامك، قال: فصبر حتى دخل عليه الثانية، فقال له أنشد، فأنشده: ( ما بال عيني منها الماء ينسكب ) حتى أتى على آخرها، فأجازه وأكرمه<sup>541</sup>.

ومفاد هذه الرواية – إن صحت – أن عبدالمملك أحب أن يرى هذا الفتى الشاعر الذي زكاه شاعران من كبار شعراء العصر هما الفرزدق وجبرير، على أنه يأتي في المرتبة الثانية في الشاعرية بعدهما، فلما أنشد أمام الخليفة، خانه الحظ فوصف عيني الخليفة والماء يسيل منهما من حيث لا يدري، فتطير الخليفة من شعره وأبعده عن مجلسه، وفي اللقاء الثاني عندما غير كلمة (عينك) بكلمة (عيني)، أجازه الخليفة وأكرمه. وأنا أشك في صحة هذه الرواية، وبالطريقة التي صيغت بها، فلو كان عبدالمملك يشكو من علة في عينيه كما تذكر الرواية – يسيل الماء منهما – لم يستقبل أحدا في مجلسه إلا بعد أن يتم علاجه، فهل كان سيلان الماء من عينيه علة دائمة أم علة طارئة ؟ ولم يذكر أحد ممن ترجم لعبدالمملك أنه كان يشكو من مرض في عينيه، ومن ناحية أخرى فإن عبدالمملك ليس ساذجا حتى يدخل عليه ذو الرمة مرتين متتاليتين وقد أبعده في المرة الأولى نتيجة قوله (عينك) فينشده في المرة الثاني ويقول (عيني) فيرضى عنه ويجيزه ويكرمه، أما الأمر الثالث الذي يثير الشك في

<sup>541</sup> الموشح 279، العمدة، 222



الرواية فهو زج اسم الفرزدق فيها، علما بأن الفرزدق كما مر معنا سابقا لم يفد إلى بلاط عبدالمملك كما صرح هو في شعره.

ونقل الهيثم بن عدي رواية مرفوعة إلى ولد عمرو بن سعيد الأشدق: "قدم علينا إبراهيم بن متمم بن نويرة، فنزل بنا، فكلمت فيه عبدالمملك بن مروان، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت بدويا يشبهه عقلا ولا فضلا، قال: أدخله، فأدخلته، فرأى منه ما رأينا منه، فقال: أنشدنا بعض مرثي أبيك عمك، قال: فأنشد:

نَعَمْ الْفَوَارِسُ يَوْمَ نُشِبَّةَ غَادَرُوا    تَحْتَ التُّرَابِ قَتِيلَكَ ابْنَ الْأَزُورِ

فلما انتهى إلى قوله:

أَدَعَوْتُهُ بِاللَّهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ    لَوْ هُوَ دَعَاكَ مِثْلَهَا لَمْ يَغْدِرْ

قال: فالتفت عبدالمملك إلي، فعرفت ما أراد، فقلت يا أمير المؤمنين، إن كنت علمت أو اطلعت أو شاورت، أو جرى مني في هذا قول أو فعل، فكل امرأة له طالق..... وحلف بنو عمرو بن سعيد وهم أخواله مثلها، فقال عبدالمملك وذاك وذاك، فقام والله ما أمر له بشيء، فلما انصرفنا جمعنا له بيننا دراهم وكسوة وجهزناه ورجع إلى بلاده ".

وقال أبو عبيد الله المرزباني " وإنما كره عبد الملك استماع هذا الشعر لقتله عمرو بن سعيد الأشدق، بعد إعطائه الأمان، وقد ر أن ابن متمام وضعه بنو عمرو بن سعيد على إنشاد البيت الأخير<sup>542</sup> .

---

<sup>542</sup> الموشح، 280

تمثله بالشعر

وَهَبَ الله عبدالمملك بن مروان مقدرة فذة على حفظ الشعر، فقد اختزنت في ذاكرته آلاف الأبيات الشعرية لشعراء من العصرين الجاهلي والإسلامي، وكان يتمثل ببعض هذه الأشعار في الأوقات المناسبة حسب مقتضى الحال، وقد أوردت المصادر الأدبية والتاريخية روايات متعددة تبين لنا تمثله بالشعر في كثير من المواقف.

قال عبدالمملك بن مروان وكان معجبا بعروة بن الورد: " ما يسرني أن أحدا من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله:

أَتَهْزَأُ مِنْي أَنْ سَمِنْتُ وَأَنْ تَرَى بِجَسَمِي مَسَّ الْجُوعِ وَالْجُوعُ جَاهِدُ

لِإِنِّي أَمْرُوٌّ عَافِي إِنْ أَيْ شَرَكْتُ وَأَنْتَ أَمْرُوٌّ عَافِي إِنْ أَيْ وَاحِدُ

أَفَرَّقُ جَسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُوا قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ<sup>543</sup>

ويقال إن عبدالمملك قال: من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة، فإعجابه بكرم عروة دعاه لرواية شعره والتمثل به في التدليل على الكرم والسماحة، وقد وصل به الإعجاب إلى حد أن يتمنى أن يكون بينه وبين عروة أسرة نسب.

" أصبح عبدالمملك يوما في غداة باردة، فتمثل قول الأخطل:

إِذَا اصْطَبَحَ الْفَتَى مِنْهَا ثَلَاثًا بِغَيْرِ الْمَاءِ حَاوَلَ أَنْ يَطُولَا

<sup>543</sup> الأغاني، 52/3، العقد الفريد، 161/1 مع اختلاف في بعض الألفاظ

مَسَى قُرْشِيَّةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَأَرْخَى مِنْ مَازِرِهِ الْفُضُولَا

ثم قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ السَّاعَةَ مَجْلِلُ الْإِزَارِ، مُسْتَقْبِلُ الشَّمْسِ فِي حَانُوتٍ مِنْ حَوَانِيتِ دِمَشْقٍ، ثُمَّ بَعَثَ رَجُلًا يَطْلُبُهُ فَوَجَدَهُ كَمَا ذَكَرَ<sup>544</sup>

" ولما أراد عبد الملك الخروج لقتال مصعب بن الزبير، لاذت به عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وقالت: يا أمير المؤمنين، لا تخرج السنة لحرب مصعب، فإن آل الزبير ذكروا خروجك وابعث إليه الجيوش، وبكت وبكى جواربها معها، وجلس، وقال: قاتل الله ابن أبي جمعة فأين قوله:

إِذَا مَا أَرَادَ الْعَزْوُ لَمْ تَنْتَهِ هَمَّهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا عَقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا

نَهْنَهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ، فَبَكَى مِمَّا شَاجَاهَا قَطِيبُهَا

فكَانَهُ يِرَاكُ وَيِرَانِي يَا عَائِشَةَ، ثُمَّ خَرَجَ<sup>545</sup>.

ففي هذا الموقف المؤثر، ومع رجاء عائشة له بعدم الخروج لقتال مصعب وبكائها خوفا عليه، وتأثره الشديد لهذا الموقف، إلا أنه صمم على الخروج بنفسه لملاقاة مصعب، وتمثل بشعر كثير الذي ينطبق على هذه المناسبة، ويصف موقف عبد الملك وعائشة وكأنه يقف معهما<sup>546</sup>.

<sup>544</sup> الأغاني، 207/8

<sup>545</sup> الأغاني، طبقات الشعراء، 543، العقد الفريد، 146/5، الأمالي، 13/1، الكامل في التاريخ، ابن الأثير 104/4،

أنساب الأشراف، 90/7

<sup>546</sup> عبد الملك الناقد الأديب، 158

لما دخل سلمة بن زيد بن نباتة الفهمي على عبدالملك، قال له: أيُّ الزمان أدركتَ أفضل ؟ وأيُّ الملك أكمل ؟ قال: أما المملوك فلم أرَ إلا ذاما وحامدا، وأما الزمان فيرفع أقواما ويضع أقواما، وكلهم يذم زمانه، لأنه يبلي جديدهم، ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع غير الأمل، قال: فأخبرني عن فهم، قال: هم كما قال من قال:

دَرَجَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَى فَهْمٍ      سَمِ بْنِ عَمْرٍو فَاصْبَحُوا كَالرَّمِيمِ  
وَحَلَّتْ دَارُهُمْ فَأَضَحَتْ يَبَابَا      بَعْدَ عِزٍّ وَثَرَوَةٍ وَنَعِيمِ  
كَذَاكَ الزَّمَانُ يَذْهَبُ بِالنَّاسِ      سِ وَتَبْقَى دِيَارُهُمْ كَالرُّسُومِ

قال: فمن يقول منكم:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ خَلِقُوا وَكَانُوا      يُحِبُّونَ الْغِنَى مِنَ الرِّجَالِ  
وَإِنْ كَانَ الْغِنَى قَلِيلَ خَيْرٍ      بَخِيلًا بِالْقَلِيلِ مِنَ النَّوَالِ  
فَمَا أَدْرِي عَلَامَ وَفِيمَ هَذَا      وَمَاذَا يَرْتَجُونَ مِنَ الْبِخَالِ  
أَلِلْدُّنْيَا ؟ فَلَيْسَ هُنَاكَ دُنْيَا      وَلَا يُرْجَى لِحَادِثَةِ اللَّيَالِ

قال: أنا<sup>547</sup>.

<sup>547</sup> تاريخ الطبري، 6 / 420، أنساب الأشراف، 7 / 226

فعبدالمملك في هذه الجلسة مع الفهمي يسأل عن قبيلة فهم، يريد أن يعرف أخبارها، وما آلت إليه أحوال أبنائها، فيخبره الفهمي عما جرى لهذه القبيلة وخراب ديارها التي أصبحت رسوما دارسة بعد أن كانت عامرة، هكذا هي الدنيا لا تترك أمرا على ما كان، والزمان يذهب بالناس فيتركون كل شيء وراءهم، ويتمثل عبدالمملك بشعر للفهمي نفسه يتحدث عن المعنى نفسه تقريبا لكنه يعالج قيمة أخرى من القيم السائدة في المجتمع والمتمثلة باتباع الناس الأغنياء وحبهم لهم وإن كان هؤلاء الأغنياء بخلاء، ويتساءل ما الذي يجنيه البخيل من بخله على الرغم من معرفته بأنه سيهلك ويترك كل شيء وراءه، وفي هذه الرواية وتمثل عبدالمملك بهذا الشعر رد مفحم على الذين اتهموا عبدالمملك بالبخل، فلو كان بخيلا كما زعموا لما تمثل بشعر يذم البخل والبخلاء.

وكان عبدالمملك إذا جلس للقضاء يتمثل بقول الشاعر:

إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى      وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ

وَاصْطَرَعَ الْقَوْمُ بِالْبَائِبِهِمْ      نَقَّضِي بَحْكُمْ عَادِلٍ فَاصِلِ

لَا تَجْعَلِ الْبَاطِلَ حَقًّا وَلَا      نَلْفِظْ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ

نَخَافُ أَنْ تُسَفِّهَ أَخْلَامُنَا      فَتَحْمُلَ الدَّهْرُ مَعَ الْخَامِلِ<sup>548</sup>

هذا هو الخليفة عبدالمملك الذي لا يميل في حكمه إلى داعي الهوى، فهو يقضي بالعدل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويجتهد لكي لا يزيغ عن الحق، ولا يرجع

<sup>548</sup> البداية النهاية، 223/9، تاريخ دمشق، 37/ 140، العقد الفريد، 5/ 141

الباطل على الحق أبداً، يجتهد في الحكم بين الخصمين لكي يصل إلى الحقيقة ويحكم بالحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وقال عبد الملك كان شاعر ثقيف في الجاهلية خيراً من شاعرهم في الإسلام، فقيل له :  
من يعني أمير المؤمنين، فقال لهم: أما شاعرهم في الإسلام فيزيد بن الحكم الذي يقول:

فما منك الشَّبَابُ ولست منه إذا سألْتُكَ لحيَّتكَ الخِضَابَا

عقائل من عقائل أهل نجد ومكّة لم يُعَقِّلَنَّ الرُّكْبَا

وَلَمْ يَطْرُدَنَّ أَبْقَعَ يوم ظعن ولا كلباً طَرَدَنَّ ولا غرابَا

وقال شاعرهم في الجاهلية:

والشَّيْبُ إِن يَظْهَرُ فَإِنَّ وراءَهُ عُمْراً يكون خلاله متنفسُ

لم يَنْتَقِصْ مني المَشْيِبُ قُلَامَةً وَلَما بَقِيَ مِنِّي أَلْبٌ وَأَكْيَسُ<sup>549</sup>

نلاحظ في هذه الرواية أن عبد الملك بن مروان بسعة اطلاعه ومعرفته بشعراء القبائل وشعرهم، يقابل بين شاعر ثقيف في الجاهلية وبين شاعرهما في الإسلام، ويأخذ مثلاً لهذه المقابلة حديث الشعارين عن قضية مهمة تؤرق الإنسان في مختلف العصور، ألا وهي قضية الشيب والشباب، ويرى عبد الملك في هذه المقابلة أن شاعر ثقيف في الجاهلية أفضل من شاعرهما في الإسلام، وذلك لأن الشاعر الجاهلي

<sup>549</sup> الأغاني، 12/ 211

يعتبر الشيب دليلاً على غنى الإنسان بالتجارب، فالشيب لم يأخذ من الشاعر إلا أقل القليل، وهذا القليل الذي ذهب الشيب به يتمثل بالطيش والغرور والنزق، إذن أخذ الشيب العادات غير المستحبة منه، وما بقي عنده من عادات حميدة أعظم مما ذهب به، فقد بقيت الفطنة والحكمة والتجربة والعقل والكياسة، ولذلك نستطيع أن نقول إن الشيب قد أخذ الأشياء السيئة وترك الأشياء الحميدة، هذه هي الحكمة المستقاة من أبيات شاعر ثقيف الجاهلي الذي فضله عبد الملك على نظيره الإسلامي الذي نظر إلى المشيب نظرة تشاؤم، فالمشيب في رأيه هو نهاية فترة الشباب، ويرى أن الخضاب الذي يخفي الشيب إنما هو خدعة للنفس وللآخرين، فإذا ذهب الشباب الذي فيه سعادة الإنسان وابتض شعره، فقد ذهبته من حيويته وسعاداته، وقضية الشيب والشباب هي قضية واحدة في مختلف الأجيال والأزمان، لكن لكل إنسان فلسفته الخاصة في هذه القضية، والمعنى الذي جاء به الشاعر الجاهلي ألطف وأجمل بكثير من المعنى الذي جاء به الشاعر الإسلامي، لذلك استحسنته عبد الملك، وكان محققاً في ذلك<sup>550</sup>.

" لما مات عبدالعزيز بن مروان، ونعي إلى أخيه عبد الملك، تمثل عبد الملك بأبيات محمد بن بشير الخارجي، وجعل يردددها ويبيكي:

يا أيها المتُمتني أن يكونَ فتىً      مثل ابن ليلى قد خلا لك السُّبُلا  
إنْ تَزَحَلَ العيسَ كي تسعى مساعيهُ      يُشَفِّقُ عليك وتعملُ دون ما عملا

<sup>550</sup> أنظر عبد الملك الناقد الأديب، 207



لو سرت في الناس أقصاهم وأقربهم في شُقَّة الأرض حتى تُخسر الإِبلَا  
تُبغي فتى فوق ظَهر الأَرض ما وجدوا مثلَ الذي غَيَّبُوا في بَطْنِها رَجُلًا  
اغْدُ ثَلَاثَ خِصَالٍ قَدْ عُرِفْنَ لَهُ هَل سَبَّ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سُبَّ أَوْ بَخِلَا<sup>551</sup>

ونلاحظ هنا أنه على الرغم من الروايات التي نقلت لنا بأن عبدالملك كان ينوي خلع أخيه عبدالعزيز عن ولاية العهد، ويعقد لابنيه الوليد وسليمان بعده بالخلافة<sup>552</sup>، قد حزن حزنا شديدا على وفاة أخيه، فتمثل بهذه الأبيات ليعبر عن هذا الحزن، وأخذ يكرر هذا الشعر ويردده ويبكي أسفا على أخيه.

وبعد، فهذه بعض الروايات التي وردت في بعض المصادر الأدبية والنقدية العربية القديمة، تحدثت عن المقدرة الفذة التي كان يتمتع بها عبدالملك بن مروان في مجال حفظ الشعر وروايته ونقده والتمثل به في المواقف المناسبة، ولو حاولنا أن نستقصي جميع الروايات التي ساقتها لنا تلك المصادر لضاق بها هذا البحث، ولكن اكتفيت بالتمثيل على كل مجال من تلك المجالات ببضع روايات تبين إلى أي مدى كان عبدالملك يحب الشعر ويتذوقه وينقده ويتمثل به ليعبر عن حاجة أو قضية أو أمر كان يشغله، أو كان يقصد إلى تعليم من يجالسهم سواء من أهل بيته أو من رجال دولته أو من الشعراء والأدباء الذين كانوا يؤمون مجلسه.

<sup>551</sup> الأغاني، 76/16

<sup>552</sup> الطبقات الكبير، 221 / 7

## الفصل الرابع

### دراسة فنية لشعر الشعراء الملاحين



## دراسة فنية لشعر الشعراء الملاحين

خضعت القصيدة العربية المدحية في عصورها الأولى لنظام فني معين، وقد كانت في معظمها متعددة الموضوعات، وتحدث ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء محدداً منهج هذه القصيدة بقوله: " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكى، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذ كان نازلة العمَد في الحلول والطعن على خلاف ما عليه نازلة المدَر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكَلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وإنشاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكروه في المسير، بدأ في المدح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل ".

ويتابع ابن قتيبة فيقول: فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامع، ولم

يقطع وبالنفس ظمأ إلى المزيد<sup>553</sup>. وقد قسم ابن قتيبة القصيدة إلى أربعة أقسام: أولها الوقوف على ديار المحبوبة والبكاء على الراحلين من أهلها، وثانيها النسب وشكوى الوجد وألم الفراق، وثالثها الرحلة المضنية وشكوى النصب وسهر الليالي، ورابعها المديح. وحاول أن يلزم الشعراء المحدثين والمعاصرين التقيد بتلك الأقسام التي وضعها، ولم يجز لهم العدول عنها والخروج عليها، يقول: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير<sup>554</sup>".

ونحن نلاحظ من هذا الكلام الذي أورده ابن قتيبة حول بناء القصيدة، أنه أراد من الشعراء المحدثين أن يسيروا على خطى من سبقوهم من الشعراء مقلدين لهم، وألا يجيدوا عن تلك الطريقة التي نظموا قصائدهم وفقها، وفي هذا عنت كبير لهم، لا سيما أنهم يعيشون في زمن غير زمن السابقين، وفي ظروف غير ظروفهم، ويحب أصحاب الفن والمواهب دائماً ألا يكونوا مقيدين بأية قيود، وألا توضع لهم خطوط محدودة يجب ألا يتخطوها، ويلزمون بالسير عليها، ويحبون التجديد والإتيان بكل ما هو طريف لكي يعطوا أعمالهم الفنية القيمة التي يرومون.

ويكرر ابن رشيق في العمدة ما ذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء فيقول: "والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاز، وما أنضى من الركاب، وما تجشم من

<sup>553</sup> الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 74/1

<sup>554</sup> الشعر والشعراء، 76/1

هول الليل وسهره، وطول النهار وهجير، وقلة الماء وغؤوره، ثم يخرج إلى مدح المقصود، ليوجب عليه حق القصد، وذمام القاصد، ويستحق منه المكافأة<sup>555</sup>. ويعلق نجيب البهيتي على ما ورد عند النقاد القدامى حول الاتباع المطلوب من الشعراء لأساليب من سبقوهم في بناء القصيدة فيقول: "والذي قاله النقاد لم يكن واجب الاتباع، إنما هو إثارة وتفضيل<sup>556</sup>. هكذا فسر البهيتي تلك الأقوال، إثارة وتفضيل.

وكانت قصيدة المدح كما رآها وهب رومية "متصلة اتصالا حميما بحياة القوم ووجدانهم، وتعبيرا أصيلا عن هؤلاء القوم في شؤون حياتهم"<sup>557</sup>.

ويرى الدكتور عبدالقادر الرباعي "أن الشاعر يخطط عقليا لتأثير الكلمة المؤلفة في الناس، فكأنه يهتم بذوات الآخرين أكثر من اهتمامه بذاته"<sup>558</sup>.

وفي حديثه عن مقدمة القصيدة العربية يقول الدكتور حسين عطوان إنها (ظاهرة فنية نشأت مع نشأة القصيدة العربية في الجاهلية، وظلت تلقانا في صورها على امتداد العصور المختلفة"<sup>559</sup>

إذن هي ظاهرة فنية نشأت مع نشأة القصيدة العربية قديما، والشاعر يخطط ويختار ما يناسب المتلقين، لأنه يكتب لهم وينظم قصيدته لإرضائهم ونيل إعجابهم،

<sup>555</sup> العمد، 226/1

<sup>556</sup> تاريخ الشعر حتى نهاية القرن الثالث، نجيب البهيتي، 454

<sup>557</sup> قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي، وهب رومية، 171

<sup>558</sup> الصورة الفنية في النقد الشعري، عبدالقادر الرباعي، 17

<sup>559</sup> مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، حسين عطوان 7

فهو يهتم بأذواقهم، ويحاول جهده إرضاءهم من الناحيتين الفنية والعملية، وهذا يعني أن التطور والتجديد قد يطال هذه القصيدة شكلا ومضمونا، حسب البيئة والواقع الذي يعيشه الشاعر، ووفق الذوق العام السائد في العصر الذي يحياه الناس، وهذا التطور والتجديد ليس عيبا ما دام لا يخرج عن قواعد الفن الشعري الأساسية، وما دام يمثل الواقع الذي يعيشه الشاعر.

وقد عني النقاد القدامى بمطلع القصيدة عناية جيدة ورأوا أن " الشعر قفل أوله مفتاحه، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة، وأن يتجنب " ألا وخليلي وقد " فلا يستكثر منها في ابتدائه لأنها من علامات الضعف والتكلان<sup>560</sup>.

كما دعوا الشعراء إلى تحسين خاتمتهم تماما كما حسنوا مقدماتهم.

واتفقوا على أنه ينبغي للشاعر أن يتحرز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يتطير منه، أو يستجفي من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء ووصف إقفار الديار وتشتت الألف، ونعي الشباب وذم الزمان، ولا سيما القصائد التي تتضمن المدائح أو التهاني، إذ تستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب<sup>561</sup>. فالابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والقطع آخر ما يبقى في النفس من كلامك، فيجب أن يكونا جميعا مؤنقين<sup>562</sup>.

<sup>560</sup> العمدة 218/1

<sup>561</sup> عيار الشعر، 126، الصناعتين، 431

<sup>562</sup> الصناعتين، العسكري، 435

وتنبه ابن الأثير إلى صلة المقدمة بموضوع القصيدة، فدعا الشعراء إلى مواءمة المطلع لجو القصيدة، " وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر دالا على المعنى المقصود منه، إن كان فتحا ففتحاً، وإن كان هناء فهناء، وإن كان عزاء فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني <sup>563</sup> .

ولكن يثور في ذهن سؤال حول مدى التزام الشعراء الذين مدحوا عبد الملك بن مروان بما قرره ابن قتيبة وابن رشيقي والعسكري وابن طباطبا وغيرهم من النقاد القدامى لاحقاً في بناء القصيدة، وهذا ما سنعرض له في الصفحات القادمة.

سارت قصيدة المديح الأموية على نهج القصيدة الجاهلية في بنائها مع شيء من الاختلاف الناتج عن تطور الحياة في هذا العصر، نتيجة لوجود مظاهر جديدة في مناحي الحياة المختلفة الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية وغيرها من المظاهر، وقد أشار يوسف خليف إلى ذلك بقوله : " وأول ما يلفت النظر في قصيدة المديح الأموية تلك الملاءمة البارعة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المديح القديم يعتمد عليها، والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم التي يحيونها <sup>564</sup> .

وتبين القصائد المدحية التي قيلت في عبد الملك بن مروان التي عرضنا لها سابقاً، أن الشعراء الذين نظموها كانوا يتسمون فيها خطى شعراء الجاهلية، فتأثير الإسلام في هيكل قصيدة المديح في العصر الأموي كان ضعيفاً، إذ بقيت معظم

<sup>563</sup> المثل السائر، 96/3

<sup>564</sup> تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، يوسف خليف 146-165



الموروثات الجاهلية التي تتعلق بالهيكل العام لبناء هذه القصيدة مسيطرة سيطرة شبه تامة عليها، واستمر الشعراء ينظمون قصائدهم على غرار قصائد أسلافهم من الجاهليين، وقد ظهرت معظم المقدمات من طليية وغزلية وخمرية ووصف للطعائن، ومقدمة الطيف والشيب والشباب في تلك القصائد، مع وجود فروق وتفاوت بين شاعر وشاعر.

ويرجع حسين عطوان العناية بالأشكال القديمة للمقدمات إلى أسباب ثلاثة: السبب الأول: أن حياة الشعراء الأمويين لم تختلف أشد الاختلاف عن حياة الشعراء الجاهليين، وإنما كانت مشابهة لها متصلة بها.

والسبب الثاني: أن الشعراء الأمويين لم يكن بين أيديهم من النماذج الفنية غير النماذج الجاهلية لمحاكاتها والنظم على شاكلتها. والسبب الثالث: تفضيل العلماء والأدباء والممدوحين وجمهور السامعين المثل الفنية القديمة، وإعلائهم من شأنها، مما حمل الشعراء الأمويين على تقليدها ومراعاة مقوماتها وأصولها<sup>565</sup>.

<sup>565</sup> مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، حسين عطوان، 7

وإذا نظرنا في بناء القصيدة المدحية عند جرير مثلا، وأخذنا قصيدته المشهورة التي نالت إعجاب عبدالمملك بن مروان وإعجاب كثير من الدارسين قديما وحديثا، التي مطلعها:<sup>566</sup>

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة همّ صخبك بالرواح

فسنجدها مكونة من أربعة مقاطع هي: المقدمة وهي في النسيب، ومحاورة زوجته أم حزرة، وطلب المساعدة والمعونة من الخليفة، ثم المديح وهو الغرض الرئيسي من القصيدة، والمقدمة الغزلية وما يليها من مقاطع جميعها تفضي إلى الغرض الرئيسي الذي هدف إليه الشاعر وهو مدح الخليفة عبدالمملك بن مروان ونيل جائزته، وقد بلغ عدد أبيات مقدمتها سبعة أبيات، يقول فيها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة همّ صخبك بالرواح

يقول العاذلات علاك شيبُ أهذا الشيبُ يمتنعني مراحى<sup>567</sup>

يكلفني فؤادي من هَواهْ طعائنَ يجتزعن على رُماح<sup>568</sup>

طعائنَ لم يدن من النصارى ولا يديرن ما سَمُكُ القُراح<sup>569</sup>

<sup>566</sup> ديوانه، 87

<sup>567</sup> العاذلات: اللائحات، المراح: المرح والنشاط

<sup>568</sup> يجتزعن: يقطعن، رماح: موضع

<sup>569</sup> القراح: قرية بالبحرين، أي أنهن بدويات لسن بحضريات مهيجات

فبعضُ الماءِ ماءٌ رَبَابٍ مُزْنٍ      وبعضُ الماءِ من سَبَخٍ مِلَاحٍ<sup>570</sup>  
سَيَكْفِيكَ الْعَوَاذَلْ أَرْحَبِي      هِجَانُ اللَّوْنِ كَالْقَرْدِ اللَّيَاحِ<sup>571</sup>  
يَعُزُّ عَلَى الطَّرِيقِ بِمَنْكِبِيهِ      كَمَا ابْتَرَكَ الْخَلِيعُ عَلَى الْقِدَاحِ<sup>572</sup>

وهذه المقدمة التي افتتح جرير بها قصيدته، هي في النسيب،— إذ افتتح أغلب قصائده التي قدمها لرسم شخصية ممدوحيه— بمثل هذه المقدمة الغزلية— وقد استخدم فيها ألفاظا رقيقة عذبة تمتاز بالسهولة، وتعج باللطافة والعاطفية والوجدانية، لا سيما عندما انتقل من النسيب ووصف الناقة المقتضب إلى محاورة زوجته أم حزرة في شأن زيارة الخليفة التي يراها حقا عليه<sup>573</sup>:

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ      رَأَيْتُ الْمَوْرِدِينَ ذَوِي لِقَاحٍ  
تُعْلَلُ - وَهِيَ سَاغِبَةٌ - بَنِيهَا      بَأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّيْمِ الْقَرَّاحِ<sup>574</sup>  
سَأَمْتَا حُ الْبَحُورَ فَجَنِينِي      أَذَاةَ اللَّوْمِ وَانْتَظِرِي امْتِيَا حِي<sup>575</sup>  
ثَقِيَ بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ      وَمَنْ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ بِالْجَاحِ<sup>576</sup>  
وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ عَلِيَّ حَقًّا      زِيَارَتِي الْخَلِيفَةَ وَامْتِدَا حِي

<sup>570</sup> الرباب: السحاب المكثف

<sup>571</sup> الفرد اللياح: الثور المنفرد الأبيض

<sup>572</sup> الاتباع والإبداع في الشعر الأموي 114

<sup>573</sup> ديوانه، 82 وما بعده

<sup>574</sup> ساغبة: جائعة، الشيم: البارد

<sup>575</sup> الميخ: العطاء

<sup>576</sup> ديوانه، 89/1

وهذا دأب جرير في قصائده ( يغرف من بحر )، وبهذه المقدمة اللطيفة مهد جرير لمُدح  
عبدالمُلك بن مروان، وجعله متشوقاً لسماع ما سيأتي بعد المقدمة من أبيات، فهل التزم جرير  
بالنماذج الشعرية المدحية التي سبقته عندما نظم مدائحه في عبدالمُلك ؟

لقد حاول جرير في مدائحه عبدالمُلك أن يزاوج بين القديم الجاهلي البدوي وبين  
الجديد الإسلامي الحضري، ومن هذا التزاوج نشأت لديه مدائح رائعة قالها فيه، وبذلك نال  
الخطوة عنده، وسنلاحظ عند الحديث عن الألفاظ والمعاني التي استخدمها جرير في مدائحه  
لعبدالمُلك صدق ما ذهبنا إليه إلى حد ما.

وقد افتتح جرير قصيدته العينية في مدح عبدالمُلك أيضاً بالنسيب، وتتجلى فيها الصفات  
التي طبع بها غزله من سهولة وعذوبة، ومن وصف للجانب الجماعي الجمالي المعنوي في  
صاحباته<sup>577</sup>، وهو يحاور نفسه في البيت الأول منها فيقول<sup>578</sup>:

أواصلُ أنتَ أمَّ العَمْرُو أمَّ تَدَعُ أمَّ تَقَطَّعَ الحَبَلِ منهمْ مِثْلَ ما قَطَّعُوا

وقد جاءت هذه المقدمة الغزلية في عشرة أبيات، ينتقل بعدها إلى ذكر الراحلة في بيتين  
اثنتين:

<sup>577</sup> مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، حسين عطوان، 72

<sup>578</sup> ديوانه، 293

قَرَبْتُ وَجَنَاءَ لَمْ يَعْقِدْ حَوَالِيهَا طَيُّ الصَّرَارِ وَلَمْ يُرْسَحْ لَهَا رُبْعٌ<sup>579</sup>

كَأَنَّهَا قَارِحٌ طَارَتْ عَقِيْقَتُهُ يَرْعَى السَّمَاءَ أَوْ طَاوٍ بِهِ سَفْعٌ<sup>580</sup>

وَيُعْرَضُ بَعْدَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ بِالشَّعْرَاءِ الَّذِينَ هَجَوْهُ وَ يَبِينُ كَيْفَ اسْتَطَاعَ إِسْقَاطُهُمُ  
وَالثَّبَاتُ فِي وَجْهِهِمْ، يَقُولُ:

كَانَ الَّذِينَ هَجَوْنِي مِنْ صَلَاتِهِمْ      مِثْلَ الْفَرَّاشِ وَحَرُّ النَّارِ إِذْ يَقَعُ

أَصْبَحْتُ عِنْدَ وِلَاةِ النَّاسِ أَتَّبَتْهُمْ      فَلَجًّا وَأَبْعَدَهُمْ غُلُوًّا إِذَا نَزَعُوا

يَنْتَقِلُ بَعْدَهَا مَبَاشَرَةً إِلَى مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ بِقَوْلِهِ:

أَنْتَ الْأَمِينُ أَمِينُ اللَّهِ لَا سَرِفٌ      فِيمَا وَلِيْتَ وَلَا هَيَّابَةٌ وَرَعٌ

وهكذا يستمر جرير في بناء هياكل قصائده المدحية معتمدا على الموروث الجاهلي  
مزاجاً بينه وبين الواقع الذي يعيشه.

وفي تعليق على شعره ورد في كتاب المفصل في تاريخ الأدب العربي قال  
صاحبه: "كانت مادة معانيه (أي جرير) مستمدة من بيئة البدو مضافا إليها ما جاء  
به الإسلام من الشعائر والآداب والعبادة والموعظة والحكمة، فكان شعره يمثل الحياة

<sup>579</sup> الوجناء: الغليظة، حوالبها: سواعد ضرعها التي يرشح منها اللبن، الصرار: ما تصر به الناقة كيلا يرضعها

<sup>580</sup> سفح: حمرة في الخدين

البدوية الإسلامية خير تمثيل.... فكانت معانيه فطرية قريبة الحضور بالبال غير بعيدة الغور كطبعه في السماحة واللين<sup>581</sup>

ونستطيع أن نقول: إن جريرا في هذه القصيدة وفي غيرها من قصائده كان يحسن الانتقال والتخلص من موضوع إلى موضوع، فهو من شعراء الطبقة الأولى الفحول في الإسلام كما صنفه ابن سلام<sup>582</sup>، وهو من الشعراء المجيدين في التخلص من المقدمة إلى الغرض الأساسي في القصيدة، ولا يتعثّر في انتقاله، ولا يقف عند غرض وكأنه انتهى منه، ثم يبدأ فجأة بالغرض التالي، بل ينتقل انتقالا طبيعيا سريعا سلسا، حتى يكاد السامع لا يشعر بذلك الانتقال، وقد اعتبر النقاد حسن التخلص شرطا أساسيا في القصيدة الجيدة، وكانوا يرون أن الشاعر المبدع هو الذي يحسن الانتقال من موضوع إلى موضوع في القصيدة الواحدة، دون أن يشعر السامع بذلك الانتقال، بسبب شدة الالتئام والانسجام والممازجة بين أجزاء من القصيدة، فحسن التخلص من الأمور المحببة في القصيدة والدالة على قدرة الشاعر وبراعته وحذقه وقوة تصرفه وطول بابه<sup>583</sup>. فإذا نظرنا في مقاطع قصيدته ( أتصحو أم فؤادك غير صاحي ) فنلاحظ انتقاله السريع من المقدمة الغزلية المكونة من سبعة أبيات مباشرة إلى الحوار الذي دار بينه وبين زوجته أم حزرة وشكواها من الفقر والجوع بخفة ولطافة لا نشعر معها بانقطاع بين الموضوعين، فأخر بيت من المقدمة يقول فيه:

يَعْزُّ عَلَى الطَّرِيقِ مَمْنُكِبَيْهِ      كما ابْتَرَكَ الْخَلِيعُ عَلَى الْقِدَاحِ

<sup>581</sup> المفصل في تاريخ الأدب العربي، 138/1

<sup>582</sup> العمدة، 1/ 234

<sup>583</sup> الجامع الكبير، ضياء الدين بن الأثير، 181

فهو يريد لو يستطيع أن يسبق الإبل في طريقه إلى الممدوح، تماماً كما يَنكَبُ المقامر الخاسر على القداح لكي يسترجع ماله بأسرع ما يمكن، في صورة تشبيهية بينه وبين أم حزرة التي تريد من زوجها أن يأتيها بالسرعة الممكنة حاملاً معه ما ينقذها وبنيها من المسغبة التي تعيشها، يقول:

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ      رَأَيْتُ الْمُرْدِينَ ذَوِي لِقَاحِ

وينتقل بعد ذلك بكل خفة ورشاقة من شكوى أم حزرة من الفقر والجوع إلى طلب الغوث من الخليفة:

أَغْنِنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي      بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَاكِ

يطلب من الخليفة المعونة والعطاء السخي الذي يغيثه ويغيث زوجته وأبناءه، فالخليفة وحده هو القادر على ذلك، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مدحه بالشجاعة و بالكرم والجد :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا      وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ

فالقصيدة كما رأيناها متماسكة تنبيه عن مقدرة الشاعر الفذة وبراعته في الانتقال من موضوع إلى موضوع آخر دون أن يشعر المتلقي بانقطاع الحديث.

وقد أضاف جرير إلى جمال معاني قصيدته ووضوحها جمالاً في الصياغة وجودة في السبك، ( خلا بعض المفردات والصور التي تحتاج إلى إيضاح ) وزينها بما أودعه فيها من محسنات لفظية كالجناس والطباق، وقد جاءت هذه

المحسنات عفو الخاطر دون تكلف، ولم يكن اهتمامه بخاتمة قصيدته أقل من اهتمامه بمطلعها، وهو يتفق مع النقاد العرب الذين أولوا خاتمة القصيدة عناية كبيرة، ويرون أنها يجب أن تكون متصلة اتصالاً وثيقاً بموضوع القصيدة، لأنها في عرفهم قاعدة القصيدة<sup>584</sup>، ولأنها آخر ما يبقى في الأسماع، فسيبيلها أن تكون محكمة، وأن تكون قفلاً كما كان المطلع مفتاحاً، وربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فلذلك اشتروا أن يكون اللفظ فيها مستعذباً، والتأليف جزلاً متناسباً، وأن تكون أجود بيت في القصيدة<sup>585</sup>، فهل أحسن جرير خاتمة قصيدته هذه، نعم، لقد أحسن جرير اختتام قصيدته هذه بقوله بعد أن فرغ من مدح الخليفة:

رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا      وَبَيَّنَّتِ الْمَرَضَ مِنَ الصَّحَاحِ

فبعد الذي قدمه جرير من وصف لصفات عبد الملك ورسم لصورته الجميلة التي بدت من خلال مدحته هذه، يقول إن الناس قد استقاموا للخليفة وعادوا إلى صوابهم ورشدهم بعد أن تبين لهم الصواب من الخطأ.

أما بالنسبة لطول هذه القصيدة ووحدها، فقد جاءت متوسطة الطول إلى حد ما، إذ بلغ عدد أبياتها اثنين وعشرين بيتاً، بينما بلغ عدد أبيات قصيدة الأخطل في عبد الملك " خف القطين " أربعة وثمانين بيتاً، أما قصيدة الفرزدق الوحيدة في مدح عبد الملك فقد بلغ عدد أبياتها ثلاثة وأربعين بيتاً، ووصل عدد أبيات قصيدة الراعي النميري في الشكوى من السعاة إلى اثنين وتسعين بيتاً، وقصيدة جرير هذه لم

<sup>584</sup> بناء القصيدة العربية، 229

<sup>585</sup> العمدة، 239/1،



ترق إلى المطولات التي نظمها في نقائضه مع الأخطل والفرزدق التي يزيد عدد أبيات الواحدة منها على ثمانين بيتا، ويبدو لي أن سبب ذلك يعود إلى كون هذه القصيدة قيلت في غرض واحد هو مدح الخليفة، وكان الشاعر حريصا على أن يركز على هذا الغرض وأن لا يتجاوزها إلى أغراض أخرى، لكي ينال ما كان يصبو إليه من حظوة عنده، لا سيما أن وفوده هذا كان الوفود الأول له عند الخليفة.

وعلى الرغم من اهتمام النقاد العرب بوحدة البيت في القصيدة العربية، إلا أنهم لم يهتموا بوحدة القصيدة، ووجوب ترابط أجزائها. يقول ابن طباطبا: "و ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما ابتدأ وصفه وبين قتمته فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه"<sup>586</sup>.

ويقول: "وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما، ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قُدِّمَ بيت على بيت دخله الخلل"<sup>587</sup>، ويشبه الحامي القصيدة في وحدتها وتماسكها بجسم الإنسان في اتصال أعضائه بعضها ببعض<sup>588</sup>.

ومن هنا تتضح لنا ضرورة وجود الوحدة والتماسك بين أبيات القصيدة ومعانيها وأجزائها، حتى تبدو عملا فنيا متكاملا مترابطا، وإذا نظرنا في هذه

<sup>586</sup> عيار الشعر، ابن طباطبا، 129

<sup>587</sup> عيار الشعر، 131

<sup>588</sup> العمدة، 117/2

القصيدية التي هي عبارة عن نموذج من نماذج القصائد ذات الغرض الواحد المتمثل بالمديح، وجدنا أن وحدة الموضوع سمة من سماتها، ولازمة من لوازمها، على الرغم من وجود أربعة مقاطع فيها كما ذكرنا سابقا، فهي مترابطة الأجزاء، متحدة المعاني، مكتملة البناء على الرغم من احتوائها أكثر من فكرة وعاطفة، وكان جرير موفقا إلى أبعد الحدود في المحافظة على وحدتها.

يقول جرير<sup>589</sup>:

لولا الخليفةَ والقرآنُ يقرُّهُ      ما قامَ للناسِ أحكامٌ ولا جُمعُ  
أنتَ الأمينُ أمينُ الله لا سِرُّ      فيما وليتَ ولا هيابُهُ ورعُ  
أنتَ المباركُ يهدي الله شيعتهُ      إذا تفرقتِ الأهواءُ والشُّيعُ  
فكلُّ أمرٍ على من أمرتَ به      فينا مطاعٌ ومهما قلتَ مُستمعُ  
يا آلَ مروانٍ إنَّ اللهَ فضَّلَكُم      فضلاً عظيماً على من دينُهُ البدعُ

ويقول<sup>590</sup>:

الله طوقاكِ الخلافةَ والهدى      والله ليسَ لما قضى تَبديلُ  
إنَّ الخلافةَ بالذي أُنْيئْتُم      فيكُم فليسَ ملِكها تحوِيلُ

<sup>589</sup> ديوانه، 295/1

<sup>590</sup> ديوانه، 94/1

فجرير يسبغ على عبدالملك بن مروان من الأوصاف الدينية ما كان يسبغه الشيعة على أئمتهم، ويدعو له على نحو ما كانوا يدعون لهم، وهذه الصفات الدينية التي تغنى بها جرير لم تكن موجودة قبل الإسلام عند الشعراء، لذلك نستطيع القول إن جريرا قد زواج بين القيم الإسلامية الحديثة والقيم الجاهلية السابقة له مزوجة جميلة خدمت الهدف الذي كان يسعى للوصول إليه والمتمثل بنيل رضا الخليفة<sup>591</sup>، وقد كان ما أراد.

---

<sup>591</sup> التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، 156

## شعر الأخطل

ولالأخطل في مدح عبد الملك بن مروان قصائد ثلاث هي: البائية ومطلعها<sup>592</sup>:

لَعَمْرِي، لَقَدْ أَسْرَيْتُ، لَا لَيْلَ عاجِرٍ بِسَاهِمَةِ الْعَيْنَيْنِ، طَاوِيَةِ الْقُرْبِ

والقصيدة الثانية الرائية ومطلعها<sup>593</sup>:

أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ وَإِنْ كَانَ حَيَانَا عِدَى آخِرِ الدَّهْرِ

أما القصيدة الثالثة فهي الرائية التي اشتهرت بـ (خف القطين)<sup>594</sup>:

خَفَّ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ

وخير ما يمثل بناء القصيدة المدحية عند الأخطل هي هذه القصيدة التي جاءت في خمسة وثمانين بيتاً، أما هيكلها فنستطيع أن نحدده على النحو التالي:

1- استهل الأخطل قصيدته بالنسيب ورحلة الطعن وذلك من البيت 1 إلى البيت 17.

2- انتقل بعد ذلك إلى مدح الخليفة عبد الملك بن مروان في الأبيات من 18 إلى 35، ومدح قوم عبد الملك بني أمية في الأبيات من 36 إلى 45.

3- الأبيات من 46 إلى 48 تحريض واضح على زفر بن الحارث.

<sup>592</sup> شعر الأخطل، 39/1

<sup>593</sup> شعر الأخطل، 179 / 1

<sup>594</sup> شعر الأخطل، 192/1

4- افتخر بقومه وهجا قيس عيلان وحلفاءها وبني كليب بن يربوع في الأبيات من 49

إلى 85

وبالعودة إلى مقدمة القصيدة، نلاحظ أن الأخطل قد اقتفى في بنائها آثار الشعراء الجاهليين، حيث استعار معظم عناصرها من التراث، وهو دائما معني بمقدمة قصيدته وموضوعها، يبتغي الحذق فيهما، والتحليق في صناعتهما، مما جعله يعطيتهما حقهما من الصقل والتهذيب ومن التصفية والتنقيح حتى تخرج القصيدة برمتها خلقا فنيا سويا، بل إن من الدارسين من سجل عليه أنه كان يتلبث في صنع مدائحه، ويترث في تدبيح مقدماتها، حتى ليطيل فيها إطالة شديدة، بل حتى لتكون أطول من موضوعاتها<sup>595</sup>، أليس هو الذي قال لعبدالمملك بن مروان: زعم ابن المراغة أنه يبلغ مدحتك في ثلاثة أيام....<sup>596</sup>، يقول في إعلانه خبر الرحيل:

حَفَّ القَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكْرُوا وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرِ<sup>597</sup>

ويتحدث عن آثار هذا الرحيل على نفسه فيقول:

كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ اسْتَبَدَّ بِهِمْ مِنْ قَرْقَفٍ ضُمَّتَتْهَا حِمُصٌ أَوْ جَدْرٍ<sup>598</sup>

<sup>595</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي، ص149، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، حسين

عطوان، ص42

<sup>596</sup> الأغاني 206/8

<sup>597</sup> خف: اسرع، أزعجتهم: أشخصتهم، النوى: الوجهة، غير: تغير

<sup>598</sup> قرقف: خمرة، جدر: قرية بين حمص وسلمية، تنسب إليها الخمر، وقيل جدر قرية بالأردن، معجم البلدان

114/2

جَآءَتْ بِهَا مِنْ ذَوَاتِ الْقَارِ مُتْرَعَةً      كَلَفَاءُ يَنْحَتُّ عَنْ خُرْطُومِهَا الْمَدْرُ<sup>599</sup>  
لَذَّ، أَصَابَتْ حُمَيَّاهَا مَقَاتِلَهُ      فَلَمْ تَكْذُ تَنْجَلِي عَنْ قَلْبِهِ الْخُمَرُ  
كَأَنَّنِي ذَاكَ، أَوْ ذُو لَوْعَةٍ حَبَلْتُ      أَوْصَالَهُ أَوْ أَصَابَتْ قَلْبَهُ الشُّسْرُ<sup>600</sup>

ونلاحظ أن الأخطل هنا يعلن لنا خبر الرحيل، وصور حُمول صاحباته تصورا فيه كثير من الدقة والروعة، تصورا تَبَعَّ فيه رحلتها من بدايتها إلى نهايتها، وهو في أولها يصف تعجل جيرانه على التحمل والارتحال، وكيف أنهم جمعوا أنفسهم وعقدوا عزمهم على الانتقال والوصول إلى غايتهم التي كان يعترض سبيلهم إليها صعاب وعقبات كثيرة، وقد قام بتصوير آثار هذا الرحيل على نفسه، فتركه كالمخمور الذي أخذت الخمرة منه كل مأخذ، وهو يستعير هذه الصورة الشعرية العريضة — كما يقول وهب رومية<sup>601</sup> — التي تعاورها كثير من شعراء الجاهلية، ألا وهي صورة الشارب المخمور، وهو يصطنع أسلوبهم في الاستطراد، فيقص علينا حكاية هذه الخمرة بشيء من التفصيل، يسعه في ذلك أمران، الموروث الشعري ونصرانيته، وهو يمشي بعدئذ الركب الطاعن ويراه يسير جماعات جماعات على نحو ما كان يراه القدماء، ثم يقف ليصور النساء الطاعنات فيخص حسنهن بقول ونفوسهن بقول آخر، يقول الأخطل<sup>602</sup>.

<sup>599</sup> المترعة: الغابية المملوءة، كلفاء: لون بين السواد والحمرة، ينحت المدر: يفض ختامها من الطين

<sup>600</sup> خبلت: أفسدت، النثر: الرقية أو التعويذة

<sup>601</sup> مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي حسين عطوان، ص 79

<sup>602</sup> شعر الأخطل، 194/1

شَوْفًا إِلَيْهِمْ وَوَجْدًا يَوْمَ أَتَيْعُهُمْ      طَرَفِي وَمِنْهُمْ بِجَنَبِي كُوكِبٍ زُمْرٍ<sup>603</sup>  
حُتُّوا الْمَطِيَّ، قَوْلُنَا مَنَاجِبَهَا      وَفِي الْخُدُورِ إِذَا بَاغَمَتْهَا الصُّورُ  
يُزِقْنَ لِلْقَوْمِ، حَتَّى يَخْتَلِبُنَهُمْ      وَرَأْيُهُنَّ ضَعِيفٌ، حِينَ يُخْتَبِرُ  
يَا قَاتِلَ اللَّهِ وَصَلَ الْغَانِيَاتِ، إِذَا      أُيْقِنَ أَنَّكَ مَمَّنْ قَدْ زَهَا الْكِبَرُ<sup>604</sup>

ونلاحظ أن الأخطل يحمل حملة عنيفة على النساء اللواتي تركنه بسبب تقدمه بالسن وَتَغَيَّرُ ملامحه، إذ انحنى ظهره وابيض شعره، ولذلك لم يعدن يولينه أي اهتمام، وهذه المسألة — مسألة الشيب — أرقّت الشعراء العرب منذ الجاهلية وإلى أيامنا هذه، ويعود إلى البكاء في إثر هذه الطعائن ومماشاتهن، ويسمي الأماكن التي تمر بها تلك الطعن، وما يزال يلاحقها بطرفه وقلبه حتى تصل إلى غاياتها وتضع عصا الترحال، وذلك سيرا على سنة الشعراء الجاهليين.

يقول وهب رومية في حديثه عن الأخطل " يعد الأخطل أكثر الشعراء السلفيين غزلا في صدر مدائح، بل إن المقدمة الغزلية توشك أن تضارع المقدمة الطللية ذيوعا وانتشارا، ولكنها أقصر منها في هذه المدائح، وليس يتغزل الأخطل بامرأة بعينها، بل يتغزل بالمرأة عامة، ولذا يدور غزله في معاني الحب الكبرى التي تداولها الشعراء من قبل دون أن يولد في هذه المعاني أو يغنيها بهلامح دقيقة يستمدّها من حياته"<sup>605</sup>

<sup>603</sup> كوكب: رابية بالخابور، زمر: جماعات

<sup>604</sup> زها: أضعف

<sup>605</sup> بنية القصيدة العربية وهب رومية، ص 374

وبعد انتهائه من هذه المقدمة انتقل الشاعر إلى الغرض الرئيسي من القصيدة وهو مدح الخليفة عبدالمملك بن مروان، والإشادة بالبيت المرواني، فذكر شجاعة عبدالمملك، وكرمه وهيبته، كما أشاد بشجاعة جيشه، وأشار إلى كثرة عدده، وخفة حركته في المعركة، وانتصاره على أعدائه، وقد أسند الشاعر النصر إلى الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى أيد عبدالمملك وجيشه، ونصرهم على الأعداء، وتحدث الأخطل كذلك عن الصفات التي يتمتعون بها والتي أهلتهم للنصر على أعدائهم، ولولاية أمور المسلمين، إذ يشير إلى عراقية نسبهم في قريش، ويعدد صفات الشرف والرفعة التي يتمتعون بها، وعبدالمملك خليفة مؤيد من الله في الظفر بهذه الخلافة، وهو خليفة الله في أرضه، يقوم بأمر الرعية حزما وعزما<sup>606</sup>، وهو يستقصي هذه الصفات جميعها استقصاء:

إِلَى امْرِئٍ لَا تُعَرِّينَا نَوَافِلُهُ      أَظْفَرَهُ اللَّهُ فَلَيْهِنَا لَهُ الظُّفُرُ  
 الْخَائِضِ الْعَمَرِ وَالْمَيِّمُونَ طَائِرُهُ      خَلِيفَةَ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ  
 وَالْهَمُّ بَعْدَ نَجْيِ النَّفْسِ يَبْعَثُهُ      بِالْحَزْمِ وَالْأُضْمَعَانِ الْقَلْبُ وَالْحَدَرُ  
 وَالْمُسْتَمِرُّ بِهِ أَمْرُ الْجَمِيعِ فَمَا      يَغْتَرُّهُ، بَعْدَ تَوْكِيدٍ لَهُ، غَرَرُ

وهو بهذه الأبيات يستهل مدحه استهلالا سياسيا يؤكد جدارة عبدالمملك وأحقية بالخلافة، ثم يلتفت إلى كرمه الذي يتفوق على كرم الفرات وجوده وذلك

<sup>606</sup> الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي، ص152



في استدارة فنية رائعة، قارنها بعض الباحثين باستدارات النابغة الذبياني والأعشى<sup>607</sup>، وسنأتي على تبيان ذلك لاحقاً،

ونلاحظ أن الأخطل من قبيل حرصه على أن تستمر علاقته الجيدة بعبدالمملك، فقد نبهه بكل لباقة إلى أن يضع سعي الوشاة خلفه ولا يلتفت إليهم، وذلك حتى يأمن على نفسه ويحتفظ بمكانته، يقول:

وَلَمْ يَزَلْ بِكَ وَاشِيَهُمْ وَمَكْرُهُمْ      حَتَّى أَشَاطُوا بِغَيْبٍ، لَحَمَ مِنْ يَسَرُوا  
فَمَنْ يَكُنْ طَاوِيًّا عَنَّا نَصِيحَتُهُ      وَفِي يَدَيْهِ بِدُنْيَا غَيْرِنَا، حَصْرُ

وقد صور عبدالمملك مجاهدا أعداءه مثبتاً أركان ملكه، فإذا هو قوي باطش، يغطي القناطر يبينها ويهدمها، وإذا هو فارس شجاع يتقدم جيوشه ويوقع بأعدائه، وإذا هو قوي الشكيمة والبأس قد رد المارقين إلى الصواب، وهدى الضالين إلى الحق، وإذا العراق قد استقام له أمره، واستكان له أهله:

فَهَوَ فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا      أَبْدَى النَوَاجِذَ يَوْمَ بَاسِلُ ذَكَرُ  
مُفْتَرِشٍ كَافْتَرِاشِ اللَّيْثِ كُلَّكَهْ      لَوْقَعَةٍ، كَائِنٍ فِيهَا لَهُ جَزَرُ  
مُقَدَّمِ مَائِنِي أَلْفٍ لِمَنْزِلَةٍ      مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِنٌّ، وَلَا بَشَرُ  
يَغْشَى الْقَنَاطِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا      مُسَوِّمَ فَوْقَهُ الرَّايَاتُ وَالْقَتَرُ  
حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ      وَبِالتَّوْبَةِ لَمْ يُبْبِضْ بِهَا وَتَرُ

<sup>607</sup> الأخطل شاعر بني أمية السيد مصطفى غازي، ص 119

وَتَسْتَبِينَ لِأَقْوَامٍ ضَلَّاتَهُمْ وَيَسْتَقِيمَ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرٌ

وَالْمُسْتَقْلُّ بِأَثْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ نِعْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدَّخَرٌ

ثم ينتقل بعد ذلك انتقالا سلسا إلى الإشادة ببني أمية، فصورهم وقد التفوا حول زعيمهم، هؤلاء الرجال الذين هم رجال قريش الأفذاذ، الأطهار الذين يعافون الخنا ويأنفون منه، وهم الصابرون على المكاره التي قد تصيبهم، ويصف غيرتهم على الحق وشدتهم في مقارعة الخطوب، ويذكر تأييد الله لهم، ويمدح شكرهم للنعمة وعدم بطرهم بالخير، ويصف ما أثر عنهم من بطش في الغضب، وما عرف عنهم من حلم في القدرة، ويشيد بما أثر عنهم من بلاء

في الحروب، ويتغنى بما تحلوا به من صفات الكرم والجود، ويعترف بما لهم عليه من أفضال<sup>608</sup>. وبهذا استطاع الأخطل أن يرسم صورة ناصعة جلية رائعة لبني مروان من خلال هذه الأبيات، تتجلى فيها قدرته الفنية الفذة على الرسم والتصوير، وهي صورة احتفظت لعبد الملك بمكانته المرموقة فيها، فهو يتوسط أبناء قومه وهم يحيطون به من كل جانب في منظر جميل يبعث على الفخر والاعتزاز والإعجاب بهذا الخليفة.

فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْصِيُونَ بِهَا مَا إِنَّ يُوَارَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ

تَعْلُو هَضَابًا وَحَلَّوْا فِي أَرْوَمَتِهَا أَهْلُ الرِّبَاءِ وَأَهْلُ الْفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا

حُسْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أَنْفٌ إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا

<sup>608</sup> الأخطل شاعر بني أمية، ص 119

وينتقل بعد ذلك إلى الافتخار بنفسه مذكرا الأمويين بفضلهم حين هجى الأنصار استجابة  
ليزيد بن معاوية الذي أغراه كما تقول الروايات بهجائهم:

بَنِي أُمَيَّةَ قَدْ نَاصَلْتُ دُونَكُمْ      أَبْنَاءَ قَوْمٍ هُمْ آوُوا، وَهُمْ نَصَرُوا

أَفَحَمْتُ عَنْكُمْ بَنِي النَّجَارِ قَدْ عَلِمْتُ      عَلِيًّا مَعَدًّا وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا

حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مَعِيَ عَلَى مَصْصٍ      وَالْقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ الْإِبْرُ

ثم تطرق بنبرة قوية إلى نصح بني أمية بإبعاد زفر بن الحارث عدو قبيلته تغلب، لأنه  
غير مأمون الجانب، فهو عدو بني أمية كما أنه عدو تغلب، ومن هنا ينبغي لنا أن نعرف  
بعض العلاقة بين قبيلة الشاعر وبين قبيلة قيس التي ينتمي إليها زفر لنتبين مدى تغلغل  
العصبية القبلية بين الناس في هذه الحقبة الزمنية الحرجة، فقد ساءت العلاقة إلى حد  
بعيد بين القبيلتين عندما أخذ رجال عمير بن الحباب ينتهكون حرمة جوار تغلب، ولا  
يحترمون شيوخها، ويستعدون على قطعان مواشيهم، وعندما كانوا يشتكون إلى زفر بن  
الحارث كان يرفض مطالبهم، ثم كشف عن نيته حين دعاهم إلى الدخول في طاعة ابن  
الزبير، وقد رفضت تغلب عرض زفر لأن في دعوته إضرار بمصالح تغلب المرتبطة ببني أمية  
وبالشام، وقد أدى رفض تغلب لهذه الدعوة إلى تعرضها لسلسلة من المعارك مع القيسية،  
خسرت فيها تغلب كثيرا من أموالها ورجالها، وقد أتاحت هذه المعارك لعبد الملك وللأمويين  
الفرصة لجمع الرجال من أجل محاصرة القيسية في قرقيسيا، وبعد ذلك حاول عبد الملك  
الإصلاح بين القبيلتين، لكنه لم يكن سوى صلح مؤقت يتم خرقه كلما عاود إحدى

القبيلتين حينها للانتقام، وعاد الأخطل ليذكر عبد الملك أن تغلب قد نصرته وأبلت في ولائها للأمويين بلاء عظيمًا، يقول شوقي ضيف: "ومن هنا كانت قصيدة الأخطل في عصر عبد الملك، ونقصد قصيدة المدح، شركة بين عبد الملك وبين قوم الأخطل من تغلب، فهو يمدحه ويتعرض لانتصاراته وهو يمدح قومه، أو بعبارة أخرى يفخر بهم، ويتعرض لما قدموه لعبد الملك"<sup>609</sup>، فقد حاربت تغلب القيسية إلى جانب بني أمية، وقتلت قائد القيسية عمير بن الحباب، وما زالت تقاتلهم حتى أذلتهم وأقبلوا على الخليفة يبايعونه صاغرين، وهو يسترسل في وصف صورة ابن الحباب القتيل، وهجاء قبيلة قيس وحلفائها، يقول<sup>610</sup>:

وقد نصرت أمير المؤمنين بنا      لما أتاك ببطن الغوطة الخبر  
يعرفونك رأس ابن الحباب وقد      أضحى ولل سيف في خيشومه أثر

وبعد أن استرسل في هجائه لقبيلة قيس وبطونها وحلفائها، وعدد مساوئ هذه القبائل، كان لا بد له من الالتفات إلى قبيلة جرير كليب بن يربوع، فيختتم قصيدته هذه بهجائها، وذلك انتقامًا من جرير الذي كان يدافع عن قبيلة قيس ويقف معها، فيقول<sup>611</sup>:

أَمَّا كَلَيْبُ بْنُ يَرْبُوعٍ فَلَيْسَ لَهُمْ      عِنْدَ الْمَكَارِمِ لَا وَرْدٌ وَلَا صَدْرٌ  
مُخْلَفُونَ وَيَقْضِي النَّاسُ أَمْرَهُمْ      وَهُمْ يَغَيَّبُ فِي عَمِيَاءَ مَا شَعَرُوا

<sup>609</sup> التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، ص 149

<sup>610</sup> شعره، 1/ 203

<sup>611</sup> شعره، 1/ 208

وفي قراءتنا لهذه القصيدة نلاحظ أن الأخطل قد سار على نهج الشعراء الجاهليين في نظمه لها، فكان مقلدا لهم في بنائها وفي استعارته للصور التي استخدمها ليدل على الأغراض التي عالجها فيها، فهي تعد من القصائد متعددة الأغراض، فقد ضمنها الأخطل بالإضافة إلى المدح غرضا آخر هو الهجاء، حيث تعرض لقبائل قيس عيلان، وكليب بن يربوع، وهو يهدف من وراء ذلك نيل الحظوة عند عبدالمملك لأن هذه القبائل كانت تقف في الصف المعادي لبني أمية، كما كانت تناصب قبيلته تغلب العداء، كما يتضح سيره على نهج أسلافه من خلال الألفاظ الغريبة التي استعارها من مخزون الشعراء الجاهليين اللفظي، وهي بطبيعة الحال تحتاج إلى معجم من أجل تفسيرها، والأخطل متأثر كما قلنا بالشعر الجاهلي يتتبع خطواته ويتمسك برصانته، وقد لاحظ ذلك أبو عبيدة فقال: «الأخطل أشبه بالجاهلية، وأشدهم أسر شعر، وأقلهم سقطا»، وفي الوقت نفسه كان مجددا لبعض الأمور ولا سيما المدح السياسي الذي لم يكن شائعا في السابق، ويرى يوسف خليف أن " أول ما يلفت النظر في قصيدة المدح الأموية - ومنها هذه القصيدة - تلك الملاءمة البارعة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المدح القديم يعتمد عليها، والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم الجديدة التي يحيونها <sup>612</sup> .

وبناء على ذلك نستطيع القول في التقليد والتجديد عند الأخطل من خلال هذه القصيدة ما يلي: يظهر التقليد في أبيات الأخطل هذه في ناحيتين:

<sup>612</sup> تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، يوسف خليف، ص 164

1 - اعتماد المنهجية الشعرية القديمة المتمثلة في تعدد الأغراض في النص الشعري الواحد، وكذلك في افتتاح القصيدة بمطلع تقليدي هو النسيب، ومن خلاله يشير الشاعر إلى الطعن ورحيل الأحبة لظروف خارجة عن نطاق السيطرة، لم يكن في المستطاع قهرها، كما يتحدث عن أثر هذا الرحيل عليه، الرحيل الذي انعكست من خلاله حالة الاختلاط والتشتت التي اعتزته إثر هذا الرحيل، متمثلة في عجزه عن تحديد وقت الرحيل أو تذكره، فهل كان الرحيل في أول المساء، أم كان في الصباح الباكر ( فراحوا منك أو بكروا )، وذلك على الرغم من كون هذا الرحيل حدثاً مهماً بالنسبة للشاعر سواء من الناحية العاطفية أو من الناحية النفسية.

2 - اعتماد المعاني المدحية التقليدية التي تعود إلى العصر الجاهلي، سواء من حيث المضمون أو من حيث التعبير، فمن حيث المضمون مدح الأخطل الخليفة عبد الملك وبنو أمية عامة بصفات تتردد دائماً عند شعراء المديح الجاهليين،

وتتمثل هذه الصفات بالسخاء والشجاعة، والعفة والأنفة، والصبر على الشدائد، والحلم والرحمة والتسامح، والنجدة والكرم وغيرها، وقلماً يخلو شعر المديح من أمثال هذه المعاني. ومن حيث التعبير، تظهر البداوة ويبدو تأثر الأخطل بلغة الجاهلية وبتعابيرها في بعض المعاني والألفاظ، مثل قوله: "الميمون طائره"، وهو تعبير جاهليّ الجذور يرتبط بعادة زجر الطير في الجاهلية، وقد حرم الإسلام هذه العادة، ومن خلال هذا التعبير يريد الأخطل أن يشير إلى أن ممدوحه يتمتع بحظّ يحسد عليه ؛ ومثل قوله أيضاً " يستسقى به المطر " ؛ وقوله " شمس العداوة ". وغيرها.

أمّا التجديد في جوهر المديح الذي جاء به الأخطل في هذه القصيدة ؛ فهو مديح سياسيّ، موضوعه الخلافة وما أثير حولها من خلاف بين الأمويين والزييريين والخوارج وآل البيت وشيعتهم . ومن هنا يمكن القول إن النص يسجل الصراع الذي كان دائرا حول الخلافة بين الأمويين وخصومهم. وحرى بنا أن نشير في هذا الموقف إلى ظهور أثر الإسلام في أبيات الأخطل الشاعر النصراني حين يقول: " أظفره الله " ؛ " خليفة الله " ؛ " حشد على الحق " ؛ " أعطاهم الله جدا ينصرون به " ؛ " هم آووا وهم نصروا ". فهذه الاستخدامات يحلل الأخطل سياسة الأمويين من داخل التعاليم الإسلامية، معتبرا أنها من عند الله.

مديح عبدالمملك: في مدحه لعبدالمملك، بدت صورة عبدالمملك جوادا، مظفرا، قائدا عسكريا، محظوظا، حاكما باسم الله، ورعا. والأخطل حين يتناول عطاء الخليفة والظفر العظيم الذي أحرزه بتقدير من الله، وحين يتغنّى بفضائله، يربط ذلك ربطا قويا بالسياسة الأموية، مركزا على الحق الإلهي ففي قوله " أظفره الله " إشارة إلى أن خلافة الأمويين هي من عند الله، وفي هذا تكريس للحق الإلهي بالحكم، فعبد الملك هو خليفة الله وظله على الأرض وممثل عدالته ورحمته، به يتقرب الناس إلى ربهم ويصلون صلاة الاستسقاء.

مديح بني أمية: في مديحه الجماعي لبني أمية نلاحظ أنه أسبغ عليهم مجموعة من الخصال التي لا تتوافر في غيرهم من الأسر، فقد صورهم مجمعا للفضائل، فأظهرهم أصحاب حق، أعفَاء، أعزاء النفوس، متجلدين، مدبرين، محظوظين (مختارين من

الله)، متواضعين (رغم عظمتهم)، قساة متسامحين، أسخياء. وسخاؤهم سخاء نموذجي مثالي على حد تعبير الأخطل، فهو مبادر، وشامل، وخال من المنة.

هكذا نسب الأخطل إلى بني أمية كل فضيلة عربية، وكل شيمة كريمة، ليجعل منهم قوما مثاليين في جميع شؤونهم، حكماء رحماء، إذا استسلم لهم العدو لا يبطشون به، وإنما يعفون عنه إيماناً منهم بأن العفو عند المقدرة. وفي هذا دعوة للأعداء كي يستسلموا للأمويين، من غير وجل ولا تردد، لأنهم سيجدون لديهم عفواً وغفراناً. فهم في حال الحرب أصحاب بطش وقوة، لا يعرفون ضعفاً ولا يأساً ولا استسلاماً؛ أما في السلم فهم يسابقون الرياح إلى المكرمات، ويسارعون إلى نجدة الناس الذين مسهم الضيق. بكل هذا جعل الأخطل الخليفة وقومه في مستوى المثالية والكمال بين البشر، وعرف كيف يختار المعاني التي يبتهج بها الأمويون ويجدون فيها خدمة عظيمة لسياستهم، فكلام الأخطل يعلن أنّ حكم بني أمية قائم على حق شرعي إلهي لا يمكن أن تزعزعه ثورات المتمردين وعصيانهم.

يقول وهب رومية<sup>613</sup>: "الأخطل يفرض على مستمعيه إذا أرادوا أن يفهموا هذا المديح حظاً طيباً من الثقافة التاريخية الإسلامية، ومن الثقافة التاريخية العربية" وهذا كلام صحيح، ففي هذه القصيدة من الأخبار التاريخية والمواقف السياسية الشيء الكثير، ولفهم هذه الأحداث يحتاج قارئ القصيدة إلى ثقافة واسعة واطلاع عميق على ما كان يدور هناك من أحداث ومنازعات بين أقطاب الصراعات المختلفة.

<sup>613</sup> بنية القصيدة العربية، وهب رومية، 470



ونلاحظ أن ألفاظ القصيدة قد جاءت قوية، وتراكيبها كانت مناسبة مختارة بعناية فائقة، ولو أخذنا مثلا لفظة نبعة، فإن هذه اللفظة توحى بقوة الممدوح وتميزه، والنبعة في اللغة هي شجرة تتخذ منها القسي<sup>614</sup>، وكلمة حشد تدل على التكاثر والتلاحم والتآزر على الحق، وعبرة عيافو الخنا تشير إلى طهارة القلب وعفة اللسان، ونلاحظ أيضا أن عباراته تتميز بالإيجاز، فمثلا في قوله: "شمس العداوة حتى يستقاد لهم"، تعني أنهم يعنفون بمن يخرج على سلطانهم، ويعفون عمن يقع في أيديهم من أعدائهم ويستذل لهم، فهم يعفون عند المقدرة، فلا حلم في العفو دون ذلك، وقد وردت عبارات النص وتراكيبه في قالب إخباري ملائم لغرض المدح.

كما نلاحظ أن الشاعر قد استعان بطائفة من ألوان البيان من أجل إبراز معانيه وتوضيح أفكاره كالاستعارة الملكية في قوله "يبارون الرياح"، كناية عن السرعة الفائقة في الاستجابة للمحتاجين ونجدتهم، وقوله "الخائض الغمر" كناية عن شجاعة الممدوح واقتحامه للمخاطر وخوضه للحروب، وقوله "الميمون طائره" كناية عن النجاح الذي يحالفه دائما، وقوله "يستسقى به المطر" كناية عن تقواه وصفاء طويته، فالناس يستسقون به لأن الله يستجيب لهم بسبب التقوى والورع اللذين يتحلى بهما.

إلا أن القصيدة في مجملها تخلو من المحسنات البديعية إلا ما جاء منها عفو الخاطر، كالطباق مثلا في قوله ابيض وسواد، و بينيها ويهدمها، والإيراد والصدور،

<sup>614</sup> نقانض جرير والأخطل، ص155

ولا ورد ولا صدر. ونلاحظ أن هذه المطابقات قد جاءت عفوية غير مقصودة، وأعطت جمالا وحيوية للآبيات التي وردت فيها.

لقد تأثر الأخطل تأثرا واضحا بالشعراء الجاهليين، ولعل أكثرهم تأثرا عليه النابغة الذبياني، وعنه أخذ الاستدارة التي وردت في قول النابغة الذبياني في مديحه للنعمان<sup>615</sup>.

فَمَا الْفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ	تَرْمِي أَوَاذِيَهُ الْعَبْرِينَ بِالزَّبَدِ
يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لِحَبِّ	فِيهِ زُكَّامٌ مِّنَ الْيَنْبُوتِ وَالْحَصَدِ
يَظُلُّ مَنَ خَوْفِهِ الْمَلَأُحُ مُعْتَصِمًا	بِالْخَيْرِزَانَةِ بَعْدَ الْإَيْنِ وَالنَّجَدِ
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ سَيَبُ نَافِلَةً	وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ

يقول الأخطل مقلدا النابغة الذبياني في هذا التشبيه ومحورا فيه ومجددا في مدح عبد الملك<sup>616</sup>:

وَمَا الْفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ حَوَالِبُهُ	فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعُسْرُ
وَدَعْدَعَتَهُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ وَاضْطَرَبَتْ	فَوْقَ الْجَاجِيءِ مِنْ أَذْيِهِ غُدْرُ
مُسْخَنَفَرًا مِّنْ جِبَالِ الرُّومِ تَسْتُرُهُ	مِنْهَا أَكَافِيفٌ فِيهَا دُونُهُ زَوْرُ
يَوْمًا بِأَجُودَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ	وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يَجْتَهَرُ

<sup>615</sup> ديوان النابغ الذبياني، ص 16

<sup>616</sup> شعر الأخطل، 97/1

فالأخطل أخذ من النابغة صورته التي صور بها جود النعمان، إذ شبهه بالفرات حين يعلو فيضانه ويشد، فيجرف ما يلقاه في طريقه من نبات وأشجار، وقد حاول الأخطل أن يحدث في هذه الصورة طرافة جديدة كما يقول شوقي ضيف، وهي طرافة يستمدها أولا من التفصيل في صورة فيضان الفرات، وتعقبه وهو يسقط من جبال الروم في انحدار شديد، تندافع معه السيول والأمواج تدافعا، ويستمدها ثانيا من المقارنة نفسها، فالنابغة يكتفي في المقارنة بين النعمان والفرات بالجود، أما الأخطل فيمد المقارنة إلى الجهارة والروعة، فعبدالمك لا يشبه الفرات فقط في جوده، بل يشبهه أيضا في جسامته وروعته وفخامته<sup>617</sup>

وقد أطلق أحد الدارسين على هذا التشبيه مصطلح التشبيه المتنامي، وعده من الظواهر الأسلوبية للصور التشبيهية، ويمتاز بمجىء طرقي التشبيه بنمط تركيبى يتقدم فيه المشبه به ويكون منفيًا في أغلب الأحيان بحرف النفي " ما "، ويتأخر المشبه ويكون مثبتًا ومسبقًا بحرف الجر " الباء "، واسم تفضيل على وزن " أفعل ". وقد بحث صاحب الدراسة الأسلوبية لشعر الأخطل في هذا التشبيه وتعرّض بعض الدارسين والباحثين في العصر الحديث له في دراساتهم، وتوصل من خلال بحثه إلى أن شوقي ضيف في كتابه (العصر الجاهلي) قد أطلق على هذا النوع من التشبيه في معرض حديثه عن شعر الأعشى التضمن، وأطلق عليه شكري فيصل في كتابه (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام) الاستدارة التشبيهية، وسماه إيليا حاوي في كتاب (الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره) التشبيه الاستطراذي، وأشار إليه المرحوم

<sup>617</sup> التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، 139

الدكتور نصرت عبدالرحمن في كتابه (الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ( بالتشبيه الطويل، وأطلق عليه الدكتور عبدالقادر الرباعي في كتابه (الطير في الشعر الجاهلي) مصطلح التشبيه الدائري<sup>618</sup>.

---

<sup>618</sup> دراسة أسلوبية في شعر الأخطل، عمر عبدالهادي قاسم، 196

وللفرزدق في عبد الملك بن مروان قصيدة واحدة ومقطوعة مكونة من ستة أبيات، وبضعة أبيات وردت في قصيدة مدح فيها هشام بن عبد الملك وأخرى هجا فيها عبد الرحمن بن محمد بن معد يكره الكندي، أما القصيدة فهي البائية و مطلعها<sup>619</sup> :

تَضَاحَكْتُ أَنْ رَأْتُ شَيْبًا تَفَرَّعَنِي      كَأَنَّهَا ابْصَرْتُ بَعْضَ الْأَعَاجِبِ<sup>620</sup>

وقد جاءت هذه القصيدة في ثلاثة وأربعين بيتا، استغرق بناء مقدمتها سبعة أبيات، افتتحها الفرزدق بالنسيب وبالشكوى من الشيب، الذي اعتبرته صاحبه شيئا عجيبا، وهو في هذه المقدمة يشكو من غدر النساء وتحولهن وتلونهن وغدرهن بمن يسلم قياده لهن ويميل قلبه إليهن، ويحمل عليهن حملة عنيفة بسبب تقلبهن هذا، ومع كل ذلك فهو ما زال محبا لصاحبه مخلصا لها على الرغم من عدم استطاعته الوصول إليها، يقول:

مِنْ نِسْوَةٍ لَبِنِي لَيْثٌ وَجِيرَتُهُمْ      بَرَحْنَ بِالْعَيْنِ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ طِبِّ  
فَقُلْتُ إِنَّ الْحَوَارِيَّاتِ مَعْطَبَةٌ      إِذَا تَقَتَّلْنَ مِنْ تَحْتِ الْجَلَابِبِ<sup>621</sup>  
يَدْنُونَ بِالْقَوْلِ، وَالْأَحْشَاءُ نَائِيَةٌ      كَدَابٍ ذِي الصُّعْنِ مِنْ نَأْيٍ وَتَقْرِبِ<sup>622</sup>

<sup>619</sup> ديوانه، 43/1

<sup>620</sup> نفرعني: علاني

<sup>621</sup> الحواريات: النساء الحضريات، معطبة: مهلكة، تفتلن: تلوتين

<sup>622</sup> ذي الصعن: الظليم الصغير الرأس

وبالْأَمَانِيَّ، حَتَّى يَخْتَبِلْنَ بِهَا      مَنْ كَانَ يُخَسِّبُ مِنَّا غَيْرَ مَخْلُوبٍ  
يَأْبَى إِذَا قُلْتُ أُنْسَى ذِكْرَ غَايَةِ      قَلْبٍ يَحْنُ إِلَى الْبَيْضِ الرَّعَائِبِ<sup>623</sup>  
أَنْتِ الْهَوَى، لَوْ تَوَاتَيْنَا زِيَارَتُكُمْ      أَوْ كَانَ وَلِيُّكَ عَنَّا غَيْرَ مَحْجُوبٍ

ونستطيع القول إن الفرزدق قد سار في بناء هذه القصيدة على نهج سابقه، فقد انتقل في البيت الثامن من النسيب إلى مخاطبة الحادي الذي يزجي المطية التي يقودها بشدة لكي يحقق له حاجته المتمثلة بالوصول إلى غايته، وفي البيت التاسع يطلب منه أن يبلغ أمير المؤمنين رسالة صدر فيها عن نصح وعلم بلا مراعاة ولا مداجاة يتحدث فيها عن العراق وما كان يجري فيه من فتن، إلى أن أدركه الخليفة بأحد قادته العظام هو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أقام فيه الأمن، واستطاع أن يقضي على الفتن هناك، واستخلصه من الطامعين :

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ      يُرِيدُ مَجْمَعَ حَاجَاتِ الْأَرَاكِبِ<sup>624</sup>  
إِذَا أَتَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْ،      بِالنُّصْحِ وَالْعِلْمِ، قَوْلًا غَيْرَ مَكْذُوبٍ  
أَمَّا الْعِرَاقُ فَقَدْ أَعْطَتْكَ طَاعَتَهَا      وَعَادَ يَعْمُرُ مِنْهَا كُلَّ تَخْرِبٍ  
أَرْضٌ رَمِيَتْ إِلَيْهَا، وَهِيَ فَاسِدَةٌ،      بِصَارِمٍ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَشْهُوبٍ  
لَا يَغْمِدُ السَّيْفُ إِلَّا مَا يُجَرِّدُهُ      عَلَى قَفَا مُحْرِمٍ بِالسُّوقِ مَضْلُوبٍ

ويتعرض لعبدالله بن الزبير وينعته بكذاب مكة، وأنه قد أشاع الفساد في البلاد، وأراد أن يستولي على الخلافة وهي ليست حقا له، يقول:

<sup>623</sup> الرعائيب: جمع رعيوبة وهي الوراثة البيضاء الجميلة  
<sup>624</sup> الأراكيب: ركبان الإبل

بَعْدَ الْفَسَادِ الَّذِي قَدْ كَانَ قَامَ بِهِ كَذَابُ مَكَّةَ مِنْ مَكْرٍ وَتَخْرِبٍ

رَامُوا الْخِلَافَةَ فِي غَدْرٍ فَأَخْطَأَهُمْ مِنْهَا صُدُورٌ وَفَازُوا بِالْعَرَاقِبِ

ويستطرد الفرزدق بوصف المعارك التي دارت في تلك الأنحاء بين مصعب بن الزبير وقائده إبراهيم بن الأشتر وبين جيش أهل الشام الذي كان يحاربهم، ووصف الجيوش التي كانت تخوض تلك المعارك، والقتلى التي خلفتها المعركة والتي تركت في العراء طعاما للنسور وللطيور، تماما كما كان يفعل شعراء الجاهلية أثناء تصويرهم للمعارك وما تخلفه من قتلى يتركون في العراء طعاما للطيور:

فَانْقَضَ مِثْلَ عَتِيقِ الطَّيْرِ تَتْبَعُهُ مَسَاعِرُ الْحَرْبِ مِنْ مُرْدٍ وَمِنْ شَيْبٍ

وَقَدْ رَأَى مُضْعَبٌ فِي سَاطِعٍ سَيْطٍ مِنْهَا سَوَابِقُ غَارَاتٍ أَطَانِيبٍ<sup>625</sup>

يَوْمَ تَرَكْنَ لِإِبْرَاهِيمَ عَافِيَةً مِنَ النُّسُورِ وَقُوعاً وَالْيَعَاقِبِ

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الخلافة واستحقاق بني أمية لها لأنهم ورثوها عن عثمان، ولذلك فهو يتبنى النظرية الأموية للخلافة التي تقول إن عثمان قد قتل مظلوما وأن الأمويين محقون في الطلب بدمه، وأن الخلافة حق يتوارثونها منه، يقول:

فَأَصْبَحَ اللَّهُ وَلَى الْأَمْرِ حَايَهُمْ بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَصَدْعٍ غَيْرِ مَشْعُوبٍ

تُرَاثُ عُثْمَانَ كَانُوا الْأَوْلِيَاءَ لَهُ سِرْبَالُ مُلْكٍ عَلَيْهِمْ غَيْرِ مَسْلُوبٍ

<sup>625</sup> السبط: المطر المنهمر، الأطانيب: الخيل يتبع بعضها بعضا

يَحْمِي إِذَا لَبَسُوا الْمَادِيَّ مُلْكُهُمْ      مَثَلُ الْقُرُومِ تَسَامَى لِلْمَصَاعِبِ  
 قَوْمٌ أَبُوهُمْ أَبُو الْعَاصِي أَجَادَ بِهِمْ      قَرْمٌ نَجِيبٌ لِحُرَابٍ مَنَاجِبِ  
 قَوْمٌ أَثْبَيُوا عَلَى الْإِحْسَانِ إِذْ مَلَكُوا      وَمِنْ يَدِ اللَّهِ يُرْجَى كُلُّ تَثْوِيٍّ

ثم ينتقل إلى مدح الحكم بن أيوب الثقفي الذي هدده ونهاه عن هجائه، ويظهر له الطاعة، ويبين خوفه منه:

فَلَوْ رَأَيْتَ إِلَى قَوْمِي إِذَا انْفَرَجَتْ      عَنْ سَائِقٍ وَهُوَ يَجْرِي غَيْرَ مَسْبُوبٍ  
 كَادَ الْفُؤَادُ تَطِيرُ الطَّائِرَاتُ بِهِ      مِنَ الْمَخَافَةِ إِذْ قَالَ ابْنُ أَيُّوبٍ  
 فَقُلْتُ هَلْ يَنْفَعُنِي إِنْ حَصَرْتُكُمْ      بِطَاعَةٍ وَفُؤَادٍ مِنْكَ مَرْعُوبٍ  
 مَا تَنَّهُ عَنْهُ فَلَيْتُ لَسْتُ قَارِبَهُ      وَمَا نَهَى مِنْ حَلِيمٍ مِثْلَ تَجْرِيْبِ

ونستطيع القول إن الفرزدق قد نهج في بناء قصيدته هذه نهج الشعراء السابقين، شأنه في ذلك شأن معاصريه ( جريير والأخطل وكثير وغيرهم ) الذين اتخذوا من القصائد المدحجية الجاهلية أمودجا يحتذونه، مع وجود اختلاف في بعض التفاصيل، فقد ابتدأ قصيدته بالنسيب والشكوى من غدر النساء وتحولهن بسبب الشيب الذي اعتراه، ثم انتقل بعد ذلك إلى الرحلة إلى الممدوح وإن كانت مقتضبة في بيتين اثنين، ونلاحظ أن الفرزدق لم يرتحل بنفسه وإنما طلب من الحادي أن يوصل رسالة منه إلى الخليفة، تلك الرسالة التي شرح له فيها أحوال العراق والمعارك التي خاضتها جيوش الأمويين ضد أعدائهم، وما أسفرت عنه تلك المعارك من هزيمة للخصوم وانتصار لجيوش الخليفة، وصور لنا جثث القتلى التي تركت في أرض المعركة طعاما



للطيور، وهذا الوصف للمعارك والطيور ورد عند غير واحد من شعراء الجاهلية<sup>626</sup>.

وينتقل بعد ذلك إلى مدح عبد الملك بن مروان من خلال مدحه لآل مروان، ثم ينتقل في آخر القصيدة للاعتذار من الحكم بن أيوب الثقفي<sup>627</sup> الذي هددته وتوعده بسبب هجائه له، وإعلان الطاعة والولاء له بسبب الخوف منه.

ونلاحظ أن لغة الفرزدق في هذه القصيدة قد تراوحت بين الصعوبة والسهولة، ففي حين تحتاج بعض ألفاظه في المقدمة وفي وصف المعركة وآثارها إلى معجم لتفسيرها، مثل ( تفرعني، برحن، معطبة، تَفْتَلْن، ذي الصعن، يختلبن، الرعابيب، السائلة، مربوب، محروب، مساعر، منعلة، القتم، مجنوب، وغيرها )، ترق ألفاظه وتسهل عندما يتحدث عن الخليفة، وعندما يستخدم الألفاظ والمصطلحات الإسلامية، والحقيقة فإن التأثر بالألفاظ الإسلامية واضح بين عنده، وهذا أمر طبيعي لأنه يمدح خليفة مسلم، لذلك لا بد له من استخدام هذه الألفاظ والمصطلحات في حديثه عن الخليفة والخلافة، (أمير المؤمنين، سيوف الله، مجاهد وجهاد، الأرض لله ولاها خليفته، صاحب الله، الخلافة، الرحمن، الله ولي الأمر، وغيرها ) .

<sup>626</sup> انظر ديوان النابغة الذبياني في تصويره للمعركة والطيور التي تحلق فوق الجيش منتظرة انتهاء المعركة لتنقض على جثث القتلى 43

<sup>627</sup> الحكم بن أيوب الثقفي، هو ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي، لما ولي الحجاج العراق ولّاه البصرة، ثم عزله عنها، الوافي بالوفيات 69/13، تاريخ دمشق 3/15

ونلاحظ من قراءتنا لهذه القصيدة أن الفرزدق قد استخدم بعض المحسنات اللفظية بعفوية ودون قصد، فمن الطباق مثلاً طابق بين: ( يدنون ونائية، نأي وتقريب، يعمر وتخریب، مرد وشيب، يغمد ويجرد، أخطأهم وفازوا )

وقد جانس بين الألفاظ التالية جناساً غير تام ( راكب وأراكيب، فقل قولاً، مجاهد وجهادهم، سائلة وسلاتها، تغدو ويغدو، نجيب وأناجيب، أثيوا وتثويب، وغيرها ) وقد أضفت هذه المحسنات على القصيدة جمالاً وعذوبة لأنها جاءت عفو الخاطر ودون تكلف.

أما المقطوعة التي بين أيدينا فهي مكونة من ستة أبيات، يتحدث فيها الفرزدق عن بني مروان، وعن حربهم لآل الزبير، ويتحدث عن موقعة مَسْكِنُ بينهم وبين مصعب بن الزبير، وعودة أتباع آل الزبير إلى رشدهم<sup>628</sup>:

إذا لاقى بنو مروانَ سَلُوا      لِدِينِ اللهِ أَسِيفاً غَضاباً

ولا نستطيع بدورنا أن نصدر حكماً مطمئناً على هذه المقطوعة لوجود احتمال أن تكون عبارة عن أبيات قطعت من قصيدة ضاعت ولم يبق لنا سوى هذه الأبيات منها، إلا أننا نلاحظ أن الفرزدق في هذه المقطوعة يتعرض لآل الزبير كما تعرض لهم في قصيدته السابقة، ولعل ذلك يعود إلى المنازعة التي وقعت بينه وبين النوار زوجته، حيث شكته النوار إلى عبدالله بن الزبير، والتجأت إلى زوجته خولة بنت

<sup>628</sup> ديوانه، 42

منظور بن زبان الفزاري، ولحق بها الفرزدق لاستردادها، إلا أنهما لم يتفقا، وظلت تنازعه حتى أقدم على طلاقها، لكنه ندم على ذلك ندما شديدا.

## شعر الراعي النميري

أما الراعي النميري فله قصيدتان يذكر فيهما عبد الملك ويشكو من السعاة الذين أنقلوا كاهل قبيلته بالجباية والضرائب، وأولى هاتين القصيدتين هي اللامية وتقع في اثنتين وتسعين بيتاً كما جاءت في ديوانه الذي حققه راينهرت، وفي جمهرة أشعار العرب جاءت في ستة وثمانين بيتاً<sup>629</sup>، وقد عدها القرشي من القصائد المُلحَّحات، وهناك اختلاف ما بين الجمهرة والديوان في ترتيب أبيات القصيدة وبعض ألفاظها، ومطلعها<sup>630</sup>:

ما بَالُ دَفْكَ بِالْفِرَاشِ مَذِيلاً      أَقْذَى بِعَيْنِكَ أَمْ أُرْدَتْ رَحِيلاً

وعلى الرغم من الشكوى المبريرة التي رفعها الراعي النميري للخليفة في هذه القصيدة، إلا أنه لا يكاد يمدحه في بيت واحد منها<sup>631</sup>، وأبيات المدح القليلة التي وجدت في القصيدة هي في مدح والده مروان بن الحكم<sup>632</sup>.

أما الدالية فتقع في ثلاثة وستين بيتاً، ومطلعها<sup>633</sup>:

بَانَ الْأَحْبَةُ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَهَدُوا      فَلَا تَمَالِكْ عَنْ أَرْضِ لَهَا عَمَدُوا

<sup>629</sup> جمهرة أشعار العرب، 729

<sup>630</sup> ديوانه، 213

<sup>631</sup> في النص الإسلامي والأموي: دراسة تحليلية، محمد علي الهرفي وآخرون، 29

<sup>632</sup> ملحمة الراعي النميري: قصيدة الرقص والاحتجاج، صالح مخيمر مجلة الدارة السعودية، مجلد 15، عدد 1، 1989، ص 118

<sup>633</sup> ديوانه، 54

وإذا تأملنا قصيدته اللامية فنستطيع أن نقسم هيكلها البنائي إلى الأقسام التالية:

— المقدمة وقد استغرقت الأبيات من 1 — 5.

— الرحلة من خلال الناقة من الأبيات 6 — 31.

— الشكوى من السعاة وما آلت إليه حاله من الأبيات 32 — 40.

— الحديث عن حال عشيرته وعروبتهم واتباعهم للدين والطلب من الخليفة إنصافهم ورفع الظلم عنهم من 41 — 70

— ظلم السعاة وما فعلوه بالناس من 71 — 92.

وبالإجمال نستطيع أن نقول إن الراعي النميري قد نهج في بناء مقدمة قصيدته هذه نهجا جديدا يختلف عن نهج الشعراء الذين سبقوه، بل ويختلف بناؤها اختلافا واضحا عن بناء القصائد الموجهة للخلفاء، إذ لم يفتح هذه القصيدة بالحديث عن الأطلال، ولا بالنسيب كما كان يفعل غيره من الشعراء<sup>634</sup>، بل افتتحها بالهموم الكبيرة التي يختزنها والتي تؤرقه بسبب ما آلت إليه أحوال قبيلته المعيشية نتيجة ظلم عمال الخليفة وسعاته الذين اعتسفوا في جمع الضرائب من قومه وبالغوا فيها مبالغة كبيرة، وقد حاول معالجة هذه القضية الاقتصادية في جراءة كبيرة

<sup>634</sup> في النص الإسلامي والأموي: دراسة تحليلية، 29

لا نجدها عند غيره من الشعراء، فقد رفع الراعي شكواه المدوية هذه إلى الخليفة دون خوف أو وجل. يقول في مقدمة القصيدة مصرحا بالأرق الذي يحمله<sup>635</sup>:

ما بَالُ دَفْكَكَ بِالْفِرَاشِ مَذِيلاً      أَقْضَى بَعِينِكَ أَمْ أُرِدْتَ رَحِيلاً  
لَمَّا رَأَتْ أَرْقَى وَطُولَ تَقْلُبِي      ذَاتَ الْعِشَاءِ وَلَيْلِي الْمَوْصُولَا  
قَالَتْ خُلَيْدَةُ مَا عَرَاكَ وَمَنْ تَكُنْ      قَبْلَ الرُّقَادِ عَنِ الشُّؤُونِ سَوُولَا  
أَخْلَيْدُ إِنَّ أَبَاكَ ضَافَ وَسَادَهُ      هَمَّانٍ، بَاتَا جَنْبَهُ، وَدَخِيلَا  
طَرَقَا فَتِلْكَ هَمَاهِمِي، أَقْرِيهِمَا      قُلُصاً لَوَاقِحَ كَالْقِسِيِّ، وَحَوْلَا

ونستطيع القول إن هذه القصيدة تطرح موضوعاً واحداً، وتثير قضية واحدة أحس بها الشاعر، وعبر عنها، هي الشكوى والاحتجاج على ما آلت إليه الأمور من ظلم واعتساف، وقد نهج فيها نهجاً جديداً ميزه عن غيره من شعراء عصره، ونتيجة لهذه الخاصية التي امتاز بها الراعي قال عنه ابن سلام في طبقاته: "كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل أي أنه لا يحتذى شعر شاعر ولا يعارضه"<sup>636</sup>.

وينتقل من المقدمة إلى الرحلة من خلال الناقية فيقول:

شُمَّ الْكَوَاهِلِ جُنْحاً أَعْصَادُهَا      صُهِباً تُنَاسِبُ شَدَقَمًا وَجَدِيلَا  
كَانَتْ نَجَائِبَ مُنْذِرٍ وَمُحَرِّقٍ      أَمَّاتُهُنَّ وَطَرَفُهُنَّ فَحِيلَا  
وَكَأَنَّ رِيْضَهَا إِذَا بَاشَرَتْهَا      كَانَتْ مُعَاوِدَةَ الرَّحِيلِ دَلُولَا

<sup>635</sup> ديوانه، 213

<sup>636</sup> طبقات ابن سلام، 502/2

حُوزِيَّةً طَوِيَّتْ عَلَى زَفَرَاتِهَا      طَبِي الْقَنَاطِرِ قَدْ نَزَلْنَ نُزُولَا

ويستمر الراعي في رسم لوحات ناقته هذه حتى البيت الواحد والثلاثين، بهذه اللغة المغرقة في الغرابة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى نقل رسالته التي تجشم كل هذه المتاعب من أجل إيصالها إلى الخليفة، تلك الرسالة التي شكى فيها ظلم السعاة وجبروتهم وطغيانهم ومخالفتهم لأوامر الخليفة، ووصف ما آلت إليه حاله بلغة سهلة تختلف اختلافا كلياً عن لغته في وصف الناقّة، يقول:

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً      شَكُوِي إِلَيْكَ مُطَلَّةً وَعَوِيلاً  
مِنْ نَارِجٍ كَثُرَتْ إِلَيْكَ هُمُومُهُ      لَوْ يَسْتَطِيعُ إِلَى اللِّقَاءِ سَبِيلاً  
طَالَ التَّقَلُّبُ وَالزَّمَانُ وَرَابَهُ      كَسَلٌ وَيَكْفَرُهُ أَنْ يَكُونَ كَسُولَا  
وَعَلَا الْمَشِيبُ لِدَاتِهِ وَمَضَتْ لَهُ      حَقَبٌ نَقَضْنَ مَرِيرَهُ الْمَجْدُولَا  
فَكَأَنَّ أَغْظَمَهُ مَحَاجِنُ تَبَعَةٍ      عُوجٌ قَدُمَنْ فَقَدْ أَرْدَنْ نُحُولَا

وبعد أن انتهى من هذه الصورة التي رسمها لنفسه، انتقل إلى وصف الحالة التي وصلت إليها عشيرته بسبب هذا الظلم الذي وقع عليها، يقول وهب رومية "مدح الراعي الخليفة عبدالمملك بن مروان، فإذا مديحه تصوير واسع للرعية فيما تعانيه من البؤس والاضطهاد، وتصوير حي ودقيق لتصرفات ممثلي الخلافة من السعاة والعمال، وشكوى عنيفة ومرة من هذا الظلم الشديد الذي يلحق بالناس عامة وبعشيرته خاصة، واحتجاج أعنف وأشد ضد هؤلاء العمال وتصرفاتهم<sup>637</sup>،

<sup>637</sup> بنية القصيدة العربية، وهب رومية 503

يقول:

أَوَّلِيْ أَمْرَ اللَّهِ إِنَّ عَشِيرَتِيْ      أُمْسَى سَوَامُهُمْ عَزِيْزَ فُلُولَا  
قَطَعُوا الْيَمَامَةَ يَطْرُدُونَ كَأَنَّهُمْ      قَوْمٌ أَصَابُوا ظَالِمِينَ قَتَلَا  
يَحْدُونَ حُدُبًا مَاثِلًا أَشْرَافُهَا      فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ يَدْعَنَ رَعِيْلَا  
شَهْرِيْ رَيْبِعٍ مَا تَدُوْقُ لُبُوْنُهُمْ      إِلَّا حُمُوزًا وَخَمَّةً وَدَوِيْلَا

ويذكر الخليفة بأن قومه عرب مسلمون، يؤدون ما يقره الدين عليهم من واجبات مثل الصلاة والزكاة، ويطلب منه رفع الظلم عنهم ويتحدث عن مقتل الخليفة عثمان، وقيام الفتنة، واختيار بني أمية والده مروان لحسم الأمور بعد أن أعلن عبدالله بن الزبير نفسه خليفة، ويحلف الشاعر أنه لم يساند ابن الزبير، ويتبرأ من نجدة بن عمير الخارجي، يقول :

أَوَّلِيْ أَمْرَ اللَّهِ إِنَّا مَعَشَرٌ      حَنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيْلَا  
عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ فِي أَمْوَالِنَا      حَقَّ الزَّكَاةِ مُنْزَلًا تَنْزِيْلَا  
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ مَا يَمْتَنِعُوا      مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيْلَا  
فَادْفَعْ مَظَالِمَ عِيْلَتِ ابْنَاءِنَا      عَنَّا وَأَنْقِذْ شِلُونَا الْمَأْكُولَا

وفي البيت الواحد والسبعين وما بعده يتحدث الراعي عن عصيان السعاة لأوامر الخليفة، وما فعلوه بالقبيلة، فتعسفوا في تحصيل الأموال أضعافا مضاعفة من الناس، وكيف أنهم لم يتركوا كبيرا ولا صغير غنيا ولا فقيرا إلا وأوقعوا عليهم الظلم، فأصبح الغني لا يجد شيئا يقتات به تماما كما الفقير المعدم، ويحذر الخليفة من



عواقب هذا الظلم وخروج الناس عليه، وهو بذلك يحمل الخليفة مسؤولية هذا الظلم وأوزاره، وقد تنبه الخليفة لما رمى إليه الراعي ووعاه، وقد ذكر الرواة أن هذه القصيدة لم تقع موقعا حسنا من نفس عبدالمملك، والدليل على ذلك أنه قال له حين وفد عليه مرة أخرى وانشدته قصيدته الثانية " أنت هذا العام أعقل منك عام أول <sup>638</sup> .

والذي يعن النظر في هذه القصيدة لا بد أن يلاحظ أن الراعي النميري قد سلك فيها منهجين اثنين، المنهج الأول يتمثل بتلك اللوحات الفنية التي رسمها في رحلة الإبل، وقد جاءت فيها مفرداته غريبة صعبة، ولا بد لمن يريد أن يفهم معانيها من العودة إلى معجمات اللغة، ومن هذه الألفاظ ( قلص، لواحق، الحوارك، حويزة، بزلن، مزلة، ريض، أثباجها، دلف الرواح، تنوفة، ريدا، ذميلا، مائرة،... وهكذا.

أما المنهج الثاني فقد جاء بمنتهى الوضوح واليسر، كما يقول مخيمر صالح <sup>639</sup> وعرض الشاعر في هذا المنهج قضيته بوضوح تام لا يستعصي فهمه على أحد،

واستخدم ألفاظاً سهلة واضحة، وهذا ما أشار إليه أبو زيد القرشي عندما سمى هذه القصيدة "مُلِحْمَة" أي القصيدة التي تتلاحم أجزاءها بعضها ببعض، ونتيجة لذلك يقرر مخيمر أن القصيدة ذات موضوع واحد، وأن الأجزاء التي جاءت فيها هي أبعاد أو صور أو لوحات تتحد وتتجمع لتشكّل الموضوع الأساس، ولذلك استخدم في المستوى الثاني ألفاظا واضحة سهلة مثل: رسالة،

<sup>638</sup> طبقات فحول الشعراء، ص 512

<sup>639</sup> ملحمة الراعي النميري: قصيدة الرقص والاحتجاج، مخيمر صالح ص 120

عويلاً، مظالمًا، التقلب، المنام، كسولا، حلفت، يمين، أكذب، طائعاً، عرب، أموالنا، الزكاة، تنزيلاً، الرحمن، منافق، وهكذا

ولذلك فإن المستوى الثاني بوضوحه وسهولة فهمه، يعين على فهم المستوى الأول، وهذا ما يدعو إلى القول بأن القصيدة تمتاز بوحدة موضوعية وعضوية، فهي وحدة واحدة من المشاعر والأحاسيس متلاحمة الأجزاء كما عبر عن ذلك القرشي أبو زيد.

وفي قصيدته الثانية التي مطلعها <sup>640</sup>:

بَانَ الْأَجْبَةُ بِالْعَهْدِ الَّذِي عَهَدُوا      فَلَا تَمَالِكْ عَنْ أَرْضٍ لَهَا عَمَدُوا  
وَرَادَ طَرْفُكَ فِي صَحْرَاءَ صَاحِيَةٍ      فِيهَا لِعَيْنَيْكَ وَالْأُظْعَانُ مُطَّرِدُ  
وَأَسْتَقْبَلْتُ سَرَبَهُمْ هَيْفُ يَمَانِيَةٍ      هَاجَتْ نِزَاعاً وَحَادٍ خَلَفَهُمْ عَرِدُ<sup>641</sup>  
حَتَّى إِذَا حَالَتِ الْأَرْجَاءُ دُونَهُمْ      أَرْجَاءُ أَرْمَلٍ حَارَ الطَّرْفُ أَوْ بَعْدُوا<sup>642</sup>  
حَنُّوا الْجِمَالَ وَقَالُوا إِنَّ مَسْرَبَكُمْ      وادي المِيَاهِ وَأَحْسَاءُ بِهِ بُرْدُ<sup>643</sup>  
وَفِي الْخِيَامِ إِذَا أَلْقَيْتُ مَرَاسِيَهَا      حُورُ الْعُيُونِ لِإِخْوَانِ الصَّبَا صِيدُ<sup>644</sup>

<sup>640</sup> ديوانه 54

<sup>641</sup> السرب: الإبل، الهيف: الريح الحارة التي تأتي من اليمن، النزاع: الحنين، نزع إلى الشيء أي حن إليه

<sup>642</sup> أرجاء أرملة: موضع، معجم البلدان يرمل

<sup>643</sup> وادي الميَاه: موضع، الأحساء جمع حسي وهي حفرة قريبة القعر تنبع منها مياه باردة عذبة

<sup>644</sup> صيد: خمع صيود وهي التي تصطاد الرجال

كَأَنَّ بَيْضَ نَعَامٍ فِي مَلَا حِفْهَها إِذْ اجْتَلَاهُنَّ قَیْظٌ لَّیْلُهُ وَمِدَّ<sup>645</sup>

وقد استغرقت مقدمة هذه القصيدة ستة عشر بيتا، سارت على هذا النهج الذي رأيناه في لغة الراعي، انتقل بعدها إل الحديث عن الرحلة ووصف الراحلة في الأبيات من السابع عشر إلى البيت الخامس والأربعين، وقد شبه ناقته فيها بالبكرة التي يستقى عليها وبالقطاة، وبالبقرة الوحشية، وقد لاحظنا في حديثه عن الرحلة والراحلة صعوبة الألفاظ التي استخدمها وغرابتها، فلوحاته التي رسمها في هذا المقطع مليئة بالغريب الذي ميزه عن غيره من شعراء العصر الأموي.

تعرض بعدها إلى ذكر ابنته خليدة التي نهته عن القيام بهذه الرحلة خوفا منها عليه، يقول:

قَامَتْ حُلَيْدَةُ تَنْهَانِي فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْمَنَايَا لِمِيقَاتٍ لَهُ عَدَدٌ

وانتقل بعد ذلك إلى المديح في البيت السابع والأربعين، وكانت لغته في هذا المقطع تختلف اختلافا واضحا عن لغته في المقطع السابق، حيث اتسمت بالسهولة ووضوح المعنى، الأمر

الذي يكشف عن التباين الكبير في لغة القصيدة الواحدة عنده وذلك حسب الموضوع الذي يطرقة:

وَقُلْتُ مَا لَأَمْرِي مِثْلِي بِأَرْضِكُمْ دُونَ الْإِمَامِ وَخَيْرِ النَّاسِ مُتَأَدُّ

<sup>645</sup> اجتلاه: كشفهن، الومد: شدة الحروسكون الريح

إِنِّي وَإِيَّاكَ وَالشَّكْوَى الَّتِي قَصَرْتُ      حَطَوِي وَتَأْيِيكَ وَالْوَجْدُ الَّذِي أَجِدُّ  
كالماءِ والظَّالِعِ الصَّدْيَانِ يَطْلُبُهُ      هُوَ الشِّفَاءُ لَهُ وَالرِّيُّ لَوْ يَرِدُ  
وفي البيت الخمسين يخاطب الراعي الخليفة فيقول:

إِنَّ الْخِلَافَةَ مِنْ رَبِّي حَبَاكَ بِهَا      لَمْ يُصِفْهَا لَكَ إِلَّا الْوَاحِدُ الصَّمَدُ

الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْهَادِي لِطَاعَتِهِ      فِي فِتْنَةِ النَّاسِ إِذْ أَهْوَأَهُمْ قَدَدُ

وفي البيت الثامن والخمسين يستغيث الشاعر بالخليفة من السعاة الذين أوقعوا الظلم على قومه بأن أخذوا الزكاة أضعافا مضاعفة منهم، يقول:

أَنْتَ الْحَيَا وَغِيَاثُ نَسْتَيْتُ بِهِ      لَوْ نَسْتَطِيعُ قَدَاكَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ  
أَزْرَى بِأَمْوَالِنَا قَوْمُ أَمَرْتَهُمْ      بِالْعَدْلِ فِينَا فَمَا أَبْقُوا وَمَا قَصَدُوا  
نُعْطِي الزَّكَاةَ فَمَا يَرْضَى حَاطِبُهُمْ      حَتَّى نَضَاعِفُ أَضْعَافاً لَهَا غُدَدُ  
أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ      وَفَقَّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبْدُ  
وَاخْتَلَّ ذُو الْمَالِ وَالْمُثْرَوْنَ قَدْ بَقِيَتْ      عَلَى الثَّلَاثِلِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَقْدُ  
فإِنْ رَفَعْتَ بِهِمْ رَأْساً تَعَشْتَهُمْ      وَإِنْ لَقُوا مِثْلَهَا فِي قَابِلٍ قَسَدُوا

ونلاحظ أن الراعي قد خالف غيره من الشعراء في غرابة اللغة، خصوصا عندما كان يتحدث عن الصحراء وعن الإبل، وقد ذكر ابو الفرج عن محمد بن سلام أنه

قال: " كان الراعي من رجال العرب ووجه قومه، وكان يقال له في شعره: كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي أنه أن لا يحتذي شعر شاعر ولا يعارضه "646.

وكانت الألفاظ الغريبة سمة بارزة من سمات شعره، فالمجال الذي كان يخوض فيه هو الصحراء وما فيها من حيوان ونبات، وكأن الرغبة عنده في التميز عن غيره من الشعراء هي التي فرضت عليه هذه الغرابة، فعرف بها، إلا أن شعره في النسيب والمدح يختلف اختلافا بينا عن شعره في الصحراء والإبل<sup>647</sup>.

ونلاحظ أن الراعي النميري قد سار في بناء قصيدته هذه على نهج الشعراء السابقين بخلاف قصيدته اللامية التي بدأها بالشكوى والتظلم، فبدأها بوصف الطعن، ووصف الرحلة، ثم انتقل لرسم لوحات ناقلته، تلك اللوحات التي امتاز بها عن غيره من الشعراء، وقد جاءت ألفاظ هذه القصيدة بمنتهى الصعوبة والغرابة، لا سيما في وصف الطعن والرحلة ووصف الناقة، ولا بد لمن يريد أن يطالعها من العودة إلى معجمات اللغة لكي يفهم معانيها، وقد لاحظنا أنه عندما ينتقل للحديث عن الخليفة ترق ألفاظه وتسهل، تماما كما فعل في قصيدته اللامية، وقد زواج بين الألفاظ الصعبة المغلقة والألفاظ السهلة الرقيقة، ولننظر في الألفاظ الإسلامية التي استخدمها الراعي في هذه القصيدة لكي نتبين مقدراته على الإتيان بما يتناسب والموقف الذي يقفه، فمن هذه الألفاظ ( الإمام، الخلافة، أمين الله، الزكاة، وأسماء الله الحسنى الواحد، الصمد، القابض، الباسط، الهادي، )

<sup>646</sup> الأغاني، 117/24

<sup>647</sup> الاتباع والابتداع في الشعر الأموي، محمد أمين المؤدب، 347

شعر عبيدالله بن قيس الرقيات

ابتعد عبيدالله بن قيس الرقيات في مدائحه لعبدالمالك عن الأساليب المعقدة والألفاظ الغريبة التي نجدها عند الشعراء الجاهليين وفي شعر معاصريه مثل الفرزدق والأخطل وجريز، وكان ذلك من غير شك أثرا من آثار الغناء الذي شاع في البيئة الحجازية، وطور لغة الشعر وأساليبه فصارت تمتاز بالسهولة والوضوح<sup>648</sup>

وبجانب هذا التطور الذي أصاب لغة المديح وأساليبه عند ابن قيس نجد تطورا آخر يتمثل في استغلال المطالع الغزلية استغلالا سياسيا، يريد به التعبير عن أفكاره السياسية وإغاظة خصومه، فقد ألفنا من شعراء المديح التمهيد بالغزل العادي لهذا الحشد الهائل من الأوصاف التي يأخذون في إسباغها على ممدوحهم، وقد رأينا أن ابن قيس قد اختص مدائحه في مصعب بهذا اللون من الغزل السياسي أو الغزل الهجائي كما يسميه بعض الدارسين، حتى إذا اضطرت الأحداث السياسية إلى الاتصال ببني أمية وجدناه يلائم بين مطالع هذه القصائد وبين حالته النفسية وما تتابع عليها من الضيق أو السعادة، وقد انتهى بنا درس هذه الظاهرة إلى أن الشاعر كان يقصد إلى استغلال هذه المطالع في مدائحه استغلالا يكشف عما في نفسه من أهواء وأحاسيس<sup>649</sup>.

وهذا كله يدل على أن قصيدة المديح عنده قد أصابها شيء من التطور والتجديد في لغتها وأساليبها وأفكارها على الرغم من محافظتها على النظام القديم،

<sup>648</sup> شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل، إبراهيم عبدالرحمن محمد، 156

<sup>649</sup> المصدر نفسه والصفحة نفسها

ولكن هذا التطور لم يمس النظام التقليدي الذي يقوم على استفتاح القصائد بالغزل أو الوقوف على الديار، ثم التخلّص إلى الموضوع الأصلي الذي هو المديح. وقد مدح ابن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان في ثلاث قصائد، أولاهما بآتيته التي مطلعها<sup>650</sup>:

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرَبِ      فَعَيْنُهُ بِالدَّمُوعِ تَنَسَكِبُ

وهذه القصيدة ليست من القصائد الطوال، إذ بلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين بيتاً، ويبدو أن ابن قيس قد مدح عبد الملك بها بعد مقتل مصعب بن الزبير، وقد بدأها بالنسيب، لكنه نسيب يختلف عن النسيب الذي عهدناه عند الشعراء المعاصرين له، فهو لا يتغزل بكثيرة هذه لأنها آوته عندما كان خائفاً وأكرمت نزله كما تذكر لنا الروايات، لكنه اتخذها رمزاً يتحسر من خلاله على ماضيه الوداع الآمن الذي عاشه في كنف مصعب بن الزبير في العراق، وفقدته بعد مقتله، وتشرّد بسببه، فغناؤه هذا – كما يقول إبراهيم عبدالرحمن – غناء حزين يرمز إلى ما انتهى إليه حاله، وما فقدته من حياة مليئة بالأمن والدعة، يقول<sup>651</sup>:

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرَبِ      فَعَيْنُهُ بِالدَّمُوعِ تَنَسَكِبُ  
كُوفِيَّتُهُ نَازِحٌ مَحَلَّتْهَا      لَا أَمَمٌ دَارُهَا وَلَا سَقَبٌ<sup>652</sup>  
وَاللَّهِ مَا إِنْ صَبَتْ إِلَيَّ وَلَا      يُعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سَبَبٌ

<sup>650</sup> ديوانه، 1

<sup>651</sup> عبدالله بن قيس: حياته وشعره، عبدالرحمن محمد، 202

<sup>652</sup> السقب: القرب

إِلَّا الَّذِي أَوْرَثْتُ كَثِيرَةً فِي الْـ قَلْبِ وَلِلْحُبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

ويقول طه حسين: "ولا تظنن أنه يؤذيها بتغزله بها، فإنه لا يعبر عن علاقته السيئة بها، بل يظهر محاسنها، ويشيعها إعلاء لقدرها وإجلالا لشخصها، وشكرا لها على ما أسدت إليه من معروف<sup>653</sup>."

وهو يصرح بوضوح تام أنه لم يعلق بها علاقة الهوى والحب، وأنها كذلك لم تبادله حبا بحب، إنما تنازعه نفسه إليها لما لها عليه من أياذ بيضاء، ولما تركته في نفسه من آثار عميقة لا يمكن أن ينساها<sup>654</sup>.

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن النساء، ونفورهن منه بسبب اعتلاء الشيب رأسه، وقد أُلح شعراء الجاهلية و شعراء العصور الإسلامية المختلفة على هذه المسألة وذكروها في مقدمات قصائدهم كثيرا، وهم يشكون عزوف النساء عنهم بسبب تقدمهم بالسن وبسبب الشيب الذي أصابهم، يقول ابن قيس شاكيا من الغواني والشيب، — تماما كما فعل كل من الأخطل والفرزدق وجريز في مقدمات قصائدهم التي عرضنا لها —:

لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْغَوَانِي فَمَا يُصْبِحَنَّ إِلَّا لَهْنٌ مُطَلَّبُ

أُبْصِرَنَّ شَيْبًا عَلَا الدُّوَابَّةَ فِي الرَّأْسِ حَدِيثًا كَأَنَّهُ الْعُطْبُ

فَهَنْ يُنْكَرَنَّ مَا رَأَيْنَ وَلَا يُعْرِفُ لِي فِي لِدَائِي اللَّعْبُ

<sup>653</sup> حديث الأربعاء، طه حسين 52/1

<sup>654</sup> مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي حسين عطوان، ص 196



ومن أجل إرضاء عبدالمملك بن مروان ونيل عفوه ورضاه، نلاحظ أن ابن قيس قد عاد إلى الماضي وتحدث عن إخراج عبدالله بن الزبير للأمويين من المدينة ظلماً بعد موت يزيد بن معاوية، ومن بينهم عبدالمملك ومروان بن الحكم والد عبدالمملك، وهو بذلك يشعرنا بأنه لم يكن راضياً عن الإجراء الذي اتخذته ابن الزبير بحقهم، يقول <sup>655</sup>:

يَا حَبَّذَا يَثْرِبَ وَلَدْتُهَا      مَنْ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكَوا وَيَحْتَرِبُوا  
وَقَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ الَّذِينَ لَهُمْ      فِيهَا السَّنَاءُ الْعَظِيمُ وَالْحَسَبُ  
بَعَثْتُ عَلَيْهِمْ بِهَا عَشِيرَتَهُمْ      فَعَوَّجُوا بِالْجَزَاءِ وَأَطْلَبُوا

والناظر في أشعاره المدحية في بني أمية يلاحظ أنه استخدم المعاني نفسها التي عكف الشعراء المادحون لهم على استخدامها في قصائدهم المدحية، وحين يمدح عبدالمملك بن مروان يمدحه بالمعاني التي استخدمها الجاهليون في مدح ممدوحهم من وصف بالشجاعة والحلم والكرم والفصاحة وعراقة النسب، يقول في مدحه لعبدالمملك واصفاً إياه بالبهاء والزينة:

مَا نَقَّمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ إِلَّا      أَنَّهُمْ يَخْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا  
وَأَنَّهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا      تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ  
إِنَّ الْفَنِيْقَ الَّذِي أَبَوُهُ أَبُو الْعَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ  
خَلِيقُهُ اللَّهُ فَوَقَّ مِنْبَرِهِ      جَفَّتْ بِذَاكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ

يَعْتَدِلُ التَّاجُ قَوْقَ مَفْرِقِهِ      عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الدَّهَبُ  
أَخْفَظَهُمْ قَوْمُهُمْ بِبَاطِلِهِمْ      حَتَّى إِذَا حَارَبُوهُمْ حَرَبُوا

وفي تعليقه على المعاني التي تحملها هذه الأبيات قال صلاح الدين الناهي: وروح التكلف في ماء هذا الشعر واضحة، وهو يرى أن الشاعر أساء في هذا الشعر إلى بني أمية أكثر مما أحسن<sup>656</sup>. وهو ينظر بطبيعة الحال إلى المعاني التي أتى بها الشاعر في مدح الخليفة ومدح بني أمية، والموقف نفسه تقريبا تبنته مي خليف حيث وجدت في معاني هذا الشعر ما يسيء إلى بني أمية حين صورهم في إطار نظام من الحكم استبدادي على طريقة الأكاسرة الفرس، وسعي ابن قيس وراء أصالة نسبهم على لغة الشاعر الجاهلي<sup>657</sup>.

ونلاحظ من خلال هذه القصيدة وغيرها من قصائده المدحية، أنه قد ابتعد عن النهج الذي سلكه شعراء المديح الجاهليون وحتى الشعراء المعاصرون منهم من أمثال جرير والفرزدق والأخطل في لغتهم المدحية التي اتسمت بالصعوبة والغرابة، فجاءت ألفاظه سهلة واضحة شفافة.

<sup>656</sup> اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الناهي، 83.

<sup>657</sup> أبعاد الالتزام في القصيدة الأموية، مي خليف 154.

شعر كثير عزة

وإذا انتقلنا إلى قصائد كثير عزة التي نظمها في عبد الملك بن مروان ووصلت إلينا كاملة أو شبه كاملة فسنجد أنه قد سار في بنائها على نهج الشعراء السابقين، فقد افتتح قصيدته التي مطلعها<sup>658</sup> :

خَلِيلِي إِنْ أُمَّ الْحَكِيمِ تَحَمَّلْتُ وَأَخْلَتَ لِحَيِمَاتِ الْعُدْبِ ظِلَالُهَا

بالنسيب والتحسر على الأيام السالفة، وانتقل في أثناء حديثه عن أم الحكيم إلى الحديث عن الرحلة والانتقال إلى مصر حيث تقيم صاحبتة، وقد استغرقت منه هذه المقدمة اثنين وعشرين بيتا، التفت بعدها للحديث عن بني مروان وحبه لهم:

تَذَكَّرْتُ أَنَّ النَّفْسَ لَمْ تَسْلُ عَنْكُمْ وَلَمْ تَقْضِ مِنْ حُبِّي أَمِيَّةً بِأَلْهَا

ووصف ديارهم وبيوتهم، وتحدث في أثناء حديثه عن بني مروان عن سيدهم عبد الملك واحترامهم وطاعتهم له، فهو الذي استطاع أن يستحوذ على الخلافة من منائيه ومنافسيه بحد السيف وبالقوة، ويصف المعارك التي خاضها جيشه مع جيوش أعدائه ويستطرد في وصف هذه الجيوش وهذه المعارك استطرادا لافتنا، وقد تمكن من استصفاء الخلافة لنفسه بعد أن أراح عنها منافسيه:

أَحَاطْتُ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ مَا أَرَادَ رِجَالُ آخَرُونَ اغْتِيَالَهَا

ثم وجه كل معانيه وركزها على الخلافة وعبد الملك، وراح ينسب كل الصفات التي تؤهله وتثبت جدارته للاضطلاع بأمرها، فهاجم خصومه الذين

<sup>658</sup> ديوانه، 75

حاولوا انتزاع الخلافة لأنفسهم، لكنهم اضطروا إلى تسليمها له بسبب عجزهم أمامه بعد أن تمكن من الانتصار عليهم في المعارك التي خاضها ضدهم، أما الناس فبايعوه عن رضا وطاعة بعد ما رأوا الأمن والسلام واليمن والبركة على يديه بتوليهِ الخلافة<sup>659</sup> :

بَلَّوْهُ فَأَعْطَوْهُ الْمَقَادَةَ بَعْدَ مَا      أَدَّبَ الْبِلَادَ سَهْلَهَا وَجِبَالَهَا

وقد عرض صورة واسعة لحروبه مع هؤلاء الأعداء الذين انتصر عليهم انتصارا ساحقا ليشير بعد ذلك إلى أن النصر في المعارك هو أقوى دلائل السيادة وأعظم صفات الزعامة الحقّة، خاصة إذا كان الانتصار على أولئك المنافسين أنفسهم الذين يزعمون أنهم أحق منه بالخلافة، فبدأ بوصف خيل كتائبه ومسيرها إلى أعدائه فقال<sup>660</sup> :

مَقَانِبَ خَيْلٍ مَا تَزَالُ مُظْلَمَةً      عَلَيْهِمْ فَمَلُّوا كُلَّ يَوْمٍ فِتَالَهَا  
دَوَافِعَ بِالرُّوحَاءِ طَوْرًا وَتَارَةً      مَخَارِمَ رَضَوَى مَرْجَهَا قَرِمَالَهَا  
يُقَيِّلْنَ بِالرُّوْرَاءِ وَالْجَيْشُ وَاقِفٌ      مَزَادُ الرُّوَايَا يَصْطَبِيْنَ فِضَالَهَا  
عَلَى كُلِّ خِنْذِيذِ الصُّحَى مُتَمَطِّرٌ      وَخِيفَانَةٍ قَدْ هَذَّبَ الْجَرِيُّ آلَهَا  
وَخَيْلٍ بِعَانَاتٍ فَسِنَّ سُمَيْرَةً      لَهُ لَا يُرِيدُ الدَّائِدُونَ نِهَالَهَا

<sup>659</sup> كثير عزة، حياته وشعره، أحمد الربيعي، 222

<sup>660</sup> ديوانه، 81

وانتقل بعد ذلك إلى وصف كتائب أعدائه وسلاحهم، ووصف كتائب عبد الملك وفرسانه وأسلحتهم وبسالتهم في القتال وصفا دقيقا، ثم تحدث عن عبد الملك الذي قاد جيوشه في هذه المعركة فأخذ يغير على جيوش الأعداء، يقول <sup>661</sup>:

وَحَرِبْ إِذَا الْأَعْدَاءُ أَنْشَتْ حِيَاضَهَا	وَقَلَّبَ أَمْرَاسُ السَّوَانِي مَحَالَهَا
وَرَدَّتْ عَلَى فُرَاطِهِمْ فَدَهَمَتْهُمْ	بِأَخْطَارِ مَوْتٍ يَلْتَهِمْنَ سَجَالَهَا
وَقَارِيَةِ أَحْوَاصٍ مَجْدِكَ دُونَهَا	ذِيَادًا يُبَيِّلُ الْحَاضَنَاتِ سَخَالَهَا
وَشَهْبَاءَ تَرْدَى بِالسَّلُوقِيِّ فَوْقَهَا	سَنَا بَارِقَاتٍ تَكْرَهُ الْعَيْنُ خَالَهَا
قَصَدَتْ لَهَا حَتَّى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا	صَرَبَتْ بِبُصْرِي الصَّفِيحِ قَذَالَهَا

وتحدث عن ارتقاء عبد الملك ذروة العلياء بعد هذا النصر المبين الذي حققه عليهم، وأشاد بهمته العالية التي أوصلته إلى قمة المجد، بينما لم يتمكن غيره من الطامحين أن يجاروه في هذا الذي حققه، يقول <sup>662</sup>:

سَمَوْتَ فَأَدْرَكْتَ الْعُلَا وَإِمَّا      يُلْقَى عَلَيَاتِ الْعُلَى مِنْ سَمَا لَهَا  
وَصُلْتَ فَنَالَتْ كَفُّكَ الْمَجْدَ كُلَّهُ      وَلَمْ تَبْلُغِ الْأَيْدِي السَّوَامِي مَصَالَهَا

<sup>661</sup> المصدر نفسه، 84

<sup>662</sup> ديوانه، 84

ونراه بعد ذلك يرسم صورة هذا البطل الظافر وهو يتسربل بالحديد ويحكم له بالتفوق على جميع الناس في مزاياه وخصاله الحميدة، يقول<sup>663</sup>:

على ابنِ أبي العاصي دلاصٌ حصينُهُ      أجادُ المُسدِّي سرَدَها وأذالَها  
يؤودُ ضعيفَ القومِ حمْلُ قَتيرِها      ويسْتَضِلُّ الطرفُ الأشمُ احتمالَها  
فأقسِمُ ما مِن حُلَّةٍ قد خيرْتُها      مِن النَّاسِ إلَّا قد فَضَلَتْ خالَها  
وما ظنُّنَّ في جَنبِكَ اليومَ مِنْهُمْ      أزنُّ بها إلَّا اضْطَلَعْتُ اِحْتِمَالِها

ويطالب بني عبد شمس ألا يجحدوا نعم آل مروان وأن يشكروهم على هذه النعم التي غمروهم بها:

فَلَا تَكْفُرُوا مَرَّوَانَ آلَاءَ أَهْلِهِ      بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ وَاشْكُرُوهُ فَعَالِها

ويختتم قصيدته هذه بادعائه أن الخليفة هو الذي تحيل بلطفه عليه لكي يكتسب وده فيقول:

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي      عَزَا كَامِنَاتِ النَّصْحِ مِنِّي فَنَالَها

لقد اتبع كثير في عرض الموضوعات التي طرقها في هذه القصيدة التي بلغ عدد أبياتها ثمانية وسبعين بيتا أسلوب التفصيل والتنسيق، فهو لا يترك الموضوع

<sup>663</sup> المصدر نفسه 85

الذي يعالجه إلا بعد أن يستقصي أبعاده ويستجمع أطرافه ويستوفي جميع معانيه، ويعرضه عرضاً منسفاً دقيقاً جلياً<sup>664</sup>.

وإذا عدنا إلى لغة كثير فسنجد أنها تتباين بين الوضوح والغرابة، كما تراوحت معانيه بين السهولة والتعقيد حسب قرب الموضوع الذي يطرحه أو بعده عن حياة البادية، فالمقاطع التي يتحدث فيها عن الرحلة ووصف الراحلة ويتعرض فيها لمظاهر الصحراء ومياهها ونباتها وحيوانها تسيطر عليها الألفاظ الغريبة التي يحتاج معها الباحث إلى العودة إلى معجمات اللغة لكي يستجلي معانيها، أضف إلى ذلك ذكره لكثير من المواضع والمواقع في مقدمات مدائحه التي تحتاج منا العودة إلى معجمات البلدان للتعرف عليها، وإذا انتقل إلى المديح فإن لغته تميل إلى السهولة والبعد عن الألفاظ الغريبة، " فلغة مديحه جلية ناصعة متقاة مصفاة من شوائب الألفاظ الغريبة بحيث ترى كلمات البيت الواحد كحبات اللؤلؤ في نقائها واتساقها ليس بينها لفظ غريب معتم أو ناشز في حوشيته "<sup>665</sup>.

<sup>664</sup> كثير عزة: حياته وشعره، أحمد الربيعي، 221

<sup>665</sup> المصدر نفسه، 243

## الخاتمة

تناولت هذه الدراسة صورة الخليفة عبد الملك بن مروان عند شعراء العصر الأموي، وحاول الباحث جهده أن يبينها كما رسمها الشعراء له، وكان لا بد قبل الحديث عن معالم هذه الصورة من التطرق إلى الظروف السياسية والفتن والحروب التي تزامنت مع تسلم المروانيين الحكم، وظهور الأحزاب المناوئة لهم من الشيعة والخوارج والزيريين، لذلك تحدث التمهيد عن هذه الظروف والأحوال، كما بحث بإيجاز كبير عن ملامح شخصية عبد الملك بن مروان الذي تسلم الخلافة سنة خمس وستين بعد وفاة والده مروان بن الحكم، وبين البحث أن عبد الملك كان يتمتع بثقافة واسعة متعددة الجوانب، فقد كان فقيها من الفقهاء الأربعة المحدثين في المدينة، وكان بالإضافة إلى ذلك عالما بأنساب العرب، حافظا للشعر راوية له، وكان ذواقة ناقدًا.

وقد أولى الأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص عناية فائقة، وبذل في سبيل تشجيع الشعراء على النظم الأموال الكثيرة، ففتح أبواب قصره لاستقبالهم والسماع منهم، وأجرل لهم العطاء، وقد ساهم عدد كبير منهم في رسم صورة إيجابية له، ووقفوا يدافعون بأشعارهم عنه وعن السياسة التي اتبعها ضد خصومه السياسيين لا سيما الزيريين والخوارج، وقد مزجوا في مدحهم له بين القيم الجاهلية والقيم الإسلامية، لذلك نستطيع أن نقول بوجود تيارين اثنين سار عليهما الشعراء في نظم قصائدهم المدحية في عبد الملك، التيار الأول تيار جاهلي ترسم فيه الشعراء خطى أسلافهم الجاهليين، فاستعاروا في معظم الأحيان أوصافهم وصورهم ، وتغنوا بقيمهم المتمثلة بوصف الممدوح بالشجاعة والكرم والنخوة وأصالة النسب



وغيرها من الأوصاف، والتيار الثاني هو تيار إسلامي، استخدموا فيه القيم والصفات الإسلامية الدينية، فظهر الخليفة عندهم في موقع المسؤولية وفي أعلى درجات التدين، يؤدي العبادات على خير وجه، وينشر العدل والأمن، يرحم الرعية ويعطف عليها، وقد كلفه الله أداء هذا الحق، فهو يعمل بأمره، وهو خليفته في أرضه، وخليفة رسوله الكريم، خصه الله بهذا الأمر، وقدره له تقديراً، لأنه القدوة المثلى التي لا يشبهها أحد من أقرانه، وأكد الشعراء على فكرة القداسة في الخليفة، وألحوا على المظهر الديني له، مما أدى إلى ثبات هذه الصورة الجديدة له، ولم يستطع الشعراء الذين مدحوا الخلفاء الذين جاءوا بعده من تغيير هذه الصورة لأولئك الخلفاء، وأصبحت هذه الصورة هي النموذج والمثال المتبع، مما أدى إلى الإسراف والمبالغة والغلو فيها، وذلك استجابة لرغبة الخليفة ودعماً لنظرية بني أمية السياسية، فأغلق الشعراء عليه إطار هذه الصورة الدينية التي يقوم وجهها الآخر على سلطة تقليدية تتضمن كل القيم الاجتماعية الإيجابية التي يجب أن يتمتع بها الرجل العربي خاصة إذا كان في موقع المسؤولية يقوم على شؤون المسلمين.

أما الصورة الثانية التي رسمها له الشعراء المناوئون فكانت ملامحها غير واضحة كما لاحظنا في الصورة الإيجابية، وتمثلت معاملها بالظلم والجور والتجرد من الصفات الدينية وابتداع البدع، والضلال وتحليل الحرام وتحريم الحلال على خلاف الشرع، واقتراف القتل بحق المسلمين والغدر كما حدث مع عمرو بن سعيد الأشدق.

وقد امتازت القصائد المدحجية التي تناولناها في هذه الدراسة بما يلي:

— ضمت قصيدة المديح عدة موضوعات، ولم تعد مقتصرة على موضوع المديح فقط، بل صارت مزيجاً من موضوعات مختلفة هي المديح والفخر والهجاء، وقد لاحظنا ذلك في قصائد الأخطل وجريير المدحية.

— دخلت المعاني الإسلامية إلى قصيدة المديح، وقد سارت جنباً إلى جنب مع المعاني التقليدية التي كان المدح القديم يعتمد عليها، وهذا ناتج عن تأثر الشعراء بالإسلام وبظروف الحياة العربية الإسلامية الجديدة ومظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

— زواج الشعراء في قصائدهم المدحية بين الألفاظ الصعبة الغريبة التي كان الشاعر الجاهلي يستخدمها في قصائده وبين الألفاظ الرقيقة السهلة الشفافة، فكان الشاعر الأموي يستخدم الألفاظ الغريبة في المقدمة وفي رحلة الطعن وفي وصف الصحراء وما يتعلق بها من مظاهر، وكانت ألفاظه ترق وتلين حين يصل إلى الأبيات التي تتضمن المدح المباشر للخليفة عبدالمملك .

— دخلت قصيدة المديح عناصر سياسية جديدة لم تكن موجودة في شعر المديح في العصر الجاهلي، فقد اتخذ الشعراء من الصراع السياسي القائم في العصر الأموي مادة خصبة استغلوها في تنويع أغراض قصائدهم المدحية، فتناولوا في مديحهم لعبدالمملك بن مروان موضوعات جديدة تمثلت في حسن سياسته، وقيامه على مصالح الرعية، واستتباب الأمن ونشر الطمأنينة بين الناس، وإخماد الثورات والفتن وغيرها، وقد احتل الصراع بين الأحزاب المختلفة مساحة واسعة من هذه المدائح،

وترددت في تلك القصائد أصداء المعارك التي خاضتها جيوش عبد الملك ضد خصومه والانتصارات التي حققتها، كما تناولت بعض القصائد قتاله للروم.

وحسبي أنني أخلصت للعمل وأجهدت نفسي في سبيل الاقتراب من روح البحث العلمي، مع إدراكي إن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى الكمال في أي أمر كان، فالدراسات الأدبية والنقدية لا تعرف القول الفصل ولا الكلمة الأخيرة، وقد أحسن العماد الأصفهاني إحسانا كبيرا عندما قال: "إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غيرت هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم الصبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

والله ولي التوفيق

## المصادر والمراجع

أولاً: الكتب المطبوعة

- أبعاد الالتزام في القصيدة العربية، مي يوسف خليف، دار غريب، القاهرة، 1998
- اتجاهات الشعر في العصر الأموي، صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986
- الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري، المكتبة الأزهرية، مطبعة السعادة بمصر، 1330هـ.
- الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار، تحقيق سامي مكي العاني، عالم الكتب بيروت، 1996
- الأخطل شاعر بني أمية، السيد مصطفى غازي، دار المعارف، القاهرة، 1957
- أدب السياسة في العصر الأموي، أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت، 1965
- الأعلام، خيرالدين الزركلي، بيروت، 1979
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، 2005

– الأمالي، أبو علي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ب ت

– الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، دار مكتبة

الحياة، 1942

– الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الجلبي

وشركاه، القاهرة، 1967

– أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، ب ت

– البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق محمد حسان عبيد، دار ابن كثير،

دمشق، 2010

بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، يوسف بكار، دار الأندلس،

بيروت، 1982

– بنية القصيدة العربية حتي نهاية العصر الأموي ( قصيدة المدح نموذجاً )، وهب رومية،

دار سعدالدين، دمشق، 1997

– البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،

1998

– التاج في أخلاق الملوك، الجاحظ، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، 1914

- تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ب ت
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت، 1991
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993
- التاريخ الإسلامي العام، الجاهلية، الدولة العربية، الدولة العباسية، علي إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1972
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001
- تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ب ن، ب ت
- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، 1985
- تاريخ الدولة العربية الإسلامية، عبدالحميد حسين حمودة، دار الثقافة للنشر، بيروت، 2004

– تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، أحمد الشايب، دار القلم، بيروت، 1976

– تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، نجيب البهيتي، دار الثقافة، الدار البيضاء،

2000

– تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي، يوسف خليف، دار نشر المعرفة، القاهرة،

1976

– تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1967

– تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، إبراهيم زعرور، علي أحمد، جامعة دمشق،

دمشق، 1996

– تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة

العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995

– تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد

إبراهيم، جامعة القاهرة، القاهرة، 1937

– تاريخ اليعقوبي، أحمد بن إسحاق اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999

- التراث النقدي: نصوص ودراسات، رجاء عيد، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1990
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط 5، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1973
- تهذيب التهذيب، شهاب الدين العسقلاني، تحقيق إبراهيم الزيق، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ب ت
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزني، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992
- التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، مي يوسف خليف، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنتثور، تحقيق مصطفى جواد، جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1956
- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، أبو زيد القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر القاهرة، 1981
- حديث الأربعاء، طه حسين، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1925
- الحزب الزبيري في أدب العصر الأموي، ثريا ملحس، دار البشير، عمان، 2002



– حماسة أبي تمام، تحقيق عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، 1981

– حماسة البحتري، ضبط كمال مصطفى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1929

– الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964

– حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997

– الخراج وصناعة الكتابة، قدامة بن جعفر، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981

– خزائن الأدب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997

– خلافة بني أمية، نبيه عاقل، دمشق، 1972

– الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، يوسف العث، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1965

– ديوان الأعشى ميمون بن قيس، تحقيق محمد محمد حسين / مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983

- ديوان جرير، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، ب ت
- ديوان الحماسة، أبوتمام، تحقيق عبدالمنعم أحمد صالح، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، 1980
- ديوان الراعي النميري، تحقيق راينهت فايرن، فرانتس شتاينر فيسبادن، بيروت، 1980
- ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، ب ت
- ديوان عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق نوري حمودي القيسي، حاتم صالح الضامن، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1987
- ديوان القطامي، تحقيق إبراهيم السامرائي، أحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، 1960
- ديوان كثير عزة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971
- ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، 2000
- ديوان المعاني، أنو هلال العسكري، شرح وضبط أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994

– ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم عباس عبدالساطر، دار الكتب العلمية، بيروت،

1996

– ديوان النابغة الشيباني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1932

– ذيل الأمالي والنوادر، أبو علي القالي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1926

– رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، 1979

– الرواية الأدبية في بلاد الشام في العصر الأموي، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، 1988

– الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت،

1986

– الزبيريون في التاريخ والأدب، محمد نافع المصطفى، دار المصطفى، الشارقة، 2004

– زهر الآداب، الحصري القيرواني، ط 4، تحقيق زكي مبارك، محمد محيي الدين

عبدالحاميد، دار الجيل، بيروت، ب ت

– السياسة والأدب في العصر العباسي، عزيزة فوال بابتي، دار الشمال للطباعة والنشر،

طرابلس، 1987

– سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1966

– الشاعر الإسلامي تحت نظام سلطة الخلافة، داود سلوم، منشورات عويدات، بيروت، 1978

– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، تحقيق عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1986

– شرح ديوان الحماسة، الخطيب التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1938

– شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، تحقيق أحمد أمين، عبدالسلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951

– شرح ديوان الفرزدق، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983

– شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ب ت

– شعر القبائل اليمنية في العصر الأموي، مفلح النمر الفايز، وزارة الثقافة، عمان، 2001

– شعر ابن قيس الرقيات بين السياسة والغزل: تحقيق ودراسة، إبراهيم عبدالرحمن محمد، مكتبة لبنان، بيروت، 1996

– شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق فخرالدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت،

1979

– شعر إسماعيل بن يسار، تحقيق يوسف حسين بكار، دار الأندلس، بيروت، 1984

– الشعر الأموي بين الفن والسلطان، عبدالمجيد زراقات، دار الباحث، بيروت، 1983

– شعر البصرة في العصر الأموي، عون الشريف قاسم، دار الثقافة، بيروت، 1972

– شعر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي، عادل جابر صالح محمد، دار القدس للنشر،

2004

– شعر الخوارج، جمع وتقديم إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1974

– شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية،

بيروت، 1986

– شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة، زكي

المحاسني، دار المعارف، القاهرة، 1961

– شعر الخوارج، دراسة فنية موضوعية مقارنة، عبدالرزاق حسين، دار البشير، عمان،

1986

– شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري، إبراهيم شحاتة الخواجة، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت، 1984

– شعر عبدالله بن الزبير الأسدي، جمع وتحقيق يحيى الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، 19

– الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق، أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، 1958

– شعراء أمويون، نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، بيروت، 1985

– شعراء الدولتين الأموية والعباسية، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، 1981

– الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952

– الصورة الفنية في النقد الشعري: دراسة في النظرية والتطبيق، عبدالقادر الرباعي، مكتبة الكتاني، إربد 1995

– ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، درويش الجندي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1970

– عبدالمملك بن مروان الناقد الأديب، خليل إبراهيم جفال، دار النضال للطباعة والنشر، بيروت، 1911

- عبد الملك بن مروان، عمر أبو النصر، المكتبة الأهلية، بيروت، 1962
- عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية: حياته وعصره، ضياء الدين الريس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1962
- عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ضياء الدين الريس، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1969
- العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1966
- عبد الله بن قيس الرقيات: حياته وشعره، إبراهيم عبد الرحمن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1965
- عدي بن الرقاع العاملي: حياته وشعره، تحسين الصلاح، وزارة الثقافة، عمان، 1999
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1953
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيقي القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1981
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005

- عيون التواريخ، محمد بن شاکر الکتبی، تحقیق فیصل السامر، نبیلة عبدالمنعم داود، دار الرشید، بغداد، 1980
- فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بیروت، 1969
- الفرزدق، شاکر الفحام، دار الفكر العربي، دمشق، 1977
- الفرق الإسلامية فی الشعر الأموي، النعمان القاضي، دار المعارف، القاهرة، 1970
- فوات الوفیات، محمد بن شاکر الکتبی، تحقیق إحسان عباس، دار صادر بیروت، ب ت
- فی الشعر الإسلامي والأموي، عبدالقادر القط، دار النهضة العربية، بیروت، 1987
- فی النص الإسلامي والأموي: دراسة تحليلية، محمد علی الهرفي، عبدالرزاق حسین، نبیل المحیش، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998
- قصيدة المدح حتی نهاية العصر الأموي بین الأصول والإحياء والتجديد، وهب رومية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1981
- الكامل فی التاريخ، ابن الأثير، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الکتب العلمية، بیروت، 1987



- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992
- كتاب الطبقات الكبير، محمد بن سعد الزهري، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001
- كثر عزة: حياته وشعره، أحمد الربيعي، دار المعارف، القاهرة، 1967
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ب ت
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، ب ت
- مختصر كتاب الفرق بين الفرق، عبد القادر البغدادي، مطبعة الهلال، القاهرة، 1924
- المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، مكتبة المتنبي، القاهرة، ب ت
- المديح، سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، 1992
- المديح في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت، ب ت
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن بن علي المسعودي، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، 2005

– المصون في الأدب، الحسن بن عبدالله العسكري، تحقيق عبدالسلام محمد هارون،  
مطبعة حكومة الكويت، 1984

– المفصل في تاريخ الأدب العربي، أحمد الإسكندري وآخرون، وزارة المعارف، القاهرة، ب  
ت

– معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،  
1993

– معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979

– مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب ت

– مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، 1987

– الملل والنحل، الشهرستاني، تحرير محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية،  
القاهرة، 1956

– الموشح في مآخذ العلماء على الأدباء، المرزباني، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار  
الكتب العلمية، بيروت، 1995

– نسب قریش، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله الزبيري، عني بنشره ليفي بروفنسال،  
دار المعارف، القاهرة، 1976

– نقائض جرير والأخطل، أبو تمام، عني بطبعه وعلق حواشيه أنطون صالحاني اليسوعي،  
دار الكتب العلمية، بيروت، 1922

– النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، 1997

– نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية،  
بيروت، ب ت

– الوافي بالوفيات، خليل بن أبيك الصفدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت،  
ب ت

– ثانيا: الرسائل الجامعية

– التقية في الشعر الأموي، علي خليل محمود الطل، إشراف عبد المنعم حافظ الرجبى،  
رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2005

– دراسة أسلوبية في شعر الأخطل، عمر عبدالهادي قاسم إبراهيم، إشراف خليل عودة،  
رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2001

– شعر الحركة الزيرية: جمع وتوثيق ودراسة، خليل عبد المجيد صلاح، إشراف عبد المنعم  
حافظ الرجبى، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2005

- صورة عبدالملك بن مروان في الروايات الأدبية: دراسة تحليلية نقدية، رابحة مصطفى ياسين أسعد، إشراف فواز أحمد طوقان، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1996
- قصيدة الاعتذار حتى نهاية العصر الأموي، علي أحمد عبدالله، إشراف عبدالكريم يعقوب، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، اللاذقية، 1999
- المديح والفخر بين جرير والفرزدق والأخطل، ظافر عبدالله الشهري، إشراف نعمان محمد أمين طه، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1406 هـ
- ثالثاً: الدوريات:
- حركة التعريب في عصر الخليفة عبدالملك بن مروان، عبدالجبار محسن السامرائي، مجلة سر من رأى، مجلد 3، عدد 8، 2007
- صورة الخليفة ومفهوم النموذج، شعر شعراء الطبقة الإسلامية الأولى من طبقات ابن سلام نموذجاً، فاطمة تجور، مجلة جامعة دمشق، مجلد 24، عدد 4+3، 2008
- عبدالملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره، إحسان عباس، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، مجلد 13، العدد 1، 1986
- ملحمة الراعي النميري: قصيدة الرقص والاحتجاج، مخيمر صالح، مجلة الدارة السعودية، مجلد 15، عدد 1، 1989.